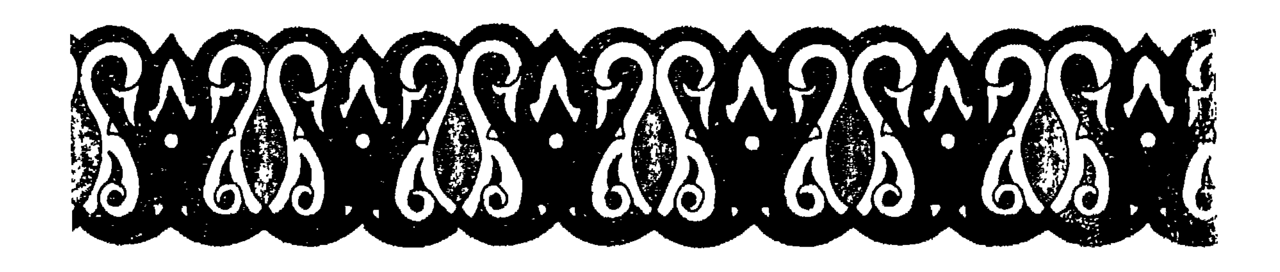
الاستاذ الدكتور منير العجلاني

تاريخ البلاد العربية السعودية

الدولة السعودية الأولى

الجزء الثاني

عهد الإمام عبد العزيز بن محمد





تاريخ البلاد العربية السعودية

الدولة السعودية الأولى

الجزء الثاني

عهد الإمام عبد العزيز بن محمد

تأليف

الدكتور منير العجلاني

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

أستاذ تاريخ الحقوق في الجامعة السورية

(سابقاً)

الطبعة الثانية

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

قلنا ، في الجزء الأول من كتابنا ، إن تاريخ نجد الحديث يبدأ بالسنة التي هاجر فيها الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى « الدرعية » .. ففي تلك السنة بدأت (نجد) تكتشف نفسها وتعي حقيقتها وتصنع وحدتها وتبني نهضتها .

أما قبل ذلك ، وحتى القرن الثاني عشر ، فما كانت (نجد) إلا تعبيراً تاريخيا ومصطلحاً « جغرافياً » في الكتب .. وأما في الواقع ، فما كان شيء يذكر بوحدتها أو بوجودها.. وإنما كانت هناك إمارات ومشيخات كثيرة، كل واحدة منها مستقلة عن الأخرى ، وكانت الحرب ، بين هذه الدويلات العجيبة ، قائمة موصولة ، كأنها جزء من طبيعتها، فكانت البلاد تعيش في رعب دائم : بين عدو يأخذها بالقهر ، أو حليف يأخذها بالغدر .. وما كان أبناء البلدة ليتجرأون على الابتعاد عن أسوار بلدتهم إلا بمغامرة .. لأن الطرق كانت مرصودة بقطاع الطرق وطلاّب الغرّة !..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هكذا كانت نجد : تجديداً وتجسيداً لقصة ملوك الطوائف ، الذين قال فيهم المؤرخ الطبري :

« كل منهم كان ملكه قليلاً ،
انما هي قصور وأبيات ،
وحولها خندق ،
وعدوه قريب منه ،
له من الأرض مثل ذلك ونحوه ،
يغير أحدهم على صاحبه ،
ثم يرجع كالخطفة !. »

كانت الدويلات في نجد صغيرة جـــداً ، ولا نبالغ إذا قلنا إن كل بلدة أو عشيرة كانت دولة .. بل حدثنا ابن بشر أن صاحب بلدة « التويم » قُتِلَ ، (فقسموا البلد أرباعاً ، كل واحد شاخ في ربـع ، فسمّوا « المربوعة » . وإنمـــا ذكرت هذه الحكاية ، ليعرف من وقف عليها وعلى غيرها نعمة الاسلام والجماعة ، فإن هذه القرية ضعيفة الرجال والمال ، وصار فيها أربعة رؤساء !!..) .

وقال صاحب « لمع الشهاب » ، يصف نجداً في تلك الأيام :

(ليس هناك رئيس قاهر يردع الظالم وينصر المظلوم ، بل كل من الحكام حاكم بلده .. والبداة إذ ذاك قبائل شتى .. وحكومة كل شيخ في قبيلته .. وفيهم مشايخ صغار في نفس القبيلة الواحدة يخالفون رأي المشايخ الكبار ، وكان البدو يتحاكمون في قضاياهم الى العرف لا الى الشرع ، وقد يأخذ العرف منهم الرشوة ، وهي ما يعطى لإبطال الحق ..

والحكام طاغون ، يصدّون الناس عن أحكام الشرع ..) .

دويلات صغيرة متعادية ، تعيش في « دوامة » الحروب والطغيان والخوف ، مع غلبة البداوة بأعرافها وضلالاتها ، وفوق ذلك كله : جهل بحقيقة الدين لشيوع

الخرافات وانتشار الشركيات والإعتقاد بالحجار والأشجار ، والنذر للصالحين وللشياطين .. والإستغاثة بالموتى من دون الله سبحانه .. تلك كانت حالة نجد قبيل دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب ، فغير عجيب أن يسمي بعضهم هذه الفترة (**بالجاهلية**) ... تشبيهاً لها بما كان عليه العرب قبل الإسلام !

بعد الدعوة :

كانت نجد ، في تفرق كلمتها وتهافت معتقداتها ، تحتاج إلى زعيم ملهم يعلمها الدين ويحملها على اتباع أوامره ، ويطوي أعلام التفرقة ويجمع الناس تحت راية الأخوة ، فحقّق الله ذلك لنجد في العام ١١٥٧ للهجرة .

ففي ذلك العام المبارك جاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية ، لينقلها من الظلام إلى النور ، ومن التفرقة إلى الوحدة ، ومن الضعف إلى القوة ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الخرافة الى الدين ، فأعزّ الله بحركته لا الإسلام وحده ، وإنما أعز العرب أيضاً ، فقد ساهم الشيخ مساهمة عظيمة في تحرير العرب وتوحيدهم وفي إنشاء الدولة العربية الكبرى ، التي بدأت بقرية الدرعية ، ثم انتهت إلى جمع الجزيرة العربية أكثرها ، تحت راية واحدة : راية التوحيد !

ما كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب ليستطيع أن يحقق أمله الكبير في تعليم العرب دينهم والنهوض بهم وتوحيدهم ، لولا حماية أمير الدرعية ، محمد بن سعود ، لحركته ، وجهاده الموصول هو واخوته وأبناؤه وقومه في سبيل نشر مبادئها ، فهناك دعاة للتوحيد جاؤوا قبل الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، كابن تيمية وغيره ، لم يستطيعوا تغيير الأمور في شعوبهم لفقدان الناصر القوي الأمين ، لذلك عظمت منة محمد بن سعود على الحركة الاصلاحية وبرزت للمؤرخين المنصفين قيمة مساهمته الجليلة في خدمة الإسلام والعرب !

والحق يقال : لولا دعوة محمد بن عبد الوهاب لم تصبح الدرعية قاعدة للدولة السعودية الكبرى !

.. ولولا سيف محمد بن سعود ، لخنق الأعداء دعوة محمـد بن عبد الوهاب في مهدها !

قال أرمسترونغ :

« كان ابن سعود زعيماً قائداً ،

وكان ابن عبد الوهاب هادياً وداعياً إلى الله ،

وبفضل تعاونهما : حُطمت الأوثان ، ونفذت أوامر القرآن ، وأكره الناس على الصلوات الخمس في المساجد ،وعلى صوم رمضان ، ومنع شرب الخمرة والدخان وخضعت القبائل والبلدان واحدة بعد أخرى لدولة التوحيد » .

الدرعية قبل الشيخ :

كانت الدرعية ، قبل وصول الشيخ اليها ، بلدة صغيرة ، ويقال إن عدد بيوتها ما كان يتجاوز السبعين ، وكان صاحبها محمد بن سعود يديرها بأسلوب « عشائري » ،وكان يأخذ من أهلها « القانون » وهو نوع من الضرائب التعسفية.

كان أهل الدرعية حنابلة ، ولكن اسماً لا حقيقة ، وكان لهم « مطوّع » ، ولكنه لا يدعو إلى الدين الصحيح ، وإنما يكتب للناس الحجب والطلاسم .. ويتقبل منهم النذور لغير الله .. وكان النـاس يعتقدون بالأشجار والأحجار ، ويدعون أوليـاءهم لجلب الخير ودفع الضرر .. شأنهم في ذلك شأن غيرهم من أهل نجد !

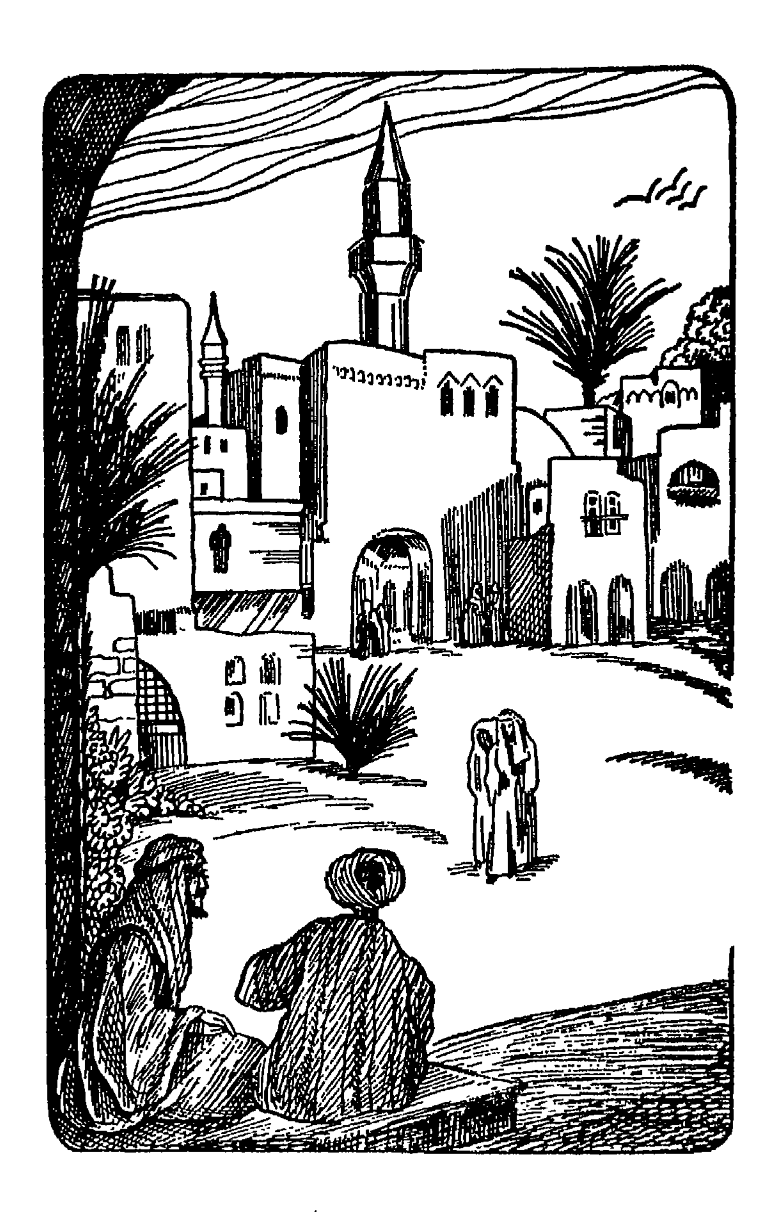
الدرعية بعد الدعوة :

فلما جاء الشيخ إلى الدرعية ، رحّب به أميرها محمد بن سعود ، وقال له :

« أبشر ببلاد خير من بلادك ، وابشر بالعز والنعمة » (١) .

---

(١) انظر ابن بشر .



صورة لمدخل بلدة « الدرعية »
كما تخيله أنكيري في كتابه « ابراهيم باشا »

فقال له الشيخ :

« وأنا أبشرك بالعز والتمكين . وهذه كلمة (لا إله إلا الله) من تمسّك بهـا وعمل بها ونصرها ، ملك البلاد والعباد »[1] .

ثم شرح له معنى التوحيد ، وذكر له شيوع الشركيات والخرافات في نجد ، وانتشار المفاسد والمظالم ، وضرورة مكافحة ذلك . فقـال له الأمير ، في رواية ابن بشر :

« أبشر بالنصرة لما أمرت به ، والجهاد لمن خالف التوحيد »[2] !

ويقول صاحب « اللمع » ان الأمير محمد قال للشيخ :

(هـــذه القرية قريتك ، والمكان أنت واليه ، فلا تخشَ أعداءك ! والله لو انطبقت علينا جميع نجد ما أخرجناك عنا) !

وهكذا كان هذا اللقاء ـ ثم «العهد» ـ بين الرجلين نعمة من نعم الله الكبرى ، فقد استطاع الشيخ أن يعلم أهل الدرعية كلهم ، خلال سنة واحدة ، معـــاني التوحيد ، وأن يجعلهم أنصاراً له ودعاة لفكرته في سائر بلدان نجد !

تغيرت الدرعية ، بعد هجرة الشيخ ، تغيراً كاملاً ، وقـد نستطيـع تلخيص مظاهر هذا التغيير بما يأتي :

أولاً ـ أبطل الاسلوب « العشائري » الذي كان يحكم به الناس ، وحلّ محله حكم نظامي ، دستوره الإسلام .

ثانياً ـ أبطلت « الإخاوة » أو « القـانون » ، وأصبحت موارد الدولة هي الموارد الشرعية وحدها ، من الزكاة والغنائم ونحو ذلك .

---

(١) و (٢) انظر ابن بشر .

ثالثاً — لم تعد القوة هي الحكم في الخلافات التي تقوم بين النـــاس ، فقد أُقيم قضاة لفصل الخصومات بالحق ، فتنعم الجمهور بنعمة العدل .

رابعاً — نشطت حركة التعليم نشاطاً عظيماً ، بل أصبحت الدرعية «مدينة جامعية » يتوافد اليها طلاب العلم من كل بقاع نجد وجزيرة العرب .

خامساً — حلّ الجهاد لإعلاء كلمة الدين محل الغارات العشائرية القديمة التي كان يقصد منها مجرد السلب والنهب والعدوان .

سادساً — حمل الناس حملاً على تنفيذ أوامر الدين والانتهاء عن نواهيه ، وفي مقدمة ذلك إكراههم على الصلوات الخمس في المساجد .

سابعاً — أصبحت الدرعية مركزاً للدعوة ، ينطلق منه الدعـــاة وترسل الكتب إلى كل البلدان ، وتأتي اليه الوفود والضيوف جماعات وفرادى ، وقــد جاء إلى الدرعية عدد كبير من الموحدين ، ضاقت بهم بلدانهم واضطهدتهم ، فأصبحوا بذلك من جنود الدعوة وتقوّى بهم الأمير محمـــد بن سعود وحارب بهم أعداء الدعوة وتغلب عليهم !

تغير الصورة :

رأينا صورة نجد قبل اتفاق الشيخ والأمير ، وفيها : التفرقة ، والضعف ، والجهل ، والرعب ..

فلما اتفق الرجلان العظيمان على التعاون واشتركا في الدعوة إلى الله تعالى ، وفي حكم الدرعية وما ينضم اليها من البلدان ، أخذت الصورة تتغير ..

ويمكننا القول ان محمـد بن سعود شهد ، قبل وفاته عام ١١٧٩ ، نشوء دولة إسلامية عربية حرة ناهضة ، قاعدتها بلدة « الدرعية » .

كانت هذه الدولة في ازدياد ، وكان خصومها في تناقص ..

..وفي عهد محمد بن سعود تمّ توحيد أكثر بلاد العارض، وشقت الدعوة طريقها إلى « الوشم » وإلى سدير وشعيب والمحمل ، وترنحت « الرياض » تحت ضربات الموحدين ..

وكان عبد العزيز بن محمد ، في حيـاة أبيه ، من أكبر أنصار الشيخ ومن أبرز قادة الجيوش وأبطال المعارك .

وإذا كان محمد بن سعود أسس ، مع الشيخ ، الدولة السعودية الأولى ، وهو شرف له عظيم ، فإن ابنه عبد العزيز أضاف الى تركة والده أضعاف أضعافها .. واستحق هو أيضاً من التقدير والثناء ما استحقه أبوه ، وربمـا أكثر ، فقد نذر حياته منذ طفولته حتى موته للجهاد في سبيل الله ثم في خدمة شعبه .

سياسة عبد العزيز الخارجية :

لم يترك عبدالعزيز بعده ذلك «الدوي» الذي خلفه ابنه سعود، الملقب بالكبير، ولكن « الدوي » ليس مقياس العظمة دائماً ..

تحدّى سعود الدولة العثمانية تحدياً صارخاً وحاربها ، وانتصر عليها ، خلال فترة من الزمن ، فكان ذلك وحده كافياً لترديد اسمه في أكثر بلاد الدنيا ..

وأما عبد العزيز فقد حارب ولكنه لم يثر عليه الدولة العثمانية لأنه لم يسرف في معاداتها .

وقـد حاول أكبر خصوم عبد العزيز — وهو شريف مكة — أن يثير عليه السلطان العثماني ، فعجز عن ذلك ، لأن عبد العزيز كان حكيماً في سياسته الخارجية ، ولم يكن ابنه سعود معتدلاً مثله فنجحت دسائس الشريف ضده .

وثيقتان خطيرتان :

ظفرنا بوثائق خطيرة تتصل بعهدي سعود الكبير وابنه عبد الله ، وأما عهد عبدالعزيز فما وجدنا عنه في دور « المحفوظات » التركية والافرنسية والانكليزية

إلا شيئاً قليلاً ، ولعل أهم ما وجـــدناه في دار المحفوظات باستانبول : «عريضتان» رفعها المفاتي والقضاة وبعض الأعيان في مكة والمدينة إلى السلطان العثماني يستنجدان به للدفاع عن هاتين المدينتين ضد .. الدرعية !.. وكان ذلك في عهد عبد العزيز .

كتبت هاتان « العريضتان » – الرسالتان – في عـام ١٢٠٧ للهجرة ، وفيها كثير من السباب والطعن بالحركة السلفية الإصلاحية وصاحبها العظيم ، ولكن الأمر العجيب – والسارّ أيضاً – أن الموقعين على هاتين الرسالتين قـد أسرعوا ، بعد دخول الامـــام سعود مكة – إلى الاعتراف بأن كل ما جاء به الامام محمد بن عبد الوهاب كان مستمداً من القرآن الكريم والسنة النبوية وما كان عليه الخلفاء الراشدون ..

وهكذا أظهرت الأيام أن شريف مكة هو الذي أكره الناس على الكتابة إلى السلطان، فلما زال حكم الشريف انطلقت ألسنتهم بقول الحق الذي يعتقدونه في قرارة أنفسهم ، وربما فعلت قلة منهم ذلك نفاقاً ، والله وحده يعلم السرائر !

هاتان الوثيقتان لم تنشرا من قبل في أي كتاب أو مجلة ، وربما كانتا تبقيان مطويتين زمناً طويلاً لولا نشرنا لها،وقد صورناهما – أنظر صورهما في الصفحات « س » إلى « خ » – ثم أوردنا أكثر نصوصها في الصفحات « ذ » إلى « د.د » ، باستثناء فقرات نابية وسباب بذيئة ، وهاتان الوثيقتان تبرز لنا الأمور الآتية :

أولاً– شدة مخاوف شريف مكة من قوة الدولة السعودية ،وهي المخاوف التي جاءت على ألسنة المفاتي والقضاة والخطباء والمدرسين والأعيان في مكة والمدينة..

ثانياً – شدة « تبعية » القضاة والمفاتي وغيرهم من الموظفين للسلطة العثمانيـة ومبالغتهم في التملق والهوان.. وتمدحهم للسلطان العثماني بما لا يليق بعربي ومسلم أن يفعله .. فضلاً عن الكذب الظاهر في قولهم إن وارث الخلفاء الراشدين ومن أبنائهم !..

ثالثاً – استعمال ألفاظ تـدل حقاً على « الشرك » الذي أرادوا تنزيه أنفسهم عنه ..

رابعاً – السخف في إيرادهم المآخذ على الموحدين في نجد، تلك المآخذ التي جعلوها وسيلتهم الى مطالبة السلطان العثماني بمحاربتهم .. ومن جملتها : ان الموحدين من أهل نجد لا يكرمون كتاب « دلائل الخيرات » !! – فتأمل ! –

خامساً – يعترف الموقعون بسرعة انتشار الدعوة بين عرب الحجاز وبلوغها الى عرب الشام والعراق ..

وهناك أمر آخر يستحق التنويه به والتنبيه اليه وهو : **أن الوثيقة الاولى تحدّد ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجـــد : بسنة ١١٤٣ هـ .** وهو ما أغفل تحديده مؤرخا نجد ابن غنام وابن بشر .

رجال العهد :

لم يكن عبد العزيز وحده صانع كل الأمجاد التي تحققت في عهـده ، فقد شاركه في تخطيط سياسته وتحقيق « مشاريعه » رجال عظماء ، لا بـد لنا من الإشارة الى طائفة منهم .

ألمع الأسماء في عهد عبد العزيز :

١ – **الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب:** الذي كان يوجه سياسة البلاد حتى فتح الرياض ، ثم ترك أمور السياسة لعبد العزيز وانصرف إلى العلم ، وإن كان عبد العزيز لم يستغنِ قط عن مشورته .

وقد توفي الامام سنة ١٢٠٦ للهجرة ، وعاش عبد العزيز بعده اثني عشر عاماً كان خلالها أبناء الشيخ ، وفي مقدمتهم الشيخ حسين ، ينهضون بما كان ينهض به والدهم العظيم ، وإن كانت زعامتهم الدينية ، طبعاً ، أضعف قليلاً من زعامته .

٢ – **عبد الله بن محمد** : أخو عبد العزيز :

كان الأمير عبد الله بن محمد بن سعود بطلاً ، شارك في كثير من الحروب والغزوات ، وأبلى فيها بلاءً حسناً ، وكان عبد العزيز يحب أخاه عبد الله حباً كثيراً ، وقد كشف لنا الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف في بعض رسائله عن « حادثة » جليلة ، لم يشر اليها المؤرخون ، وهي **أن عبد العزيز أراد ، بعد فتح الرياض ، أن يسمي أخاه عبد الله أميراً عليها ، فمنعه الامام محمد بن عبد الوهاب من ذلك ، مع محبته هو أيضاً لعبد الله.** وذلك حرصاً على وحدة الدولة الناشئة وقوتها ، فلو أن البلدان النجدية توزعت بين عدد من أمراء آل مقرن واستقل كل واحد منه بمملكته الصغيرة لما قامت الدولة السعودية الكبرى [1] ..

وعبد الله بن محمد بن سعود ، رحمه الله ، هو أبو الإمام تركي وجد الإمام فيصل ، أي أنه الجد الأعلى للملك عبد العزيز ، مؤسس المملكة العربية السعودية .

٣ – **سعود بن عبد العزيز :**

قاد أكثر الحروب والغزوات في عهد أبيه ، وكانت له مشاركة كبيرة في أمور السياسة والإدارة أيضاً .

٤ – **آل الشيخ :**

كان الشيخ حسين وإخوانه أبناء الشيخ أعظم الوزراء – أو المستشارين – عند عبد العزيز ، وكان على رأيهم المعوّل في الامور الدينية ، وكانت كتبهم ورسائلهم في الامور الشرعية مرجعاً للقضاة ولسائر الناس ، ولكن عبد العزيز

---

(١) أنظر رسالة الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف إلى ابراهيم بن عبد الله وإخوانه المنشورة في الجزء السابع – كتاب الجهاد – من مجموعة (الدرر السنية في الأجوبة النجدية) صفحة ٢٧١ وهذه قطعة منها : (وكذلك ما قاله إمام هذه الدعوة النجدية الشيخ محمد رحمه الله تعالى لما أراد عبد العزيز أن يجعل أخاه عبد الله أميراً في الرياض بعد فتحها ، أنكر ذلك وأعظمه ، وقال هذا قدح وغيبة لإمام المسلمين وعضده ونصيره ، لأنه رأى ذلك وسيلة إلى الفرقة ، مع أن عبدالله ما يظن به إلا خيراً ، وحسبك به رحمه الله) .

مع تقديره لها ولعلم أصحابها لم يلزم الناس بها إلزاماً مطلقاً، فقد جاء في بعض رسائل عبد العزيز ما يسمح بمخالفة رسائلهم وآرائهم عند وجود الدليل المخالف، قال :

« هـــذا كتاب آل الشيخ ، تشرفون على ما فيه من الأدلة التي لا تنكر في مسألة العلامة التي تجعل في العبي وغيرها من الحرير ، فيكون عندكم معلوماً إن إخوانكم من أهل الدرعية عملوا على ما في الورقة ، فأنتم اعملوا على مثل ما عملوا ، **ومن وجد دليلاً يخالف مـــا فيها فالحق مقبول متبوع ، والرجوع الى الحق خير من التمادي في الباطل .** »

اسلوب الدعوة والدعاة :

وجدنا في كتاب أرسله الشيخ عبد الرحمن بن حسن إلى الإمام فيصل بن تركي فقرة أحببنا إثباتها هنـــا لما تضمنته من الإشارات اللطيفة إلى الاسلوب الذي استنّه الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، واتبعه من جاء بعده ، في الدعوة إلى التوحيد ونشر الدين والعلم بين الناس وإعزاز كلمة رجال الدين وتقديمهم ، قال :

(.. دائماً في كل وقت ، يبعثون الدعاة إلى الله إلى كل بلدة ، يجدّدون لهم دينهم ويسألونهم عن ثلاثة الأصول والقواعد وغير ذلك من كتب الأصول .

أعرف منهم نحو العشرة ، منهم : عبـــد الله بن فاضل ، وعبد الرحمن بن ذهلان ، وراشد بن درعان ، وعثمان بن عبد الله بن عبيكان ، ومحـــد بن قاسم ، وأحمد الوهيبي ، وسليمان بن ماجد ، ومحمد بن سلطان وأولاده ، وحسن بن عيدان ، ومحمد بن سويلم ، وعبد العزيز بن سويلم ، وعثمان العود ، وعبد الرحمن بن نامي ، وعبد الرحمن بن خريف ، وأمثال هؤلاء من لهم فقه في التوحيد ورغبة فيه .

وكل واحد من هؤلاء يروح لجهة ، ومعه اثنـــان أو ثلاثة ، ويجلس في البلد قدر شهرين ، يسألهم ويعلـّمهم ، والذي ما يعرف دينه يؤدّب الأدب البليـغ ما يعارض ، فإذا أراد السفر استلحق أهل الدين من أهل البلد ، وقال : سلموا على الكبار ، ويعرف الشيخ وعبـــد العزيز وإخوانهم بأحوالهم ويقدمونهم في بلدهم

بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبهذا صار للدين سلطان وعز ، وهـذا يفعلونه دائماً مع الرعايا ، وصار الذي له دين يقوم بالدين ويأمر وينهى ، والذي ما له دين يتزبّن عند أهل الدين .

وأما حالهم في بلد الدرعية ،فبنوا مجمعاً حول مسجد البجيري ـ محله معروف إلى اليوم ـ يسع له قدر مـائتي رجل ، وجعلوا فيه رفاً للنساء ، فإذا صلّوا الصبح أقبلوا لهذا المجمع ، وفيه معاميل وقهوة وما نابها مقيوم به من بيت المال ، تارة يجلس فيه (حسين) ابن الشيخ ، وتارة (عبد الله) وتارة (علي) ، ويقرأون في نسخ التوحيد ، فإذا فرغ هذا الدرس راحوا ، هم وغيرهم ، وجلسوا عنـد بيت الشيخ ، حتى يجيء عمك وجدك وسعود وعياله ، وآل عبد الله ، ويدخلون عند الشيخ رحمهم الله ، فإذا « تقهووا » وذكر عمك ، رحمه الله ، للشيخ ما عنده من خبر أو أمر يحتاج له الشيخ ذكره له وأخذ ما عنـده من رأي ومن علم ، وأرخصوا للجماعة .. وقرأ ثلاثة : (عبد العزيز) بن الشيخ يقرأ في تفسير ابن كثير ، و (علي) و (عبد الله) يقرأون في البخاري ، وكل من عنـده دراية وفهم إذا فاضوا في الباطن صاروا حلقاً يتذاكرون درس الشيخ رحمه الله .

والأجنبي الذي يبغي يركب لديرته يصغي للمذاكرة ، عارف أن أهل ديرته يسألون : أيش أيش درس الشيخ فيه ؟

وقـد ذكرت لك قصة ابراهيم بن زيد في تلك المدة ، وموسى بن حجيلان يمشي على المساجد يسألهم : عن ثلاثة الأصول والقواعد .

ونحن ، يا حمولة ، لنا مجلس بين العشاءين في الباطن ، (يجتمعون) فيه أهل البلاد ، ونسأل اثنين ، والذي ما يعرف دينه يضرب ..

فأول يجلس فيه حسين ، ثم علي بن الشيخ . وجلست فيه مدة نحو سنتين أو ثلاث على هذا الترتيب ، ثم حمد بن حسين .

هذا بعض ما حضرناه من سيرتهم ، فلما توفى الله عمك حصل غفلة عن هـذا الترتيب ، لما فتح الله الدنيا وكثرها على النـاس ووقع الاعراض عن كثير مما ذكرنا ، لا كله بل باقٍ له بقايا ، وحدث ما حدث من البلاوى بالعدو)[1] .

عظمة عبد العزيز :

وبعد .. لا بدّ لنا ، قبل اختتام هـذه المقدمة ، من كلمات نصف بها ، في كثير من الإيجاز ، بعض مظاهر العظمة الحقيقية – لا التعاظم – في شخصية الإمام عبد العزيز بن محمد ، مبتدئين أولاً بذكر الأسباب التي تحملنا على تسمية عبد العزيز **المؤسس الثاني للدولة السعودية الاولى** ؛ ثم نصف **عبد العزيز – الانسان** ، ثم نورد ما قال فيه **أول غربي زار الدرعية في عهـده** ، ثم نعرض **للمفاضلة بينه وبين ابنه سعود ...**

---

(١) يجب أن نضيف إلى أسماء الدعاة والعلماء البارزين في عهد عبدالعزيز اسم الشيخ عبدالعزيز ابن عبد الله الحصين الناصري والشيخ حمد بن ناصر بن معمر ، وهناك آخرون وردت أسماؤهم في مواضع متفرقة من هذا الكتاب وربما أفردنا لذكر علماء الحنابلة في ذلك العصر كتاباً خاصاً .

— ١ —

المؤسس الثاني للدولة السعودية الاولى

ورث عبد العزيز عن أبيه مُلكاً صغيراً قاصراً على عـدد قليل من القرى ، أكثرها في العارض ، ولكن الله سبحانه بارك هـذا الملك الصغير ونصر راياته ، فلم تمضِ سنوات معدودات حتى ضمّ عبد العزيز الى سلطانه بلاد نجد والأحساء وجبل شمر وتهامة وسراة عسير ومرتفعات الحجاز ، وبسط حمايته على القواسم وعمـان وزبارة والبحرين ، كما تفتحت له أبواب الحرمين وجُبيت له الزكاة من بوادي العراق والشام .

وهكذا تضاعف ملكه ألف مرة ، حجماً وقوة وثراء .. وكبرت قرية الدرعية ، قاعدة إمارته ، حتى أصبحت أعظم مدينة في جزيرة العرب .. ولعل أول ما يتذكره أحدنا ، وهو يقارن بين ضعف الدرعية قبل الدعوة وبين قوتها بعد الدعوة ، تلك الكلمات الملهمة التي قالها الشيخ محمد بن عبد الوهاب لمحمد بن سعود في أول لقاء كان بينهما ، فقد وعده ، متى أخلص التوحيد والتزم بأحكام الشرع ، أن يملك هو وأبنـاؤه جزيرة العرب ، ويشاء الله سبحانه أن يتحقق بعض هذا الوعد في عهد محمد ، ثم يتكامل في ولاية عبد العزيز !

كان أمر عبد العزيز ، منذ تولى الحكم ، في ازدياد ، حتى امتــدّ ملكه من الخليج العربي إلى البحر الأحمر ، واجتمعت له إلى سعة الرقعة : كثرة العـــدد وقوة الجيوش وتوافر الأموال والأرزاق ، مع شيوع الأمن وعظم الهيبة !

من هنا.. قال بعض المؤرخين : **ان عبد العزيز هو مؤسس الدولة السعودية الاولى ، لأن الفتوحات العظيمة تمّت في زمانه، فأصبحت بلاده « دولة » بعد أن كانت « مشيخة »** أو إمارة صغيرة مغمورة !

ولكننا لا نشارك القائلين بهذا الرأي رأيهم ، وإنمـــا نقول بما قالته الكثرة من المؤلفين والمؤرخين وهو : أن **محمـــد بن سعود مضى بشرف تأسيس الدولة السعودية الاولى** ، وأن ابنه عبد العزيز إنما أكمل عمله وحقق أمله ، ولكل منهما نصيبه من الفخر وبقاء الذكر .

فإذا قيل لنا : إن معنى الدولة مرتبط بشيء من معـــاني السعة في الأرض والكثرة في السكان — ولم يكن ذلك متوافراً للدرعية في زمان محمـــد بن سعود — أجبنا أن كل دولة تكون في أول أمرها صغيرة ثم تكبر ، وما كان التأسيس على كل حال ليعني استكمال البناء .. وإنما هو وضع الأساس ، ومحمـد بن سعود هو واضع الأساس .

فإن كان مُلك محمد بن سعود صغيراً في حجمه ، فقد كان كبيراً بزخمه ، موعوداً بالنصر !

وبعد .. **إن من حق عبد العزيز علينا أن ندعوه : المؤسس الثـاني للدولة السعودية الاولى** ، لأنه شارك في بنـائها وتركيز دعائمها ، فقـــد آزر أباه في كهولته ، وناب عنه في شيخوخته ، ولما توفي أبوه واستقل بالسلطان ، حمل الراية بقوة وإيمان ، وأخضع البلدان بالحرب والسياسة ، وأقام على الشرع قواعد الحكم

والرئاسة ، وأضاف إلى تركة أبيه المباركة شيئاً كثيراً ، فخرجت البــلاد في عهده من نأنأة الدولة الصغيرة إلى بحبوحة الدولة الكبيرة .

• • •

إن العمل الذي قام به محمد بن سعود وابنه عبد العزيز ، بعد مبايعتهما للشيخ ، كان عملاً جليلاً من الناحيتين الدينية والوطنية ، لأنه أحلَّ الدينَ محلَّ الخرافة والجهل ، والوطنَ محل الإقليمية والقبلية . ولكن أبعاد هذا العمل العظيم تبدو لنا بوضوح وقوة متى وضعناه في « إطاره » العالمي ، فقد حقق محمد وعبدالعزيز ، من وراء توحيد الشطر الأكبر من جزيرة العرب تحت لواء واحــد ، حدثاً عظيماً لفت إليه أنظار العالم : **وهو ظهور دولة عربية حرة قوية ، بعد فترة طويلة من غياب العرب عن مسرح السياسة الدولية .**

ذلك أن سلاطين آل عثمان كانوا استولوا على بلاد العرب وانتزعوا الخلافة منهم ، ودُعي لهم وخُطب بأسمائهم على المنابر العربية ، فبدا للعــالم أن السلاطين العثمانيين هم سادة البلاد العربية وأولياء أمرها ، وأن شخصية العرب قد ضاعت وصفحتهم انطوت ، وأنهم مرحلة تاريخية مضت ولن تعود !..

فلما أشرقت شمس الدولة العربية ، الصاعدة من أفق نجد ، متحدية سلاطين العثمانيين ومنكرة عليهم سلوكهم وحتى إمامتهم للمسلمين ، اعتــبر ذلك الحدث العظيم إيذاناً بنهضة عربية تصل مــا انقطع من التاريخ العربي ، بل اعتبر **فاتحة عصر جديد** ، لا في تاريخ نجد وحدها ، ولا في تاريخ الجزيرة العربية وحدها ، وإنما اعتبر ، لخطورة آثاره القريبة والبعيدة ، **بدء عهد جديد في تاريخ العرب والاسلام .**

— ٢ —

عبد العزيز ... الانسان

لم يكن عبد العزيز عظيماً بشجاعته وفتوحاته فحسب ، وإنما كان عظيماً ، قبل كل شيء، بهذا الجانب من شخصيته : **خلقه الكريم** ، يبدو لنا من خلال محبته للعلماء ورعايته لطلبة العلم ، وعطفه على الفقراء، ومناصرته للضعفاء، وكراهيته للظالمين ، ووقوفه عند الحدود ، وتورعه عن المحارم ، وتواضعه ، وبساطته ، وزهده !

ذكر ابن غنام في مواضع متفرقة من تاريخه أنه كان « **من حسن سيرة عبد العزيز وفطنته** ، وبديع هديه وسنته ، **أنه كان يدعو الى الله تعالى بالتي هي أحسن** » ، وأن جماعة من رجاله أسروا محمد بن ديماس وأتوا به اليه في الدرعية ليقتله ، فلم يفعل ، مع ما صدر من قبيح فعله ، **فقد كان وقّافاً عند الحدود يدرؤها بالشبه!** وغزا ركب لأهل بريدة (ظهرة مع «النفيشي» وأخذوا أموالهم ، فلما تبين لعبد العزيز أن فيها أموالاً لأهل المدينة ، أمر بأدائها الى أصحابها تامة من غير نقص ، لأنها كانت أوقافاً وأحباساً ، فلم يرد أخذها) !.

وما أعظم موقف عبدالعزيز الحاكم ــ الانسان، حين حملوا اليه عشرين كيساً كبيراً من الدنانير وطرحوها أمامه على الأرض ، فنخسها بسيفه ، وقال هذه الكلمة الرائعة :

« اللهم سلطني عليها ،
ولا تسلطها عليّ ! »

ثم أمر بتفريقها في حوائج الناس !..

كان عبد العزيز ، مع إهماله حظ نفسه من الدنيا ، كبير الحرص على سعادة شعبه ، يتعهدهم بالسهر الدائم ، ويكافح عنهم ، ما استطاع ، الجوع والمرض والخوف والجهل والفساد .

قال ابن بشر ، يصف عبد العزيز :

(كان لا يكترث في لباسه ولا سلاحه ، بحيث أن بنيه وبني بنيه محلاة سيوفهم بالذهب والفضة ، ولم يكن في سيفه شيء من ذلك إلا قليل .

وكان كثير الرأفة والرحمة بالرعية ، وخصوصاً أهل البلدان ، بإعطائهم الأموال وبثّ الصدقة لفقرائهم والدعاء لهم والتفحص عن أحوالهم .

وكان كثير العطاء والصدقات للرعية من الوفود والأمراء والقضاة وأهل العلم وطلبته ومعلمة القرآن والمؤذنين وأئمة المساجد .

وكان الصبيان من أهل الدرعية ، إذا خرجوا من عند المعلم ، يصعدون اليه بألواحهم ، ويعرضون عليه خطوطهم ، فمن تحاسن خطه منهم أعطاه عطاء جزيلاً ، وأعطى الباقين دونه .

وكان اذا مات الرجل من جميع نواحي نجد يأتي أولاده الى عبد العزيز يستخلفونه ، فيعطيهم عطاء جزيلاً وربما كتب لهم في الديوان.. وكان يسأل عن الضعفاء والأيتام في الدرعية وغيرها ويأمر بإعطائهم .

وكان كثيراً ما يكتب الى النواحي بالحض على تعليم القراءة وتعلم العلم وتعليمه ، ويجعل لهم راتباً في الديوان ، ومن كان منهم ضعيفاً يأمره أن يأتي الى الدرعية ويقوم بجميع أنوابه) .

وذكر ابن غنام أن عبد العزيز أعطى، غير مرة ، نصيبه ونصيب رجاله من الغنائم الى المهاجرين واللاجئين الى الدرعية ، وأنه كان يأمر كل بلد ، حين يشتد الغلاء ، أن يحصوا من عندهم (من المساكين والضعاف ويقيتوهم من الطعام ما به قوام و كفاف) ، وكان هو ، من ناحيته ، يقوم في ذلك أعظم قيـام ، فيفيض (من الإنعام على اولئك الأنام ، خصوصاً أهل الحاجة والأرامل والأيتام) حتى يكشف الله الغمة !

لم نأت بهذه الأمثلة والشواهد لمجرد التدليل على أن عبد العزيز كان **أميراً — انسانا** ، وإنما أردنا أن نخلص من وراء ذلك أيضاً الى القول بأن الحاكم المسلم ، المتأدب بأدب النبوة والخلافة الراشدة ، يرتفع بمستوى الحكم في بلاده الى أسمى درجات العدالة الإجتماعية ، تلك التي يطالب بها بعض الناس في هـــذه الأيام ، متوهمين أن الدول **الحديثة** « **التقدمية** » هي وحدها دول « عدالة اجتماعية » ، لأنها تكافح العوز والجهل والمرض والخوف !

والحق إن تاريخنا يمشي أمامنا ، لا خلفنا ، فأجدادنا سبقونا الى تحقيق المثل العليا التي ما تزال تحلم بها اليوم شعوب كثيرة وتتقلب اليها بأشواقها !

— ٣ —

وثيقة تاريخية نادرة

« رينو » : أول غربي زار الدرعية ووصفها وتحدث عن أميرها عبد العزيز بن محمد

لم يُعن الغربيون بتاريخ نجـــد إلا بعد حملة محمد علي التي انتهت بتهديم « الدرعية » ، ولفتت أنظار العالم مرة أُخرى إلى تلك البــلدة المجاهدة الشهيدة التي طلعت منها شمس النهضة العربية الحديثة .

كانت الكتب والمقالات التي تنشر في الغرب عن نجد وبلاد العرب قليــلة ومشحونة بالكذب والافتراء ، وإذا خلت أحياناً من سوء النية لم تخل قط من الجهل والخطأ..حتى قام مؤرخون ورحالة منصفون ، أمثال بركهارت ومانجان وسيتزن ، بنشر بحوث عن نجد وجزيرة العرب تتسم « بالموضوعية » ، ويجتهد أصحابها في استقصاء الحقائق من مظانها ، غير متأثرين بما يقوله الترك أو يشيعه أعداء العرب؛ وبفضل هؤلاء الرحالة المنصفين عرف المثقفون في أوروبا من أمور الجزيرة العربية وتاريخها وجغرافيتها وسياستها واقتصادها أكثر مما يعرف المثقفون العرب الذين كانوا يعيشون في ظل الحكم التركي !

يقال ، في الأمثال : « أهل مكة أدرى بشعابها » ! ولسنا ننكر أن ما ما كتبه ابن غنام وابن بشر ، النجديان ، عن تاريخ نجد ، شيء عظيم يعجز عنه المؤرخون الغربيون ، حين يحاولون الكتابة عن نجد .. ولكن المؤرخ الغربي العالم المنصف قد يفطن أحياناً لأمور غابت عن فكر مؤرخي نجد .. وقد يكشف لنا عن آفاق مجهولة ..

نضرب مثلا لذلك ما نسميه : « الصلات الدولية » ، فإن مؤرخي نجد لا يشيرون قط إلى أي اتصال بين حكام الدرعية وبين رجال الغرب .. والفضل للرحالة الغربيين في الكشف عن هذه الصلات !

لقد ذكر لنا المستشرقون أن سعود الكبير استقبل في الدرعية سياسياً أوروبياً أوفده إليه نابوليون بونابرت، إمبراطور فرنسا، للتعاون معه على حرب الانكليز في الهند !

وكان يظن أن سعود الكبير كان أول حاكم سعودي يستقبل أوربياً، ولكن المستشرق « سيتزن » Seetzen نشر عام ١٨٠٥ م . بحثاً في مجلة Montaliche correspondentz — المراسلة الشهرية — التي كان يصدرها البارون فون زاك Von Sack باللغة الالمانية ، أثبت فيه أن الأمير عبد العزيز بن محمد سبق ابنه سعود إلى الاجتماع بسياسي غربي في الدرعية ،وهذا السياسي الغربي هو الضابط البحري البريطاني : « رينو » .

ويقول « رينتس » في دائرة المعارف الإسلامية : إن رينو هولاندي الأصل يتكلم اللغة العربية ، وقد أرسله « صموئيل مانيستي » مندوب الشركة البريطانية للهند الشرقية في البصرة ، إلى الدرعية ، لمفاوضة عبد العزيز ...

لا نعرف تفاصيل رحلة رينو إلى الدرعية ، ولعل رينو أودع جانباً منها في تقاريره إلى حكومة الهند أو وزارة المستعمرات.. ولكننا ما كنا لنعرف شيئاً

عن هـــذه الرحلة لولا « الصدفة » التي جمعت بين رينو وبين سيتزن في مدينة حلب ، فقـد قصّ رينو على سيتزن شيئاً من أخبار « مغامرته » .. فنشرها سيتزن في مجلة « المراسلة الشهرية » .

كان ذلك منذ مائة وسبعين سنة تقريباً .. ثم شاء القدر أن تقع أعداد من تلك المجلة العتيقة في يد أحد المستشرقين ، فيشير إلى اجتماع رينو بعبد العزيز إشارة خاطفة في دائرة المعارف الإسلامية ، ولما وقفنا نحن على ذلك بحثنا ، في بعض أسفارنا إلى البلدان الغربية ، عن أعداد المجلة المذكورة فوجدناها بعد عناء وصورنا مقال سيتزن ، ولعل كتابنا أول كتاب عربي تظهر فيـــه صورة « زنكوغرافية » كاملة لحديث رينو ، كما ورد في مقال سيتزن .

وفي اعتقادنا أن قيمة هذا الحديث التاريخية كبيرة جداً ، لأنه حمل إلى الغربيين الذين كانوا يجهلون كل شيء عن نجد ، نبأ عظيماً : هو أن في نجد أميراً متواضعاً ، يعيش عيشة بساطة وتقشف ، ولكنه يملك جيشاً من مائتي ألف مقاتل ، ويسيطر على بلاد واسعة تمتد من الخليج إلى البحر الأحمر ومن عمان إلى الشام، ولو قيس به كثير من ملوك الغرب لكان مثلهم كمثل الأقزام أمام العملاق!

حديث رينو عن الدرعية وأميرها :

وهذه ترجمة حديث رينو عن الدرعية وأميرها ، كما سجله سيتزن في رسالته الى المجلة ، سنة ١٨٠٥ م .

قال رينو :

(الدرعية مدينة صغيرة ، ولكنها جميلة رائعة ، مبنية على الطراز العربي ، والسكنى فيها صحية جداً .

وتحيط بالمدينة تلال خضر زمردية من كثرة الزرع .

Saud, der Vater des jetzigen. *Saud al Whahabee* war der erste, der die neue Religion stiftete, und *Abdil Aziz* schmückte sie nur noch mehr aus. *Abdil Aziz* war ungefähr 60 Jahr alt; ein schlanker hagerer Mann, und für einen wilden Araber sehr gebildet. Seine Familie belief sich nach den mir darüber mitgetheilten Nachrichten auf 80 Seelen. Er hatte keinen Hofstaat, und doch gingen alle Geschäfte durch seine Hände. Ein einziger Schreiber, Namens *Mula*, *) war sein Gehülfe. Seine Truppen bestanden damals aus 100,000 Mann, allein da jetzt die *Hofiry*, *Aneve*, *Ibn Kalid*, und noch andere Arabische Stämme unter seiner Botmäſsigkeit sind, so glaube ich mich nicht zu irren, wenn ich die Zahl seiner Truppen oder vielmehr seiner Unterthanen, die auf jeden Befehl die Waffen ergreifen müssen, auf 200,000 bestimme.

In *Drahîa* gibt es weder Juden noch irgend eine andere Nation als *Whahabee*. Ich hielt mich ungefähr eine Woche zu *Drahîa* auf, und kehrte dann nach einem sehr kurzen Aufenthalt zu *Katif*, nach *Graïn* zurück.

---

*) *Mula* oder *Molla* ist der gewöhnliche Arabische Name aller studirenden Personen.

XXIII.

بقية حديث رينو المنشور في الصفحة المقابلة

men, da eine Menge Einwohner, zu der Zeit, als ich mich daselbst befand, die Stadt aus Furcht vor den *Whahabee* verlassen hatten, die es auch später-hin eroberten. Früher stand *Ascha* unter der Botmäſsigkeit der *Ibn-Kalid.* Die Stadt selbst ist nicht beträchtlicher denn *Katif*, und ihre ganzen Manufactur-Arbeiten bestehen ebenfalls nur in einer gröbern Art von Camloten. Oft leidet *Ascha* an trinkbarem Waſser Mangel, da kein Fluſs in der Nähe ist, und die Einwohner dieses Bedürfniſs blos aus einigen Brünnen, die ein sehr sumpfiges Waſser geben, erholen müſsen.

Von *Ascha* bis *Drahia* sind noch acht Tagereisen. Der ganze Weg ist eine sandige Einöde, die nur zuweilen mit Gebüsch bewachsen ist. *Drahia* ist eine kleine aber im Arabischen Style schön gebaute Stadt, deren Lage den Aufenthalt daselbst sehr gesund macht. Um die Stadt herum liegen einige gut angebaute Hügel, und die ganze Gegend wird durch einen kleinen Fluſs bewäſsert. Man findet hier einige Früchte, als Weintrauben, Feigen u. s. w., die aber, wie man mir sagte, von den Einwohnern sämmtlich schon unreif verzehrt werden. Die in diesen Gegenden hausenden *Whahabee* sind sehr wilde, aber auch auf der andern Seite sehr gastfreundliche Menschen. Man findet hier eine ungeheuere Menge Schafe, die gröſstentheils schwarz sind, eine sehr lange Wolle und lange Ohren haben, und ein vortreffliches Fleisch liefern. Die dasigen Pferde sind ziemlich wohlfeil und die schönsten in Arabien.

In der Zeit als ich mich zu *Drahia* aufhielt, war der Name des dasigen Scheiks *Abdil Aziz Ibn Sand*

صورة زنكوغرافية لحديث (رينو) منقولة عن
مجلة فون زاك الصادرة عام ١٨٠٥ م

وتروى المنطقة كلها من عين صغيرة .

ويجـــد الانسان في الدرعية أنواعاً مختلفة من الفاكهة ، أكثرها الأعناب والتمر ، وربما أكلوا شيئاً منها قبل نضجها .

والوهابيون الذين يقطنون هــذا الاقليم قوم كرماء مضيافون ، وإن كان في طباعهم شيء من الجفاء .

والغنم هنا كثير ، وهو أسود الشعر ، طويله ، وآذانه كبيرة ، ولحمه أجود أصناف اللحم .

والخيل كذلك كثيرة ، وأسعارها ليست غالية ، وعندهم من الجياد الأصيلة العربية أحسن سلالاتها .

لا يوجد في الدرعية يهود ، بل.. لا يوجد فيها إلا مسلمون وهابيون [١] .

قضيت في الدرعة اسبوعاً ..

وكان أميرها يومئذ : الشيخ عبــد العزيز بن محمد بن سعود ، وكان في نحو الستين من العمر ، رشيق القوام ، نحيلاً ، وعلى حظ كبير من الثقافة والعلم .

وقيل لي إن عدد أفراد أسرته ثمانون .

لم يكن عنده « قصر » بمعنى القصور الملكية المترفة في الغرب ، ولا ديوان، وكان يقوم بأعماله بنفسه ، يساعده كاتب واحد .

---

(١) من الغريب أن هوغارت D. G. Hogarth يقول في كتابه المشهور (The penetration of Arabia) : أن سيتزن نقل عام ١٨٠٥ رسالة من رينو الذي زار الدرعية يقول فيها إنه وجد هناك « بعض اليهود » .

وهذا خطأ فاحش تورط فيه هوغارث ، فرينو نفى وجود يهود في الدرعيه .. وأكثر من ذلك .. قال انه لا يوجد فيها إلا وهابيون !.

أما عدد جنوده فمائة الف ، ولكنه يستطيع ، متى أراد ، أن يسوق الى ساحة القتال ضعفي هذا العدد) .

مؤرخون رووا عن العارفين :

لم يقدّر لغربي آخر – غير رينو – أن يجتمع بعبد العزيز ، ولذلك لا نملك شهادات أو « مشاهدات » غربية اخرى عن مؤسس الدولة السعودية الثاني .. وربما عوّضنا عن هذا النقص أن بعض المؤرخين الغربيين اتصلوا برجال من نجد عاشوا مع عبدالعزيز وعرفوا أخلاقه وأسلوبه في الحكم ، وسألوهم عنه فرووا لهم طائفة من أخباره . وقد اقتبسنا في كتابنا ما استجدناه من ذلك ، وحسبنا في هذه المقدمة ، أن نذكر شيئاً مما كتبه بركارت وكورانسيز عن عبد العزيز ، لنعطي القارىء فكرة عن اسلوب الغربيين في الكتابة عن هذا الزعيم ، فإنهم لا يكتفون بسرد وقائعه وخلع الألقاب عليه ، وإنما يجتهدون في تبيان التغييرات التي أحدثها في حياة قومه .

قال بركارت :

كانت نجد موزعة بين عدد كبير من الأقاليم والمدن والقرى ، وكانت هذه المناطق مستقلة ، متعادية ، يحارب بعضها بعضاً .

وكانت شريعة الأقوى هي الشريعة المتبعة في الأرياف وضمن أسوار المدن ، حيث يضطر الرجل الضعيف إلى التخلي عن ملكه وحقه للرجل القوي المتغلب.

وكانت الفوضى مسيطرة على مضارب البدو ، وكانت معاركهم التي لا تنتهي وغزواتهم التي لا يقصد منها إلا السلب والنهب ، تغرق بلاد نجد في طوفان من الدم .

هذا هو الوضع الذي واجهه عبد العزيز .

وقد استطاع عبد العزيز، بعد كفاح طويل وشاق ، أن ينشر الدعوة في نجد وأن يتسلم السلطة العليا ويمارسها على نحو ما كان يمارسها خلفاء محمد ﷺ، وبذلك تحول من شيخ عشيرة إلى رئيس دولة !

لم يحاول عبد العزيز إخضاع مواطنيه في كل أمورهم إلى سلطته وسلبهم كل حرية ، كما يفعل الحكام المستبدون، فقد ترك العرب ينعمون بحريتهم في عشائرهم وبلدانهم ، ولكنه حملهم على العيش بسلام ، وعلى احترام حق الملك ، والخضوع لأوامر الشرع ونواهيه ، وبهذه الوسيلة تيسر له الاستيلاء على الشطر الأكبر من جزيرة العرب ، لأن أسلوب حكمه كان أسلوباً حراً سمحاً ، مبنياً على أساس **« جمهورية بدوية » كان ، هو ، رئيساً لرؤسائها ، أي شيخاً لجميع شيوخ العشائر فيها ، يدير سياستهم العليا ، في الحرب والسلم ،** ويلزمهم باتباع أحكام الشرع وينزل العقوبة بمن يُخل بها ، ولكنه يدع للشيوخ حرية التصرف في كل ما عدا ذلك من أمورهم !

كان العربي لا يعرف قاعدة لسلوكه إلا شهوته ورغبته، أما الآن... فينبغي له أن يخضع لأحكام الشرع ويدفع الزكاة إلى الإمام ويشترك في الجهاد (أو الغزو) ضد الملاحدة والمشركين ، كلما دعي إلى ذلك .

ولم يعد العربي قادراً على الإحتكام إلى السيف لحل خلافاته مع الآخرين ، فقد أُقيم قضاة لفصل الخصومات ، ويجب عليه أن يعرض أمره عليهم ويُسلّم بقضائهم) .

وقال كورانسيز :

(كان عبد العزيز يعيش عيشة تقشف ، مثل أكثر رعاياه ، ولعل ذلك من أعظم أسباب توفيقه . كان نزيهاً ، **فلم يتخذ الدعوة وسيلة لجمع المال ، ولكنه جمع المال ليخدم الدعوة !**

كان شجاعاً ، ولكن في غير تهور .

كان رحيماً ، ولكنه كان يعاقب على الاخلال بالأمن والفوضى عقوبة شديدة) .

— ٤ —

المفاضلة بين عبد العزيز وسعود

لقبوا سعود بن عبد العزيز بسعود الكبير ، وفاضت له في البـــلاد العربية والأجنبية شهرة واسعة لم يظفر بمثلهـا أبوه ، ونحن لا ننكر على سعود بلاغته وعلمه وشجاعته وفضائله الكثيرة ، ولكننا نفضل عليه أباه عبد العزيز ، فقد كان عبد العزيز أحكم منه وأحلم ، وأبعـــد عن شهوات الملك ، ولم تكن فيه «حدة المزاج» التي ظهرت آثارها في بعض أعمال سعود، وربما كانت من أسباب ضياع الدولة السعودية الاولى ، بعد أن بلغت الذروة في القوة والسعة !

كان عبد العزيز شجاعاً حازماً ، ولكنه لم يكن متهوراً ولا مغامراً ، وكان يميل الى السلم والموادعة ما وجد اليهما سبيلاً ، ولذلك قال مندوبا الإمام عبد الله ابن سعود لمحمد علي ، حين اجتمعا به في مصر : إن عبد الله لا يشبه أباه سعود (لأن في سعود شيئاً من العناد وحدّة المزاج) ولكنه يشبه جده عبد العزيز في لين عريكته ، كما يشبهه في مسالمته للدولة ، فقـد كان عبد العزيز — كما قالا — (مسالماً للدولة ، حتى أن يوسف باشا حين كان بالمدينة ، كان بينه وبينه غـاية الصداقة ، ولم يقع بينهما منازعة ولا مخالفة في شيء ، ولم يحصل التفاقم والخلاف إلا في أيام سعود) .

هذا من ناحية الحدّة والاستفزاز ...

وأما من ناحية الخلافة والملك ، فقد أوضح الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن

الشيخ محمـــد بن عبد الوهاب الفرق بين عبد العزيز وبين ابنه سعود ، في رسالة بعث بها الى الإمام عبد الله بن فيصل ، قال فيها :

(تفَهَّمْ أن أول مـا قام به **جدك محمد ، وجدك عبد الله بن محمد ، وعمك عبد العزيز : أنها خلافة نبوة ،** يطلبون الحق ويعملون به ويقومون ويغضبون له ويرضون ويجاهدون ، وكفاهم الله أعداءهم على قوتهم ، إذا مشى العدو كسره الله قبل أن يصل ، لأنها خلافة نبوّة !

وما قاموا على الناس إلا بالقرآن والعمل به ، كما قال تعـالى : ﴿ وعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنَنّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ﴾ .

وأخذ عمك « عبد العزيز بن محمد » في الاسلام حتى جاوز الثمانين من العمر ، والاسلام في عز وظهور ، وأهله يزيدون ، وحصل لهم مضمون قوله : ﴿ ليستخلفنهم في الأرض ﴾ ، وصار أهل الأمصار يخافونهم .

وأراد الله **إمارة سعود بعد أبيه** ، يرحم الله الجميع ، **وأراد الله أن يغيّر طريقة والده الذي قبله ، وبغاها ملكاً** ، وبدأ ينقص أمر الدين والدنيا تطغى) .

● ● ●

وبعد .. إن عبد العزيز ، الذي قال فيه الجنرال فيغان إنه (**كان يجمع ، في أحسن مزاج ، الشجاعة والحكمة ، وهما صفتان عظيمتان لا بد لكل فاتح كبير من التحلي بهما**) كان حقاً فاتحاً عظيماً ، ولكنه **كان كذلك قائداً حليماً وملكاً رحيماً وإنساناً كريماً ، وسيرته من أنبـــل السير وأجدرها بأن يتدارسها الناس .**

ولاية عبد العزيز

كان عبد العزيز من أصحاب السابقة في نصرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ولعله كان أصغر أنصاره سناً ، فقد كان الشيخ مقيماً في العيينة ، والدعوة في نأنأتها ، حين أرسل اليه عبد العزيز – ولعله كان يومئذ فتى دون العشرين – يطلب منه تفسيراً لسورة الفاتحة ... فكتب الشيخ، لأجله، ذلك التفسير الرائع الذي أثبته ابن غنام في تاريخه !

ولما هاجر الشيخ الى الدرعية ، لازمه عبد العزيز ، وواظب على حضور دروسه ، وكان معتزاً بزعامته ، واعياً لدعوته ، حريصاً على مرضاته ، سريعاً في تحقيق رغباته ، فأحبه الشيخ حباً كبيراً ، وكان يثني عليه في مجالسه العامة والخاصة ثناءً كثيراً .

وفي عام ١١٧٩ هـ . توفي محمد بن سعود ، أمير الدرعية ومؤسس الدولة السعودية الاولى، وكان ابنه البكر عبد العزيز في السادسة والأربعين من العمر، ولم يكن غريباً عن السياسة ، لأن أباه كان يشركه في إدارة البلاد ، وربما أطلق يده فيها ، تخفيفاً عن نفسه لكبر سنه، وتمهيداً لخلافته ؛ وقد أصاب عبدالعزيز من وراء ذلك شهرة واسعة ، لما كان الناس يرون من شجاعته وسياسته وحلمه وكرمه ، وصلاحه وتقواه ، وصدقه في الجهاد لإعلاء كلمة لا إله إلا الله .

وبالجملة، لم يكن في آل مقرن، عند وفاة محمد بن سعود، من يسامي عبدالعزيز في قوة الشخصية وعلو الصيت والحظوة عند الشيخ ، فكان اختياره للإمارة ، بعد أبيه ، أمراً مسلماً به ، لا ينازعه فيه أحد !

هل بويع لعبد العزيز بولاية العهد ؟

أسلوب ولاية العهد في الإسلام معروف ، وهو أن يختار الإمام القائم ولياً لعهده ، ويظهره ، ويأخذ له البيعة من الناس خلفاً له بعد وفاته .

فهل اختار محمد بن سعود ولده عبد العزيز ولياً لعهده وطلب له البيعة من الجمهور ؟

أكبر الظن أن هذه البيعة لم تقع في حياة محمد بن سعود ، ونحن لا نجد في ابن غنام أية إشارة اليها ، وأما ابن بشر فيذكر في أخبار سنة ١١٧٩ هـ . ما يأتي :

(.. وفيها توفي محمد بن سعود .. وكان ولي العهد بعده ابنه عبد العزيز فكان إمام المسلمين ..) .

ويقول « بلغرف Palgrave » : إن محمد بن سعود أوصى ، قبيل موته ، أن يكون عبد العزيز خلفاً له، فتسميته ولياً للعهد جاءت من هناك، وإن لم تؤخذ له البيعة في حياة أبيه !

وهذه الرواية التي نقلها بلغرف عن النجديين ، خلال زيارته للدرعية والرياض ، قد تكون تفسيراً حسناً مرضياً لقول ابن بشر .

ولعل من الخير أن نورد في هذا المعرض رأياً للمستشرق بركارت فقد نفى ، بأسلوب الحكيم ، ولاية العهد عن عبد العزيز ، قال : لم يفكر الشيخ ، أول الأمر ، في تسليم زمام الزعامة والحكم إلى بيت مخصوص ، ولكنه رغب في ذلك بعد اتساع رقعة البلاد وتكاثر المنضوين تحت راية الدعوة ، فأمر الناس ، عام ١١٨٢ هـ . أن يبايعوا سعود بن عبد العزيز بولاية العهد ، نظراً منه إلى صالح المسلمين وخوفاً عليهم من التفرقة .

هل كان عبد العزيز اماماً ؟

شيء آخر في كلام ابن بشر يبدو قابلاً للجدل، هو قوله أن عبد العزيز أصبح عند وفاة أبيه إماماً للمسلمين .

ذلك أن خصائص الإمامة – ونعني بها الإمامة الخاصة لا الإمامة الكبرى أو الخلافة – كانت موزعة بين عبد العزيز والشيخ محمد بن عبد الوهاب بل كانت زعامة الشيخ أجلى وأظهر ، حتى قال الرحالة نيبوهر في كتابه « صفة جزيرة العرب » : إن رئيس البلاد النجدية هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهو الذي يجبي الزكاة .

ولا نبعد .. فابن بشر نفسه يقول إن الأمر كان بيد الشيخ حتى فتح الرياض (فلما فتح الله الرياض واتسعت ناحية الإسلام وأمنت السبل وانقاد كل صعب من باد وحاضر ، جعل الشيخ الأمر بيد عبد العزيز ، وفوّض أمر المسلمين وبيت المال إليه ، وانسلخ منها ، ولزم العبادة وتعليم العلم ، ولكن ما يقطع عبد العزيز أمراً دونه ولا ينفذه إلا بإذنه) .

قد يقال إن الأصل في رؤساء هذه الدعوة السلفية أن يكونوا أئمة لا ملوكاً ، وإن ألقاب الأمارة والملك والسلطنة دخيلة عليهم ، وكل هذا حق ، ولكنه إنما تقرر أو توكد بعد وفاة الشيخ .

ويبدو أن فريقاً من أعداء الدعوة لم يرضهم أن يتسمى رؤساؤها باسم الامامة ، لأنها في قريش ، ويجب أن يسلم بها المسلمون في كل أقطارهم ، وقد ردّ عليهم الشيخ رداً مفحماً ، وكذلك فعل الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين بعده ، فبينّا أن الامامة جائزة في قطر مخصوص ، وأن السلاطين الترك هم الذين أزالوا الخلافة عن قريش وانتحلوها لأنفسهم ، والعرب أولى بها من الترك .

ومهما يكن الأمر فإن آل سعود لم يقولوا إنهم يتولون الامامة على كل المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، فتسميتهم بالامامة – كما يقول عبد الله أبا بطين – هو كتسمي « كل من صار والياً في صنماء .. إماماً » .

ويذهب العالم المذكور إلى القول بأن الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ما ادعى إمامة الأمة ، وإنما هو عالم دعا إلى الهدى وقاتل عليه ولم يلقب في حياته بالامام ولا عبد العزيز .. ما كان أحد في حياته منهما يدعى إماماً ، وإنما حدث تسمية

من تولى « إماماً » ، بعد موتها) [١] .

ويبدو لنا أن كلام الشيخ عبد الله يحتمل « المناقشة » .. فابن غنام ألف كتابه قبل وفاة عبد العزيز ، ومع ذلك لقبه بالامام ، سواء عند مبايعته عام ١١٧٩ هـ . أم خلال حياته وولايته ، فقال ، مثلاً ، في أخبار سنة ١٢٠٤ :

(وفي اثناء تلك الليالي والأيام ، أمر عبد العزيز الامام ، أهل الايمان والاسلام أن يجردوا مواضي العزيمة) الخ ..

فهل كان يعني بكلمة الامامة مجرد الزعامة [٢] ؟

الحق .. إن قصة اللقب تتضاءل وتزول أمام الأعمال العظيمة التي أنجزها عبد العزيز .. فيها ، لا باللقب ، كتب له بقاء الذكر وجلس في مكان الصدارة بين الرجال الذين صنعوا التاريخ العربي ، بل النهضة العربية ، بعد رقاد طويل !

---

(١) أنظر كتاب « الدرر السنية ، في الأجوبة النجدية » جمع الشيخ عبد الرحمن بن قاسم ، الجزء السابع ، صفحة ٢٤١ .

(٢) وهذا نص كلام الشيخ عبد الله أبا بطين، كما ورد في مجموعة (الدرر السنية في الأجوبة النجدية) :

(وسئل الشيخ عبد الله أبا بطين : إذا قال بعض الجهال إن من شروط الإمام أن يكون قرشياً – ولم يقل عارضياً – يشير الى أنه قد ادعاها من ليس من أهلها، يعني محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى ، ومن قام معه وبعده ، بما دعا إليه ..

فأجاب :

إذا قال بعض الجهال ذلك ، فقل له : ولم يقل .. تركياً ..

فإذا زال هـــذا الأمر عن قريش ، فلو رجع إلى الاختيار لـكان العرب أولى به من الترك ، لأنهم أفضل من الترك ..

وهذا الذي يعظمه الناس تركي ، لا قرشي ، وهم أخذوها بغياً على قريش ..

ومحمد بن عبد الوهاب ، رحمه الله ما ادعى إمامة الأمة ، وإنما هو عالم دعا إلى الهدى وقاتل عليه ، ولم يلقب في حياته بالإمام .

ولا عبد العزيز بن محمد بن سعود ، ما كان أحد منهم في حياته يسمى إماماً ..

وإنما حدث تسمية من تولى إماماً ، بعد موتها ..

وأيضاً فالألقاب أمرها سهل ، وكذا .. كل من صار والياً في صنعاء يسمى إماماً ، وصاحب مسقط يلقب كذلك .

حروب عبد العزيز

تمهيد

كانت حياة عبد العزيز سلسلة موصولة من الحروب والغزوات، قادها بنفسه شاباً وكهلاً ، وعقد لواءها لابنه سعود ، لما كبر ووهن عظمه .

حارب عبد العزيز شيخ الرياض ابن دواس وشيخ الخرج ابن زامل ، وغيرهما من شيوخ البلدان النجدية ، ثم حارب رئيس نجران ، ووالي العراق ، وأمير الأحساء ، وشريف مكة ، وكثيراً غير هؤلاء من زعماء الأقاليم والعشائر ، وكان في أكثر حروبه مدافعاً لا مهاجماً ، وقد أنقذه الله غير مرة من أعدائه الأقوياء وكتب له النصر المؤزر عليهم ، ومن أعجب الامور أن أعداءه ، في كثرتهم، كانوا يموتون.. إما بمرض مفاجىء، أو بحربة يرميهم بها أحد الصعاليك المغمورين ، فتقع الفوضى في جيوشهم وتتراجع وتتمزق ، ويكفي الله المؤمنين القتال !..

اسلوب البحث :

يتبع مؤرخا نجد ابن غنام وابن بشر في كتابة التاريخ اسلوب « الحوليات »، أي أنهما يقصّان أخبار المعارك والحوادث والوفيات سنة بعد سنة وحسب ترتيبها الزمني .. وقد اخترنا ، نحن ، طريقة الوحدة الموضوعية ، أي استقصاء أخبار كل « موضوع »، فنتكلم مثلاً عن حروب عبد العزيز مع دهام بن دواس، حتى نأتي على آخرها ، وإن تباعدت السنوات التي وقعت فيها أحداثها .

وقد وضعنا جدولاً بأهم الأحداث التي وقعت خلال ولاية عبد العزيز مرتبة على اسلوب الحوليات ، وأثبتناه في آخر الكتاب ، ليرجع اليه من يشاء .

معـــارك الرياض

رأينا في الجزء الأول من هذا الكتاب أن الحرب بين دهام بن دواس صاحب الرياض وبين الدرعية ، انتهت إلى سلم وصفاء عام ١١٧٧ هـ . ، وكان ثمن هـذا الصلح مبلغاً كبيراً من المال حمله ابن دواس الى محمد بن سعود .

وفي عام ١١٧٨ هـ . التمس ابن دواس تجديد الصلح ، فاستجاب له محمـد بن سعود ، ولم يطلب منه شيئاً ، فتمّ تثبيت الصلح « مجاناً » — كما يقول ابن غنام — وكان ذلك إشارة إلى لون من الثقة بشرف ابن دواس وعهده !

وفي ربيع الأول من عام ١١٧٩ هـ . مرض محمـد بن سعود مرض الموت ، فتحركت غريزة الشر والغدر في نفس ابن دواس ، فقام مع رئيس الدلم ، زيد بن زامل ، بالعدوان على «الصبيخات» [١] في منفوحة ، وأخذوا سوانيها ، ولكن أهل منفوحة نهضوا لقتالهم وسقط عشرة قتلى من الفريقين .

وهكذا نقض ابن دواس عهده ، وجاهر بالعداوة ، وسعّر نيران الحرب .. وسيكون ذلك سبب هلاكه وضياع ملكه الى الأبد [٢] !

---

(١) جاء في هامش ابن بشر - طبعة وزارة المعارف - أن الصبيخات تعرف اليوم بالصبيخة، وهي نخيل منفوحة .

(٢) انظر ابن غنام . أما ابن بشر فيذكر وفاة محمد بن سعود ثم يتكلم عن نقض دهام للصلح ثم غزوه للصبيخات،مما يوهم أن ذلك كان بعد وفاة محمد بن سعود.. والحقيقة أنه حدث فيحياته!

سنة ١١٧٩ هـ .

المعركة الاولى :

كان أول عمل حربي قام به عبد العزيز ، بعد وفاة أبيه وتولّيه الإمارة : الثأر لأهل منفوحة من دهـام وجماعته ، فسار الى الرياض واستولى على بروج « جصان » ، فخرج ابن دواس ومقاتلته من البلدة منهزمين فارّين .. ولكن عبد العزيز لم يطمئن الى هـذا النصر السهل ، فأمر رجاله بالنزول من الأبراج وحذّرهم مكر ابن دواس .

وكان حذر عبد العزيز في موضعه ، فابن دواس لم ينهزم ، وإنما أراد تأخير القتال حتى تصل اليه نجدة من عشائر « سبيع » ، النازلة على مقربة من الرياض — وكان قد تواطأ معها واستدعاها — فجاءت بعدد وعدّة ، وجرى بينها وبين مقاتلة عبد العزيز شيء من قتال، وأدرك عبد العزيز أنه لا يستطيع قهر خصومه وحلفائهم لكثرتهم وحُسن استعدادهم،فآثر الانسحاب والرجوع الى الدرعية[1].

الثأر من سبيع :

في ذلك الوقت كان الأمير عبد الله بن محمد ، أخو عبد العزيز ، والجد الأعلى للملك عبد العزيز ، نازلاً في « حريملا » ، مع جماعة من الفرسان ، فلما بلغه ما فعلته سبيع ، أسرع الى فرقة من سبيع ، تدعى آل شلية ، كانوا يرعون في « العرمة » ، وفاجأهم وهم في خيامهم ، وأخذ كل ما كان معهم من إبل وخيل ومتاع ، وبذلك أدّبهم وانتقم من عشيرتهم شيئاً من انتقام [2] .

وقعة العدوة :

في نفس هذا العام — ١١٧٩ — جرت وقعة عرفت باسم « العدوة » ، وذلك

---

(١) انظر الهامش رقم (٢) في الصفحة السابقة .

(٢) ابن غنام وابن بشر .

أن ستين رجلاً من الموحدين عدوا على الرياض ، ولكن رجلاً خرج من الدرعية وأخبر عنهم أمير الرياض ، فاستعد لهم وقتل منهم ثمانية وأسر خمسة ، وهرب الآخرون الى الدرعية .

غزوة ثالثة :

وفي تلك السنة أيضاً غزا عبد العزيز الرياض مرة ثالثة ، وقتل ستة من رجال ابن دواس ، ثم عاد الى الدرعية .

الدفاع عن منفوحة :

وحاول ابن دواس في هذه السنة غزو منفوحة ، ولكنه لم يكد ينزل في نخيلها حتى أسرع الموحدون الى نجدة أهالي منفوحة ، فلما علم بجيئهم تفادى القتال معهم وانسحب ...

سنة ١١٨٠ هـ .

وقعة البنية :

غزا عبد العزيز الرياض في شوال من سنة ١١٨٠ هـ . ونزل « البنية » وقاتل أهلها ، فقتل منهم أربعة وقتلوا من رجاله واحداً فقط .

وكان عبد العزيز ، قبل ذلك ، قد صادف في طريق عودته من غارة قام بها على ثرمدا غزواً لابن رواس ، فقتل رجالاً منهم [١] .

سنة ١١٨١ هـ .

وقعتا المشيقيق والجوز :

وفي عـام ١١٨١ هـ . غزا عبد العزيز الرياض أيضاً ، ونزل « المشيقيق » ،

---

(١) أنظر ابن غنام وابن بشر .

وقتل من أهلها ستة رجال ، وقُتِلَ من الموحدين اثنان [1] .

ثم عاد مرة أخرى إلى غزو الرياض ، وجرت بينه وبين أهلها معركة دعيت باسم المكان الذي جرت فيه : « الجوز » ولم يكن فيها التحام ، وإنما جرى إطلاق النار من بعيد .. وكان قتلى الموحدين فيها عشرة .. وقتلى أهل الرياض خمسة [2] .

وينفرد ابن بشر بذكر وقعة ثالثة حدثت في هذا العام ، يسميها وقعة « باب الثميري » ، قتل فيها من الفريقين بضعة رجال ..

قصر الغذوانة :

يقول ابن غنام ، في أخبار هذه السنة « ١١٨١ هـ . إن عبد العزيز (أقام بقصر الغذوانة أياماً يغير على الرياض ويرجع مكانه) .

وهنا ينبغي لنا أن نقف قليلاً ، فما هو قصر الغذوانة ؟ وما هي خطورته ؟

إنه قصر (أو حصن) كان عبد العزيز قد أمر ببنائه على مقربة من الرياض وشحنه بالمقاتلين والأسلحة والمؤن لأغراض حربية و « نفسانية » ، وقد ثبت أن هذا الأسلوب الجديد عظيم النفع في الحرب ، فقد استطاع عبد العزيز أن يضيّق الخناق على خصمه وأن يضعف روحه ويرصد تحركاته ويتخطف أفراده وجماعاته ، وكان هذا القصر منطلقاً لغزوات متتابعة متلاحقة ، فما يكاد أهل الرياض يتنفسون الصعداء من غزوة دفعوها بشق الأنفس حتى يفاجأوا بغزوة ثانية فثالثة تنهكهم ، وتجعلهم يعيشون دائماً في هذا النوع من الحروب الذي يسمونه بلغة العصر : حرب « الاستنزاف » .

---

(١) قال ابن غنام في وصف موقعة الشيقيق : (وفيها سار عبد العزيز بالمسلمين إلى الرياض فنزل بالشيقيق ، وأقبل فزع أهل البلد إليهم وصدقوا الحملة عليهم ، ولكن الله من على المسلمين بالثبات، ولم يكن لهم إلى الفرار التفات، فقتل من أهل الرياض ستة من الأشرار،وقتل من المسلمين ناصر بن عبد الله ومحمد بن حسن الهلالي ، ورجع المسلمون إلى بلادهم) .

(٢) ابن غنام .

إن نجاح قصر الغذوانة جعل عبد العزيز يبني قصراً مثله قرب السلمية ،أطلق عليه اسم قصر « البدع » وكان له دور ملحوظ في الانتصار على أهل الخرج .

توقف المعارك بين الدرعية والرياض أربع سنوات :

كانت سنة (١١٨١) ، كما يقول ابن بشر : (أول القحط المعروف باسم « سوقة » ، غارت فيها الآبار وغلت الأسعار ومات كثير من الناس جوعاً ومرضاً وجلا أكثر الناس في هذه السنة والتي تليها إلى الزبير والبصرة والكويت وغيرها ثم رجع الخصب) .

فهل كانت هذه المجاعة سبباً في توقف المعارك بين الدرعية والرياض ؟

الواقع هو أن المعارك بينهما توقفت حتى عام ١١٨٥ هـ . أي نحو أربع سنوات ، باستثناء محاولة أشار اليها ابن غنام ، في أخبار سنة ١١٨٣ بقوله: «سار عبد العزيز يريد الرياض فصادف خيلاً لابن دواس عادية على الدرعية — بعد أن أخذت إبلاً كثيرة لسبيع — فقاتلها فتراجعت منهزمة ، ولم يكمل عبد العزيز مسيره إلى الرياض » .

وأكبر الظن أن سبب انصراف عبد العزيز ، خلال هذه المدة ، عن قتال ابن دواس هو اشتغاله بأمور حربية وسياسية في مجالات أخرى من شأنها أن توفر له عناصر القوة وتكفل له التغلب الحاسم على خصمه القوي ابن دواس ، ولقد حقق الله له رجاءه ، فرأينا الوشم والقصيم وثرمداء والعودة والحائر تقبل على عبد العزيز مبايعة ومعاهدة على السمع والطاعة ، وبذلك زاد أنصار عبد العزيز وتعاظمت قوته ، وفي نفس الوقت تحسنت العلاقات بين مكة والدرعية ، فزاد ذلك الدرعية بهاءً وسمعة ، وجعل لها في عيون خصومها مزيداً من الهيبة !

سنة ١١٨٥ هـ .

استئناف القتال بين الدرعية والرياض — مقتل ولدي دهام :

في عام ١١٨٥ هـ . استؤنف القتال بين الدرعية والرياض بقوة وزخم ، وذلك

بعد أن أصبح عبد العزيز ، بمـا انضمّ اليه من بلدان نجد ، أكثر رجالاً وموارد من ابن دواس .

سار عبد العزيز الى الرياض ونزل منها على « ممكال » ، فخرج اليه أهلهـــا يقاتلونه ، فقتل منهم ستة ورجع عنهم ، ثم بدا له أن يعيد الكرّة عليهم ، قبل أن تجفّ دمـــاء قتلاهم ، فسار بالموحدين الى الرياض ، فلما وصلوا الى « عرقة » وجدوا دهام بن دواس عادياً عليها ، فأرادوا قتاله فهرب منهم ، ولكنهم تتبعوه وقتلوا من رجاله نحو عشرين قتيلاً ، وأمسكوا بولديه دواس وسعدون ، فقتلهما عبد العزيز [1] .

ويقول مانجان : إن فرس دواس عثرت وسقط صاحبها عنهـــا — ووقع في قبضة الموحدين — ولكن فرسه تابعت جريها الى الرياض، فلما رآها سعدون عرف أن أخاه قُتِل ، فركبها عائداً الى مكان المعركة ، فأمسكوا به وأخذوه الى عبد العزيز فقتله. ويقال: إن عبد العزيز هو الذي قتل دواس أيضاً ، وبذلك ثأر لمقتل أخويه (فيصل) و(سعود) اللذين سقطا شهيدين بأيدي رجال ابن دواس وأولاده ، عام ١١٦٠ هـ . في معركة الدرعية .

كان لمصرع دواس وسعدون في نفس أبيهما أثر هائل ، ولعله السر في تخاذله وضعفه وهربه من الحرب ، بعد ذلك !

ويصف ابن غنام حزن دهـــام على ولديه ، فيقول : « رجع دهام .. مرتدياً من الذل والخزي أضفى لباس ، متجرعاً من الهم أصفى كاس ، فلم تمد له بعد هذه عين قريرة ، ولا حالة من المعـــاش سريرة ، بل كلما غفلت العيون ، أبدى من الأسف المكنون، ما لا يعرف ولا يقاس، لا سيما على مفارقة سعدون ودواس،

---

(١) يقول ابن بشر في وصف هذه الحادثة أن عبد العزيز لما بلغ عرقة« البلدة المعروفة أسفل الدرعية ، وافق ابن دواس عادياً عليها بخيل وجيش ، فلما رأوا جيش عبد العزيز انهزموا فحث السير في أثرهم ، فعثرت فرس دواس بن دهـــام ، في (صفاة الظهرة) التي بين عرقة والفوارة ، فأمسكه المسلمون ، وقتله عبد العزيز، ثم قتل أخاه سعدون بن دهام ، وقتل معهما في تلك الهزيمة نحو عشرين رجلاً » .

فنودي عليه بلسان الحال من بعيد : ذلك بمـــا قدّمتْ يداك ، وإن الله ليس بظلاّم للعبيد ! » .

غزوات اخرى :

لم يكد عبد العزيز يرجع من غزو الرياض حتى عاد إلى غزوها مرة اخرى بعد عشرة أيام ، وقتل من رجالها أربعة .

وفي عام ١١٨٦ هـ . غزيت الرياض مرتين : غزاهـــا عبد العزيز مرة وابنه سعود مرة ، وكان حصاد الغزوتين نحو عشرة قتلى من أهل الرياض والاستيلاء على عدد من أغنام البلد [١] .

---

(١) يقول ابن غنام ان قصد « سعود » من غزوة الرياض كان الاستيلاء على شي من إبل دواس وقد وصل سعود الى الرياض بعد الهجود فكمن كمينه .. فلما خرجت السوائم للرعاية أغـــار عليها المسلمون ، فالتجأت إلى البلد .. و (خرج الفزع .. فتقابل كل من الفريقين واقتتل) وصدتهم فرسان المسلمين ، فانهزموا مدبرين وقد قتل منهم سبعة » ..

ويلاحظ أن ابن بشر جعل عبد العزيز أمير هذه الغزوة ، خلافاً لما قاله ابن غنام ..

فتح الرياض

في صفر من عام ١١٨٧ هـ . سار عبد العزيز الى الرياض وقاتل أهلها عدة ليال متصلة ، واستولى على كثير من بروجها ، وهدم مرقبها ، وقتل من أهلها خلقاً كثيراً ، فشاع الرعب والفزع بينهم ودبّ اليأس الى نفوسهم ، ولكن الموحدين لم يدخلوا البلدة ، لأن عددهم لم يكن كبيراً ، فاكتفوا بضربتهم القاصمة وعادوا الى الدرعية للاستجمام والاستعداد للمعركة القادمة الحاسمة !

كان دهام بن دواس قد تضعضع كثيراً بعد مصرع ولديه ، فلما جاءت هذه الغزوة الشديدة ، عرف أن لها ما بعدها ، وأن وراءها ما هو أشد منها ، لأن أنصار الدعوة يتكاثرون وقوتهم تتعاظم ، فلم يعد يفكر إلا بالهرب من الرياض ، بنفسه وأهله ، إلى أي مكان آخر ، يحميه من غضب عبد العزيز ، وهكذا جمع أعيان الرياض وأخبرهم بما عزم عليه ، فلاموه وحاولوا جهدهم حمله على الرجوع عن عزمه ، مؤكدين ولاءهم له ومعلنين صدقهم في السير وراءه .. ولكنه أصرّ على رأيه .

وفي منتصف ربيع الثاني من عام ١١٨٧ هـ . خرج عبد العزيز بجيش كثيف من رجال الدرعية وغيرهم الى الرياض ، وكان ينوي ، هذه المرة ، الاستيلاء عليها مهما يكلفه ذلك من التضحيات ، فلما وصل الى قرب (عرقة) ، جاءه

البشير بأن دهـــام بن دواس هرب من الرياض الى (الدلم) ، وتبعه كثير من أهلها ، وأن الرياض الآن خالية تماماً من المقاتلين، ولم يبقَ فيها إلا المستضعفون من الشيوخ والنساء والأطفال !..

قال ابن بشر : (... فحثّ عبد العزيز السير اليها ، فقدِمها بعد العصر ، فإذا هي خالية من أهلها إلا القليل ، وإذا دهـام قد ألقى الله في قلبه الرعب ، فخرج منها في النهار بحرمه وعياله وأعوانه . وهـذا شيء حدث عليه في يومه ذلك ، ولم يكن اعتقده ولا َهمّ به ولا خاف من أهل بلده خيـــانة ، بل كلهم صادقون معه ، ولا حصل عليه تضييق ُيلجئه الى ذلك ، والحرب بينه وبين المسلمين سجال ، له وعليه ، ولكن الله سبحانه جعلهـــا آية لمن افتكر وعبرة لمن اعتبر .

قيل: إنه قام فزعاً مرعوباً وركب خيله ونجائبه وجعل عليها نساءه وعياله. فلما ظهر من قصره قال :

(يا أهل الرياض ، إن لي هنا عدة سنين أحارب ابن سعود ، والآن سئمت من الحرب ، وتركتها له . فمن أراد أن يتبعني فليفعل ، وإلا فليجلس مكانه في البلد) .

ففرّ أهل الرياض في ساقته ، الرجال والنساء والأطفال ، لا يلوي أحد على أحد ، هربوا على وجوههم الى البرية في السهباء ، قاصدين (الخرج) ، وذلك في الصيف ، فهلك منهم خلق كثير جوعاً وعطشاً . ويقول ابن غنام : إن أربعمائة من أهل الرياض النازحين هلكوا في الطريق من شدة الحر !

ويقول ابن بشر في وصفه لهلع سكان الرياض وفزعهم : إن الرجل منهم كان يأخذ الغرب ويجعل فيه ماءً يحمله على ظهره والغرب لا يمسك مـــاء ، والإبل عنده ولا يركبها، وتركوها — أي الرياض — خاوية على عرشها والطعام واللحم في قدوره ، والسواني واقفة في المناحي ، وأبواب المنازل لم تغلق ، وفي البلد من الأموال ما لا يحصر .

فلما دخل عبد العزيز الرياض وجدها خالية من أهلها إلا قليلاً ، فساروا في إثرهم يقتلون ويغنمون ، ثم إن عبد العزيز جعل في البيوت ضباطاً يحفظون ما فيها ، وحاز جميع ما في البلد من الأموال والسلاح والأمتاع وغير ذلك ، وملك بيوتها ونخيلها إلا قليلها .

وكان قد أقام هذا الحرب نحواً من سبع وعشرين سنة .

عدد القتلى :

ذكر ابن غنام — ثم ابن بشر نقلاً عنه — أن القتلى في هذه المدة نحو أربعة آلاف رجل، الذين من أهل الرياض ألفان وثلاثمائة ، ومن المسلمين ألف وسبعمائة .

وعندنا أن هذه الأرقام مبالغ فيها ، فقد أحصينا عدد القتلى من رجال دهام ابن دواس الذين ذكرهم ابن غنام في حوليات المعارك التي وقعت بين الرياض والدرعية فلم يصل إلى أربعمائة .. وقتلى الدرعية وأنصارها دون ذلك ، ولعل جملة من قتلوا في المعارك جوعاً وعطشاً نصف العدد الذي قدره ابن غنام أو أقل ..

مضرب الامثال :

يقول ابن بشر إن هرب ابن دواس من الرياض صار مثلاً يضرب في نجد وغيرها (فيقال لكل من فعل حماقة تليق نسبتها اليه ، كخروج من نخل أو بيت أو بيعها أو بيع سلعة لغير ضرورة أو خروج من بلد إلى بلد غيرها :(هذا مثل ظهور دهام بن دواس من الرياض) .

ويقول فيلبي : (لا يزال الناس في نجد يذكرون هروب دهام بالسخرية .. لكننا لا نملك إلا القول إنه كان رجلاً بطلاً ... حارب بحزم... ولكنه حارب في سبيل قضية خاسرة ، وربما كان انهيار دفاعه المفاجىء يعود لفقد ولديه أثناء هزيمته في السنة السابقة ، فقد كان لهذا الحادث أعمق الأثر في نفس رجل أنهكته الحروب التي خاضها طول حياته) ..

عظمة هذا النصر :

يعدّ فتح الرياض أول نصر عظيم وكسب جسيم لعبد العزيز ، وقد تمّ بعد انقضاء السنة السابعة من ولايته ،وبذلك صفا لعبدالعزيز ملك العارض ،لأنه تخلص من خصمه العنيد ، الذي كان يقيم في جواره ويساعد عليه أعداءه ، ولا شك في أن هزيمة ابن دواس أدخلت كذلك الوهن والقنوط على قلوب حلفائه ، لأنهم خسروا محارباً قوياً لا رجاء لهم بعده في الوقوف أمام عبد العزيز !

كانت قوة الرياض ضد عبد العزيز والآن أصبحت معه ، وهذا وحده تبدّل هائل في ميزان القوى .

والحق إن سقوط الرياض كان كسقوط الثمرة الناضجة على الأرض ، من تلقاء نفسها .. ولكن نضوجها ، وبالتالي سقوطها ، لم يتم إلا بعد ربع قرن أو نحو ذلك ، فقد كان هيناً في نهايته ولكنه كان شديداً في مقدماته .

دخل عبد العزيز الرياض دخولاً سلمياً هـــادئاً ، واعتبرها « فيئاً » ، فضمّ الكثير من دورها ونخيلها وأموالها الى بيت مال المسلمين .

ثم نادى بالأمان لأهل الرياض ، وأرسل الى الهاربين يعدهم العفو ويدعوهم الى العودة ، فظهر كثير من المستخفين وعاد كثير من النازحين .

أقام عبد العزيز في الرياض مدة ، رتب خلالها أمورها ، وولـّى عليها أميراً — هو عبد الله بن مقرن بن محـــد بن مقرن — واختار لها إماماً على الصلاة ، ثم غادرها الى الدرعية .

تهنئة الشيخ ونصحه :

كان الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب أسرع الناس الى تهنئة عبد العزيز بهذا النصر العظيم ، فأرسل اليه ، مع رسول من أهل الدرعية ، كتاباً رائعاً يقول فيه :

(... أحب لك ما أحب لنفسي ، وقد أراك الله في عدوّك مـــا لم تؤمّل ، فالذي أراه لك أن تكثر من قول الحسن البصري ، كان إذا ابتدأ حديثه يقول :

« اللهم لك الحمد بما خلقتنا وهديتنا وفرّجْتَ عنا ،
لك الحمد بالإسلام والقرآن ،
ولك الحمد بالأهل والمال والمعافاة، كبتَّ عدوّنا ، وبسطتَ رزقنا،
وأظهرتَ أمننا ، وأحسنتَ معافاتنا ، ومن كل ما سألناك ربنا
أعطيتنا ،
فلك الحمد على ذلك حمداً كثيراً طيباً حتى ترضى ، ولك الحمد إذا
رضيت ») .

قصيدة ابن غنام :

وقد نظم ابن غنام قصيدة في فتح الرياض أجاد فيها ، وهذه طائفة من أبياتها :

كشف الحق ظلمة الإغلاس	ومحا الدين جملة الارجاسِ
وطيور الأفراح بالفتح غنّت	فوق أفنان غصنه الميّاس
حين أمّ الإمام بالفتح ساعٍ	مخبر عن جلا ابن دوّاس
خلّد الله في النعيم إماماً	أظهر الدين بعد طول ارتكاس
ساعدته عصابة الحق حتى	لبسوا للحرب أقوى لباس
بذلوا للجهاد فيه نفوساً	روّضوها للموت بعد شماس

في المقامات :

أشار الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب في « مقاماته » الى عداوة ابن دواس الشديدة للدعوة في زمن محمد بن سعود ثم في زمن ولده عبد العزيز ، قال :

(... فأول من عاداهم أقرب الناس اليهم بلداً وأقواه كثرة ومالاً : بلاد دهام بن دواس، وهو أول من شنّ الغارة عليهم علىغفلة وغرّة وعدم الإحتساب

منهم ، فخرجوا على فشل ، فقتل منهم رجالاً ، منهم فيصل وسعود ابنا محمد ابن سعود .

فسبحان من قوّى جأش هذا الرجل على نصرة الدين ، حين قُتل ابناه .

ثم سطا عليهم مرة ثانية ، فقتل كثيراً ممن سطا بهم ، فأخذ المسلمون الثأر منهم ، ثم بعد ذلك استمرت الحرب بينهم وبينه أكثر من ثلاثين سنة ، وفي تلك الثلاثين السنة أو أكثر أعانه على حربهم: أهل نجران ، وابن حميد شيخ بني خالد مراراً ، فيأتونهم بأنواع الكيد والكثرة ، فينصرهم الله عليهم .

وفي ذلك أعظم عبرة) .

أموال الرياض :

جاء فتح الرياض في وقت شديد على أهل الدرعية ، فقد استمر القحط أكثر من سنتين ، وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب يستدين لإطعام طلابه وأنصاره والقيام بحوائجهم ، فلما فتحت الرياض وفى ديونه كلها .

قال ابن بشر : (كان الشيخ ، رحمه الله ، لما هاجر اليه المهاجرون ، يتحمل الدين الكثير في ذمته لمؤونتهم وما يحتاجون اليه وفي حوائج الناس وجوائز الوفود اليه من البلدان والبوادي ، ذكر لي أنه حين فتح الرياض كان في ذمته أربعون ألف محمدية ، فقضاها من غنائمها) .

بيعـــة الوشم

غزا عبد العزيز عـام ١١٨٠ هـ . بلدة « ثرمداء »[١] في الوشم ، وقتل نحواً من عشرين من أهلها ، واستاق كثيراً من أغنامها ، وسقط من رجاله في هـذه الغزوة حوالي عشرين رجلاً أيضاً ؛ ولكن عبد العزيز لم يعد الى غزو الوشم بعد ذلك قط ، ففي عام ١١٨١ هـ . كاتب أهل الوشم عبد العزيز وبايعوه على الإسلام والسمع والطاعة ، وكان ذلك بإجماع منهم ، في مختلف البلدان والقرى .

ونستطيع القول : إن الوشم كانت أول منطقة في نجد بايعت لعبد العزيز ، وكانت لبيعتها مزيتان جليلتان :

الاولى : (الثبات) ، فلم تعقبها ردّة أو نكسة ، كما حدث في منـاطق أخرى ، كسدير مثلاً ، التي بايعت مع الوشم ولكنها لم تثبت على بيعتها .

الثانية : (الاجماع) ، فقد كانت البيعة عامة شاملة الإقليم كله ، لم تتخلف عنها قرية صغيرة ولا بلدة كبيرة .

---

(١) تسمى هذه الغزوة باسم غزوة « الصحن » ، وهو موضع خارج بلدة ثرمداء . وقد جاء في تاريخ نجد ، المحرر ، عن هذه الوقعة ما يأتي : (وفي سنة ١١٨٠ هـ . جرت وقعة الصحن .. وذلك أن المسلمين ساروا الى ثرمداء وأميرهم عبد العزيز ، فكمنوا ، حتى خرجت أغنـام أهل البلد الى المرعى ، فاستاقوها أمامهم . فخرج اليه من في البلد ، والتحم بينهم القتـال ، فانتصر المسلمون وقتلوا من أهل البلد نحو عشرين رجلاً ، منهم : محمد بن عيد ومحمد راشد ابنا ابراهيم بن سليمان ، وقتل من المسلمين فواز التمامي وابن غدير) .
وقد قدر ابن بشر عدد قتلى المسلمين بنحو عشرين .

معارك الخرج

كان ابن دواس ، صاحب الرياض ، من أشدّ خصوم الدعوة ، بل عده أكثر المؤرخين « العدو الأول » ، ولكن زيد بن زامل ، صاحب الدلم ، لم يكن ليقل عنه صلابة وعناداً ودهاءً ، وقد يفوقه في كل ذلك .

كان ابن زامل رئيساً لبلدة الدلم ، وهي أكبر بلدان الخرج ، ولكن قوته لم تكن بالدلم وحدهـا ، فقد كانت له كلمة مسموعة في أكثر بلدان الخرج ووراء الخرج ، ومن هناك زعامته ، وقد صنفه الشيخ عبد الرحمن بن حسن ، في مقاماته ، بين كبار أعداء الدعوة !

استمر ابن زامل في مقاومة الدعوة عشرين سنة ، تآمر عليها مع ابن دواس ومع صاحب نجران ، ومع أمير الأحساء ، وعقد المحالفات ضد الدرعية مع كثير من بلدان نجد ، ومات .. وهو يقاتل رجال الدعوة .

قبل موت محمد بن سعود :

قبيل موت محمد بن سعود عام ١١٧٩ هـ. أسرع ابن دواس إلى غزو « منفوحة » فسار ابن زامل معه معلناً بذلك عداءه لعبد العزيز وتضامنه مع خصمه العنيد .

ويبدو أن هدنة انعقدت بعد ذلك بين عبد العزيز وبين ابن زامل ، التزم بها

عبد العزيز سبع سنوات .. وما ندري إن كان سبب هـــذه الهدنة زواج عبد العزيز عام ١١٨٠ هـ . من بنت زامل [١] أم له سبب آخر .

وفي عام ١١٨٧ فتح عبد العزيز الرياض، وزادت موارده وكثر عدد أنصاره ومقاتليه ، فعزم على جمع بلدان نجد كلها تحت لواء الدعوة ، فأرسل إلى ابن زامل يدعوه إلى «الإسلام» ، وينذره، إن لم يفعل، بنبذ العهد الذي كان بينهما ، فرفض ابن زامل الدخول في الدعوة وشرع يستعد للقتال ويجمع حوله الأحزاب ويكتب إلى رئيس نجران ويغريه بالمال ويستعديه على عبد العزيز !..

غارة سعود على الدلم :

وفي عام ١١٨٨ هـ . قام سعود بن عبد العزيز بغارته الأولى على الدلم ، بعد نبذ العهد مع صاحبها ، فوصلها ليلا ، على حين غفلة من أهلهـا وعبأ كميناً وهيأ جماعة للغارة ، فلما خرجت أغنام البلد للرعي استاقها كلها وعاد بها إلى الدرعية فتبعه أهل الدلم يقاتلون عن أغنامهم لاستردادها ، فخرج عليهم الكمين ، وقتل منهم عشرة رجال واضطرهم إلى الفرار والرجوع إلى بلدهم بعد أن سقط منهم عشرة قتلى ، وأما رجال الكمين فقد قتل منهم رجلان فقط .

غارة عبد العزيز على الخرج :

وفي عام ١١٨٩ هـ . أغار عبد العزيز على الخرج، فلما قارب قرية (الضبيعة) وكان الوقت ليلا ، نزل وأعدّ الكمين والغزاة ، وانتظر حتى طلع الفجر فشنّ غارته ، واستاق أغنام البلدة ، وقتل من أهلها اثني عشر رجلا، وقطع كثيراً من شجرها وجميع نخل « الشدى » ، ثم رحل عنها وسار إلى « زميقة » فحاصرها وقطع نخيلها وخرب زروعها وأذاق أهلها ألواناً من القتال .

---

(١) أنظر ابن غنام في أخبار سنة ١١٨٠ حيث يقول (ثم دخل عبد العزيز منفوحة وتزوج بنت زامل) .

وكان عد من استشهد من رجال عبد العزيز في الغارتين ثمانية .

ويقول ابن غنام : إن عبد العزيز لم يفرق الغنائم بين الغزاة ، وإنما استأذنهم في إعطائها الى « آل عليان » — وهم أنصار الدعوة المؤمنون الذين اضطروا الى الهرب من بريدة بعد استيلاء عريعر عليها — فوافقوه على ذلك ، تعويضاً لآل عليان عن خسائرهم وتطييباً لخواطرهم !

عام ١١٨٩ هـ

مع صاحب نجران :

ضاق ابن زامل ذرعاً بغزوات الموحدين لبلدته وما حولها ، واستشعر في نفسه وفي حلفائه العجز عن ردها ، فزيّن له وهمه استدعاء صاحب نجران لمؤازرته ، ألم يأتِ النجراني ، من قبل ، الى الدرعية ويتهددها ثم يضطرها الى مصالحته وإرضائه بالمال ، فلماذا لا يعيد القصة نفسها ، فيصل ابن زامل من ورائها الى إبعاد الخطر عن بلدته وتقوية زعامته وإضعاف عبد العزيز ووقف مدّه العظيم ؟

ذلك ما كان يحلم به ابن زامل ، وشتان بين الحلم وبين الحقيقة ، فالدرعية اليوم غير الدرعية أمس ، والنجراني لم يعد غولاً يهابه الناس ، ومهما يكن الأمر ، فقد مضى ابن زامل الى « حويل الوداعين » صاحب الدواسر ، وإلى غيره من زعماء الجنوب ، واتفق معهم على استدعاء النجراني . ويقول ابن غنام : إن الصفقة بين رئيس نجران « حسن بن هبة المكرمي » ، وبين زيد بن زامل قد تمت لقاء ثلاثين الف زر « دينار » دفعها ابن زامل ، حين وصلت الى الدلم الرهائن الذين أرسلهم اليه المكرمي ، ضماناً لقيامه بتعهده !

.. جاء النجراني الى نجد ، عام ١١٨٩ ، فأرسل اليه أمير الأحساء الجديد « بطين بن عريعر » ، أكثر من ستة آلاف دينار وثلاثمائة حمل بعير من القمح والأرز والتمر ، وتبارى خصوم الدعوة في تكريمه بالأموال والهدايا الكثيرة ، وانضم اليه ، طبعاً ، أهل الخرج والدواسر ، وكثير من بلدان الجنوب والبدو .

سار النجراني بمن معه من أهل نجران وأهـــل يام ، وبمن انضم اليه من النجديين ، قاصداً الى حائر سبيع ، كما فعل في قدمته الاولى الى نجد ..

وخلال ذلك كان عبد العزيز قد استكمل وسائل الدفاع عن بلدانه ، وأرسل ابنه سعود الى « ضرمى » ليشحنها بالرجال والمعدات، حتى إذا مرّ بها النجراني كانت شوكة في حلقه : إن أراد ابتلاعها خنقته ، وإن لفظها جرحته [1] !

معركة الحائر :

اجتهـد النجراني وحلفاؤه كثيراً في اقتحام بلدة الحائر ، فلم يستطيعوا الى ذلك سبيلاً ، فقطعوا نخيل البلدة ليحملوا أهلها على طلب الصلح ، ولكن قطع النخيل زادهم صلابة فاستمروا في مقاومتهم الباسلة من وراء حصونهم وقتلوا من جنود النجراني نحو أربعين رجلاً ، ولما رأى النجراني شجاعتهم وصمودهم أدرك أنه لن ينال منهم مأرباً ، فصالحهم وانصرف عنهم، وقصد «ضرمى»، لاعتقاده بأن الحائر وحدها ممتنعة بحصونها المتينة ، وأن ضرمى وسائر بلدان نجـــد أسهل منالاً .

---

(١) يقول فؤاد حمزة في كتابه «في بلاد عسير» : (إن المكارمة ، الذين منهم رئيس نجران حسن بن هبة ، قحطانيون ، وليسوا علويين ، كما يتوهم بعض المؤلفين ، وهم ليسوا نجرانيين ، وإنما هاجروا الى نجران من بلدتهم طيبة ، التي تقع على بعـــد ساعات من صنعاء بجنوب ، ولم تكن للمكارمة سلطة زمنية في أول الأمر ، ولكنهم نجحوا في سياستهم وامتدت سلطاتهم الى بلدان كثيرة وأصبحوا يجمعون بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية ، وهم فرقة من الاسماعيلية الباطنية) .

ويعطينا ابن غنام وصفاً للنجراني فيه كثير من المبالغة ، ويتهمه بالكهانة والتنجيم .. ومما قال عنه : (كان ذلك الرئيس في الشر قرين إبليس ، وقد فتن أولئك الهمج من الناس مما يبدي لهم من حساب الرمل والتخمين والاحداس ، وافتتن أولئـــك البوادي وساروا له بالأموال الروائح والأغادي، فلم يشك أحد من تلك الطوائف أن ذلك الرمال لأسرار الغيب حافظ عارف، وعلى ما يحدث من المكونات محيط واقف،فكانوا اذا أرادوا القتال حملوه على سريره في الجبال وقصدهم بذلك الاستنصار .. فمات في أثناء انصرافه وشاهد حزاء سعيه وإسرافه ... وفاجأه وارد الحمام قبل وصوله بلده) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معركة ضرمى البطولية :

أقـــام سعود بن عبد العزيز مدة في « ضرمى » ، يسهر على تقوية حصونها وشحنها بالرجال والسلاح والمعـدّات والمؤن ، فلما اطمأن الى مناعتها عاد الى الدرعية .

ولعل النجراني بلغه انصراف سعود من ضرمى ، لذلك حثّ خطاه اليها ، وأحاط رجاله وحلفاؤه ببروجها ، وفي اليوم التالي هجموا عليها بقوة هـــائلة ليقتحموها ، فثبتت لهم ثباتاً عجيباً ، ولما تغلغلوا بين أشجارها ونخيلها رماهم حماة المدينة بالبنادق رمياً بارعاً ، (فكانت شهب الرصاص كأنها عليهم مرسلة او من فوقهم منزلة ، فخرجوا هاربين .. وقتل المسلمون منهم خلقـــاً كثيراً وأوقعوا بهم جراحات غزيرة .. فانهزموا عنهم ورجعوا كلهم خائبين .. ثم بعد تمزق هـذه العساكر المشهورة .. وتفرق تلك الأجناد المذعورة ، قصد كل قبيل قبيله ..) .

انسحاب النجراني :

هل خاف النجراني على جنوده من أهل ضرمى أن يفنوهم ، فهرب طالباً النجاة ، كما قال ابن غنام ؟

أم هناك أسباب أخرى حملت النجراني على الانسحاب ؟

يقول المؤرخ الفرنسي « مانجان » : إن وطأة المرض اشتدّت على النجراني خلال الحصار المضروب على ضرمى ، فقرر العودة الى بلاده ، وعاد رجاله معه ، وقد مات في الطريق ، قبل وصوله الى نجران .

أما حلفاء النجراني من النجديين فلم يحاول أحد منهم الإستمرار في القتال

بعد ذهابه ، لأنه هو كان معقد الآمال ، فأسرعوا في العودة الى بلدانهم ، قبل أن يتخطفهم رجال الدعوة !

بيعة ابن زامل :

كان لمرض النجراني[1] وانسحابه أثر هائل في نفس ابن زامل، فأسرّ الى عدد من أعيان قومه برغبته في مصالحة عبـــد العزيز والدخول في الدعوة والمبايعة ليأمن على نفسه وقومه وبلده ، فوافق إخوانه على فكرته ، فمضى ، ومضوا معه ، الى الدرعية من غير إشعار .. ولا أخذ أمان ولا مفاوضة ولا روية ، فلم يشعر عبد العزيز إلا بقدومه ومفاجأته وهجومه مع أناس من أعيـــان قومه ، فبايعوا على الإسلام .

وقد طلب منهم عبد العزيز كثيراً من الخيل المطهمة والسلاح ، فأحضروا له كل ما طلب ، فأخذ بعضاً وترك لهم بعضاً تألفاً لقلوبهم .

فرار ابن زامل :

في عام ١١٩٠ هـ ، بعد أن انضم ابن زامل الى الدعوة وبايع ، جاء اليه أحد سكان الحوطة ، وطلب منه الإحتكام الى الشرع في مشاجرة سابقة كانت بينهما ، فأبى عليه ذلك، لغطرسة وكبرياء فيه ، فلما ألحّ عليه في الطلب أخذته حميّة الجاهلية فقتله .

ولما حمل الخبر الى عبدالعزيز أمر المسلمين بغزو الدلم، وحين عرف ابن زامل بسير المسلمين اليه ، فرّ من البلدة مع بعض خواصه .

.. ودخل الموحدون الدلم ، وأمر عبد العزيز عليها سليمان بن عفيصان .

---

(١) انظر الهامش في الصفحة ٥٦ .

فتن في الدلم واليمامة :

في العام ١١٩٠ هـ. قدم رئيس بلدة اليمامة حسن البجادي، ومعه أعيان قومه على الدرعية وبايعوا على الدين الصحيح والسمع والطاعة للشيخ وعبد العزيز، وأرسل الشيخ معهم معلماً مرشداً، ولكنهم ما لبثوا أن نكثوا العهد بعد أيام قلائل وأخذوا يعدّون الأسباب للفتك بمن عندهم من أنصار الدعوة، فهرب المعلم الى اليمامة سراً وجاء الى عبد العزيز وأخبره بحقيقة الأمر، فأمر ابنه سعود أن يسير بجنود الموحدين الى اليمامة لإخماد الفتنة قبل استفحالها، فقصد سعود الى الخرج ولمّا وصل السلمية نزلها ووضع فيها عدداً من الرجال وأرسل مرابطة الى كل من الدلم والضبيعة ونعجان، وكتب الى الشيخ البجادي يطلب منه إخراج الأشرار الذين يريدون الفتك بالمسلمين من البلدة فوعده الإمتثال بشرط أن يرحل (أي سعود وجيشه) عن السلمية ويرجع الى الدرعية، فقبل سعود شرطه ورحل .

ولما اطمأن البجادي الى ابتعاد سعود عن الديار، تغلبت عليه فكرة الشر والغدر، فخرج مع شجعان قومه الى السلمية، ليقتل من فيها من الموحدين ... ولكنهم كانوا قد علموا بنيته واستعدوا له فدافعوا عن أنفسهم دفاع الأبطال، وسقط منهم شهيدان، واضطر البجادي وأعوانه الى التقهقر والإنسحاب مخذولين .

ولم تقف الفتنة عند هذا الحد ... فقد كان مع البجادي نفر من أهل الدلم، الذين يناصرون ابن زامل، فكتبوا إليه يطلبون عودته الى بلده وتولي الرئاسة عليها، وانطلقوا هم وجماعة البجادي يبحثون عن الموحدين للفتك بهم، واستنجدوا بآل مرة وكانوا نازلين قريباً منهم فأسرعوا في الإنضمام إليهم، وقتلوا عشرة من الموحدين أيضاً، فاستعدّ لهم الموحدون ودافعوا عن أنفسهم دفاع الأبطال واضطروا الغزاة الى الإنسحاب .

تجمع أهل الفتنة بعد ذلك في الدلم وأقبل اليهم زيد بن زامل فرأسوه على

البلدة ، وكان أميرها لعبد العزيز – ابن عفيصان – قد هرب منها ، وتعاهدوا على المضي في حرب الموحدين حتى النهاية .

هجرة الموحدين من السلمية :

قدم سعود الى الخرج ، فنزل السلمية ، وأخرج منها المرابطة الذين كانوا فيها ، كما أخرج الموحدين الراغبين في الرحيل عنها ، فخرجوا مع أهلهم وحيوانهم وأثاثهم ، وعاد بهم سعود الى الدرعية حيث نزلوا ضيوفاً مكرمين ، وما ندري هل فعل ذلك سعود إبقاءً عليهم ، أم لأنه كان عاجزاً يومئذ عن التغلب على أهل الفتنة في الدلم ؟

معركة مخيريق :

مهما يكن الأمر ، فإن الإمام عبد العزيز سار بجنوده الى المكان الذي ينزل فيه آل مرة للانتقام منهم ، وقد أخطأه التوفيق هذه المرة لسببين :

الأول : ان آل مرة فزع لهم الأعراب المجاورون .

الثاني : أن جند عبد العزيز كانوا في عقبة ضيقة ، تدعى (مخيريق الصفا) ، ولم يكن لهم فيها مجال للمعركة .

وقد قدر عدد القتلى من الموحدين بأربعين ، وقيل ستين ، ومن مشاهيرهم أمير القصيم ، عبد الله بن حسن ، ولم يجد عبد العزيز مخرجاً إلا الإنسحاب والعودة الى الدرعية لإعداد غزوة جديدة ، ولكنه ما كاد يصل الحائر حتى جهّز سرية من ثمانين فارساً وأرسلها الى اليمامة ، فعقرت إبلاً لأهل اليمامة ثم رجعت .

سنة ١١٩١ هـ . سار سعود بالموحدين إلى غزو الخرج، فاستعد له أهلها والتقوا به قبل وصوله إلى بلدهم في أرض يقال لها (السهبا) ، فاشتد بينهم القتال وسقط من الفريقين قتلى ، ثم تتاركا وعاد كل منهما إلى وطنه .

سنة ١١٩١ هـ . – آخر سنة ١١٩١ – كما يقول ابن غنام – سارت فرسان الموحدين للغارة على الدلم ، فلقيهم أهل الخرج قبل وصولهم ، فجرت بينهم جولة قتال ، وقع فيها عدد يسير من القتلى .

وفي هـــذا العام أيضاً – كما يقول ابن بشر – (سار عبد العزيز غازياً إلى الخرج ونازل أهل بلدة الدلم ، ودخلت العدوات الى نواحي الحلة ، وضيّق على أهلها ، وكان رئيسها زيد بن زامل غائباً عند البجادي في اليمامة ، فحين بلغه منازلة عبد العزيز لأهل بلده استنجد واحتفل بجيش ورجال وسار اليهم فلمـــا وصل اليهم واذا رجال المسلمين داخل البلد ، فجعل مسطاه على مناختهم ومن فيها ، وكان فيها رجال عبد العزيز والثقيل من رجال القوم والركاب فأوقع بهم فاقتتلوا قتالاً شديداً ، قتل فيه من المسلمين نحو عشرين رجلاً ، فلما أحس الذين في البلد بالوقعة خرجوا منها ، فدخل زيد وقومه البلد ، فرحل عبد العزيز ومن معه ، وقصد بلد نعجان وقطع فيه نخلاً ودمر زرعاً) [1] .

سنة ١١٩٥ – في هذه السنة سار سعود إلى الدلم وحاصرها وقطع فيها نخلاً وقتل رجالاً ، ثم سار إلى السلمية ، وبنى القصر الذي عرف باسم (قصر البدع) قريباً من السلمية ، وجعل فيه مرابطة ، وسمى عليهم أميراً ابن غشيان .

ويقول ابن غنام إن الإمام عبدالعزيز هو الذي أشار ببناء هذا القصر ، ليضيّق حماته على أهل الخرج ويتخطفوهم .. وقد خرج فرسان من أهل القصر يوماً فأغاروا على جماعة من أهل اليمامة وقتلوا منهم أحد أبناء البجادي رؤساء اليمامة . وكان رجال قصر البدع (في غالب الليالي والأيام ، يعدون على أهل الخرج وينالون منهم المرام ، ويقعدون لهم المراصد ، ويأخذون كل قادم وقـاصد) ، فلما ضاقت صدور أهل الخرج بهذا القصر وساكنيه ، قرروا التخلص منه بأي ثمن

---

(١) يقول ابن غنام ان هذه الحادثة وقعت سنه ١١٩٢ .

فنصح لهم أحدهم أن يصنعوا صندوقاً مصفحاً بالرصاص وفي داخـــله الرجال ويحملوه على عجل ويدفعوه إلى أصل سور البدع ، ثم يفتح ويخرج منه الرجال وينقضون حجارة السور .. ولمـا فرغوا من بناء الصندوق ووضعوه على عجل اندفع في الطريق ولكنه توقف في منتصفها .. واضطروا أخيراً إلى إحراقه حتى لا يقع غنيمة في أيدي أصحاب القصر .. ثم سار أهل الحريق والحوطة وأهل الخرج حين أقبل الليل نحو القصر وتعاهدوا على الصعود إليه مهما يكلف الأمر ، فقتل منهم خمسة وعشرون وعجزوا وتراجعوا ..

ولجأوا بعد ذلك إلى سعدون بن عريعر ، فأقبل اليهم بجنوده ومدافعه ، وانضم اليه جميع أهل الحريق واليمامة والحوطة والخرج ، وأخذ سعدون يرمي القصر بالمدافع ، فلا تعمل فيه شيئاً ، فقرر العودة إلى وطنه ، ولما وصل إلى اليمامة وجد أن المدافع التي معه تثقل سيره فتخفف منها .. وتركها في اليمامة ، فجاء المسلمون وأخذوها غنيمة هينة [١] .

سنة ١١٩٧ هـ .

مقتل زيد بن زامل :

أغار زيد بن زامل على سبيع ، وكانوا نازلين قرب الرياض ، واستاق شيئاً من إبلهم وانصرف عائداً إلى بلده ، فبلغ ذلك سليمان بن عفيصان ، وليس معه إلا ثلاثون مطية ، وكان مع ابن زامل ثلاثمائة راكب ، فلما تلاقى الجمعان حدثت بينهما (مناوشة رمي بالبنادق فثارت رمية من عند قوم ابن عفيصان ، فقدرها الله سبحانه في زيـد فكانت حتفه ، فسقط من كور مطيته ميتاً .. فأوقع الله الفشل في قومه بعد قتله ، فقتل منهم ابن عفيصان وجماعته نحو عشرة رجال ، وأخذوا ركابهم ، واستنقذوا إبل سبيع) [٢] .

---

(١) و (٢) ابن بشر .

سنة ١١٩٨ — تولى براك بن زيد بن زامل إمـــارة الخرج بعد موت أبيه ، فجرّب حظه في المعارك بغزوة قام بها مع أهل اليمامة على أهل منفوحة ، فقتل من جماعته نحو خمسة عشر رجلاً وارتدوا عن منفوحة وانسحبوا .

وفي هذه السنة بعد عودة سعود من غزوته للعيون اقتضى رأيه (أن يغير على أهل اليمامة ،فوجدهم قد خرج جميعهم إلى النزهة والتفرّج في البرية فأغار المسلمون عليهم فولوا منهزمين ، فقتل منهم في تلك الهزيمة أكثر من ثمانين رجلاً) [١] .

سنة ١١٩٩ — أغار سعود على قافلة حافلة لأهل الخرج والفرع وغيرهم قادمة من الأحساء،وكان عدد رجالها ثلاثمائة ، فلما وصلوا إلى ماء قرب الخرج،هاجمهم سعود وقتل منهم كثيراً ، وأخذ كل مـــا كان معهم من أموال وأمتعة وأقمشة وإبل [٢] .

وفي هذه السنة قتل براك بن زيد بن زامل ، ولجأ قاتلوه ، وهم أبناء عمه ، إلى الدرعية ، وعرضوا طاعتهم ، ولكنهم ما لبثوا أن هربوا إلى الأحساء [٣] .

وفي آخر السنة سار سعود بجيوشه قاصداً الدلم ، فلمـــا وصلها استولى على نخيلها وما فيه من حلل ، ثم حاصر البلدة فلجأ كثير من أهلها الى قلعتها ، فأمر أن يبنى قصر للمسلمين بين النخل وتلك الحلل ، ولما فرغ من بنائه ، خرج مقاتلة الدلم من قلعتهم وحملوا على رجال سعود حملة واحـــدة ، فقاتلهم المسلمون ببسالة وقتلوا منهم أكثر من عشرين قتيلاً ، بينهم تركي بن زيد ، الذي خلف أخاه في إمارة الدلم ، وعاد المنهزمون الى القلعة ، وانتدبوا واحداً منهم ليأخذ لهم الأمان من سعود ، فأعطاهم سعود الأمان ، ودفعوا اليه نقداً ثمن ما في بيوتهم ودورهم من الحيوانات والأمتعة والسلاح والطعام .. وجعل نخلها في بيت المـــال فيئاً ،

---

(١) و (٢) و (٣) ملخصة عن ابن غنام .

وأجلى عن البلاد كل الذين جدّوا في الفتنة واجتهدوا ، وبايع سائر الأهالي ، وسمى سعود عليهم أميراً : سليمان بن عفيصان [١] .

يدخلون في دين الله أفواجاً :

بعد استسلام الدلم وطاعتها ، أقبل أهل الحوطة وأهل اليمامة والسلمية وكافة أهـــل الخرج على سعود وبايعوا ، واشترط عليهم في النكال ما شاء من النقود فأحضروها اليه [٢] .

بعد كل هذه الفتن ، عاشت الخرج في سلام وولاء ، باستثناء محاولة قام بهـا آل بجادي في اليمامة سنة ١٢٠١ هـ. فقد أظهروا العداء للدعوة ، ثم تظاهروا بالتوبة لمـا افتضح أمرهم ، فطلب منهم سعود الذهاب الى الدرعية لمقابلة الشيخ وعبد العزيز ، فساروا الى الدرعية .. ولكنهم في منتصف طريقهم اليها هربوا الى الأحساء ، فأمر عبد العزيز بهدم محلتهم في اليمامة ، وجعل الرويس أميراً على البلدة ، وبنى فيها حصناً [٣] .

---

(١) و (٢) و (٣) ملخصة عن ابن غنام .

بلاد القصيم

في عام ١١٨٢ هـ.وقف عبدالعزيز حملاته على الرياض،وبدأ يفكر في الاستيلاء على القصيم ليزداد بهـا قوة ومنعة ، قبل استئنافه القتال مع خصميه العنيدين ابن دواس وابن زامل وغيرهما من أعداء الدعوة ..

غزو عنيزة :

يقول ابن بشر ان حمود الدريبي ، رئيس بلدة بريدة ، طلب عام ١١٨٢ من عبد العزيز أن يبعث جيوشه إلى القصيم لنصرة رجال الدعوة، فأرسل اليهم ابنه سعود بجموع المسلمين فنزلوا باب شارخ من عنيزة ، ونشب القتال بينهم وبين أهل البلد ، فقتل من أهل عنيزة ثمانية رجال ، وقتل من الغزو رجال .

وقدّر ابن غنام غزو المسلمين بمائة راكب فقط، وقال إنهم أظهروا في القتال من الشجاعة والإقدام ما بهر العقول ، وسقط منهم ثلاثة شهداء ، وقتلوا عشرة من خصومهم ، ثم عادوا إلى بلادهم .

وهكذا كانت عنيزة أول بلدة في القصيم غزاها جيش عبد العزيز ، ولكنها كانت كذلك آخر بلدة في القصيم استسلمت إليه !

معركة الهلالية وبيعة القصيم :

في عام ١١٨٣ هـ . سار عبد العزيز إلى حريملا ، وأقام فيهـا مدة وبعث إلى

بلدان الموحدين أن يخرجوا له (دولا) — أي مقاتلة — فأخرج أهل سدير والمحمل كثيراً من المقاتلين فسار بهم وبمن معه إلى الجمعة فأغار عليها وقتل عدداً من أهلها منهم أخو رئيس الجمعة، ثم صرف رجال سدير والمحمل إلى بلدانهم وسار بجيشه إلى «الهلالية»، فوصلها ليلاً، فأعدّ غزاته وهيأ كمينه، ثم أغار على البلدة صباحاً، فنهض أهلها لمقاومته ولكنهم عجزوا عن ذلك، فاستولى الموحدون على البلدة وأخذوا أموالها وقتلوا عدداً من رجالها، ثم نودي فيها بالأمان، وأقام فيها عبد العزيز أياماً، ليرى أثر المعركة في نفوس سكان القصيم، قال ابن غنام :

(فذلّ أهل القصيم كافة، وغشيهم أمر عظيم من المخافة، فرغبوا في الدخول في الإسلام، والإنقياد لمنير تلك الأحكام، وأقبلوا على عبد العزيز في تلك الأيام، فأخذ عليهم عقد الإبرام، ووضع عندهم معلمين للتوحيد والشرع والأحكام، وعاد عبد العزيز إلى الدرعية، ليقسم فيها الغنيمة بالسوية) .

غزو عريعر للقصيم .. وموته فجأة :

لم يكد عبدالعزيز يفرغ من فتح الرياض ويأخذ قسطاً من الراحة حتى فوجىء بزحف خطير يهدد أمن بلاده وسلامتها، وهو زحف عريعر بن دجين، صاحب الأحساء، الى القصيم في عام ١١٨٨ هـ .

وصل عريعر الى بريدة، وكانت هدفه الأول، فقد كان ناقماً عليها لانضوائها تحت راية الدعوة، بعد أن كانت خاضعة لنفوذ أمراء الأحساء .

جاءت مع عريعر جموع كبيرة من بني خالد وعنزة، ولكنه لم يشأ أن يبدأ بريدة القتال، وإنما أحب أن يأخذها بالمكر والحيلة، فنزل عند أسوارها وأرسل الى أميرها عبدالله بن حسن يطلب منه الخروج اليه للمفاوضة، فلما خرج اليه غدر به وأسره، ودخل البلدة على حين غفلة من أهلها وانتشرت بواديه بين دورها يحطمون أبوابها وينهبونها، ثم سلّمها الى أميرها السابق راشد الدريبي،

الذي كان سعود قد عزله ، وبذلك اضطر الموحدون من أهل بريدة الى الهرب منها والجلاء عنها ، وفي مقدمتهم آل عليّان ، فكاتبهم عبد العزيز واستقدمهم الى الدرعية وأسكنهم فيها مكرّمين معزّزين [1] .

يحاربون مع .. ابليس !

خرج عريعر من بريدة بجموعه الوفيرة ونزل أرض الخابية ، على مقربة من النبقية ، وأقام فيها قرابة شهر ، فكاتبه رجال من نجد وطلبوا منه المسير الى بلدانهم ووعدوه النصرة .

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن :

(ولما قيل لرجل منهم – أي من أهل نجد الذين ساعدوا عريعر – وهو من أمثل علمائهم وعقلائهم : كيف أشكل عليكم أمر عريعر وفساده وظلمه ، وأنتم تعينونه وتقاتلون معه ؟

قال : لو أن الذي حاربكم إبليس ، لكنا معه) .

موت عريعر فجأة :

يقول ابن بشر : إن وطأة عريعر اشتدت وخافه الناس (واستعد للمسير الى الدرعية وغيرها من البلدان ، فعاجله أمر الله سبحانه في موضعه ذلك في الخابية المذكورة ومات) .

ويقول مانجان : إن عريعر خرج من خيمته يوماً الى البر يتصيّد بالصقور ، فرأى أرنباً من بعيد فأصابه ، ولكن أحد رجاله أخذه لنفسه ، فأحضره عريعر اليه وقال له : لماذا أخذته ؟

قال : لأحضره اليك !

قال : أنت كاذب !

واستلّ عريعر سيفه وانهال على الرجل طعناً وضرباً بالسيف حتى قتله .

---

(١) انظر ابن غنام ومانجان وتاريخ الأحساء .

ولكنه مرض من الجهـــد الذي بذله في قتل الرجل ومات ، فكان ضحية قسوته وظلمه !

وهكذا كان موت عريعر نجاةً لنجـــد من كيده وغدره ، وخيبةً لآمال الأحزاب التي تعلقت به ، فقد اضطرت جيوشه الى التراجع والعودة الى الأحساء لا تلوي على شيء [1] .

استسلام بريدة :

في عام ١١٨٩ هـ. أمر عبد العزيز ابنه سعود بالسير الى بريدة ، فوصلها ليلاً وباغت أهلهـا بغارة شديدة ، فتحصنوا في منازلهم ، ولم يستطع سعود اقتحام البلدة مع طول حصاره لها ، فأمر ببناء حصن قريباً منها ، ووضع فيه مرابطة من رجاله وأمّر عليهم عبد الله بن حسن ، وعاد الى الدرعية .

وقـ فعل هذا الحصن فعله .. لأن رجاله كانوا يغيرون كل يوم على بريدة وينشرون الخوف والرعب بين أهلها ولا يدعون أحداً منهم يخرج لرعي سائمة .. وهكذا اضطر أمير بريدة الى الاستسلام ، فأرسل الى عبد الله بن حسن يعرض عليه الخروج من البلدة بشرط أن يعطيه الأمان على نفسه ، ففعل ودخل عبد الله بلدة بريدة واستولى على كل ما فيها من أموال ، وقتل خمسين من رجـــال راشد الدريبي أمير بريدة المنهزم وعاد هو الى إمارة البلد .

مبايعة القصيم :

أظهر أهل القصيم ، بعد استسلام بريدة ، رغبتهم في السلام والولاء ، فجاء وجوه أهل القصيم إلى عبد الله بن حسن وذهبوا معه إلى الدرعية وهنـاك بايعوا

---

(١) خلف عريعر في إمارة بني خالد والأحساء ابنه (بطين) ، وكان له أخوان ينافسانه، وهما : سعدون ودجين ، فحاول بطين استمالة الجنود والعامة اليه بأموال وزعها عليهم ، ولكن أخويه قتلاه خنقاً وخلفه دجين ، ولكنه مات بعد قليل ، وقيل : سمه سعدون وجلس مكانه .
(ابن بشر)

لعبد العزيز على الاسلام والسمع والطاعة ، فأقر عبد العزيز كل أمير في مكانه وجعل أميراً عليهم كلهم عبد الله بن حسن .

ثورة ... ومكاتبة سعدون :

استقرت الامور وساد السلام في القصيم سبع سنوات تقريباً،وفي عام ١١٩٦ تواطأت بلدان القصيم – باستثناء بريدة والرس والتنومة – على التمرد ، وكتب زعماؤها إلى سعدون بن عريعر أنهم مصممون على قتل رجال الدعوة الموجودين في بلدانهم ، وطلبوا منه الاسراع الى نجدتهم ، ففعل ..

بدأ أهل القصيم تنفيذ خطتهم من اللحظة التي اقترب فيها سعدون من ديارهم، فقام أهل الخبر بقتل منصور وثنيان أبا الخيل ، وأرسل أهل عنيزة فقيهين من فقهاء الدعوة كانا يعلمان الدين عندهم إلى سعدون فقتلها ، وفعلت بقية البلدان المتمردة مثل ذلك .

بطولة بريدة :

جاء سعدون بجموعه من بني خالد والظفير وبوادي عنزة الى القصيم ، ونزلوا عند بريدة وحاصروها ، وكانوا يظنون أنها ستقع في أيديهم بسهولة ويسر ، ولكن أهلها قاوموا الغزاة ببسالة وبطولة ،واستطاعوا إفناء الطليعة التي أرسلها سعدون لدخول البلدة .

قال ابن غنام : (... فاستشاط سعدون لذلك غضباً ، فحشد جموعه وهجم على البلدة ، فقـتِل من جماعته في أول يوم من أيام الهجوم أُناس ، فحاول في اليوم التالي تسوُّر جدار البلدة فقتِل جميع الذين صعدوا على السور وبقوا زمناً لا ينقلون ولا يدفنون من شدة القتال ، ثم نصب آلاته ومدافعه لهدم السور وبروج البلدة فلم يستطع أن ينال من ذلك شيئاً ، وكان في أثناء ذلك قد بنى قصراً وضع فيه عدة رجال من ذوي البأس ، فخرج المسلمون الى ذلك القصر ليلاً فهدموه وقتلوا من كان فيه .

اختراع حربي طريف وتراجع سعدون :

انقضت خمسة أشهر وسعدون ومن معه لم يبلغوا من غايتهم شيئاً ، فعزم سعدون على اقتحام البلدة فصنع تروساً من الخشب، كانوا يسمونها « عجلاً » تردّ الرصاص عمن فيها فلا يضره ، ثم حمل على البلدة حملة هائلة ، وصالت تلك الجموع وجالت ، وكانوا يساقون بالسيوف من أعقابهم لكيلا ينكصوا ويهربوا ، وهجموا على سور البلدة ومرقبها وبروجها يريدون الاستيلاء عليها ، فنشب بين الفريقين قتـــال شديد وقع فيه كثير من القتلى ، ثم شاء الله ألاّ يبلغ سعدون وجماعته ما أملوه ، وأن ينكصوا عن البلدة على أعقابهم خائبين .

الرجوع الى الطاعة :

بعـــد أن انتهت الحرب ، ورجع سعدون وجماعته إلى أوطانهم خائبين ، ضاقت الأرض بمن كان قـد ارتدّ ونقض العهد ، فلم يجدوا مفراً من الدخول في حوزة الاسلام ، فأقبلوا على حجيلان — أمير بريدة — يعطونه العهـد ويقرّون بالايمان ، فقبل منهم ذلك وأعطاهم الأمان ، بعد أن شرط عليهم الغرامة ، فأسرعوا اليه وحداناً ومجتمعين ووفدوا عليه بلداً بلداً ، ولم يتخلف منهم إلا أهل عنيزة [١] .

عنيزة :

في عام ١١٩٨ غزا سعود عنيزة ، ولكنه لم يستطع دخولها ، ويبدو أن عنيزة لم تدخل في طاعة عبد العزيز إلا عام ١٢٠٢ هـ . ففي ذلك العام غزاها سعود ودخلها وأجلى عنها رؤساءها آل رشيد وأمّر عليها عبد الله بن يحيى [٢].

---

(١) يضيف ابن غنام أن ركباً من أهل بريدة سار في أثر سعدون بعـد انسحابه ، فصادفوا جماعة من الرجال فنازلوهم وقتلوهم جميعاً وأخذوا ما معهم من الأموال ، وقد كان مع تلك الجماعة مال كثير لأناس من أهل المدينة، فأمر عبد العزيز بأدائه تاماً غير منقوص لأنه كان أوقافاً وأحباساً.

(٢) اسمه في رواية ابن غنام علي بن يحيى ، وفي رواية ابن بشر : عبد الله .

سدير وحرمة ومنيخ

شغلت سدير – أو بعض بلدانها – الدرعية وقتاً طويلاً بحروبهـا ومبايعتها ونكوثها .. ومن الصعب أن يعرف ، على وجه الدقة ، الزمن الذي دخلت فيه تلك المنطقة بكاملها في طاعة عبد العزيز ، فإن المؤرخين النجديين الكبيرين ابن غنام وابن بشر حين يذكران إن مقاطعة ، كسدير مثلاً ، خضعت وبايعت .. فكلامهما لا يعني قط خضوعها الكامل ، أي بكل بلدانها وقراها .

ومهما يكن الأمر ، فإن أول غزوة غزاهـا عبد العزيز إلى سدير كانت عام ١١٨١ ، وفي عام ١١٩٤ غزا الزلفي ، وربما كان هذا العام هو العام الذي يصح اعتباره سنة مبايعة سدير ، وإن كانت الأحزاب قـد استولت على الروضة عام ١١٩٦ لفترة غير طويلة .

ولما كان اسم « حرمة » يقترن كثيراً باسم سدير في المبايعة والردة والحرب رأينا أن نلخص وقائعها في فصل واحد .

غزوة العودة وجلاجل :

في عام ١١٨١ جهز عبد العزيز غزواً وأمر عليه ابن اخيه هذلول بن فيصل – وأشرك معه في الغزو ابنه سعود ، وتلك كانت أول غزوة يشارك فيهـا سعود – وأمره بالمسير إلى العودة ،فسار حتى بلغ البلدة ليلاً ، فأعد كميناً وأوصى رجاله بأن يدخلوا البلد ويستولوا على قلعتها متى خرج أهلها إلى القتال واشتبكوا

مع الغزاة ، وقد نهض رجال الكمين بعملهم على أكمل وجه ، فاستولوا على القلعة ، وبذلك سهل على جنود الموحدين الاستيلاء على البلدة ، وقـد سقط في المعارك عدد غير كبير من القتلى ثم نودي بالأمان .

غزو الزلفي :

في العام ١١٨٢ سار سعود بن عبد العزيز على رأس جيش من رجال الدرعية وأغار على بلدة الزلفي في سدير ، وقتل ثلاثة من رجالها ، ثم عاد إلى الدرعية .

وتلك أول غزوة تأمر فيها سعود ، أما غزوة العام السابق فكان فيها تابعاً لابن عمه هذلول .

وقد أطلق ابن بشر على سعود ، في أعقاب هذه الغزوة ، لقباً طريفاً ، هو: « السردال » ، وهي كلمة مستعملة في الجيش التركي بمعنى القائد — ولكنها في التركية تنتهي بحرف الراء لا اللام — سردار — قال : (هـذه الغزوة هي أول غزوة لسعود قاد فيها الجيوش إلى القتال،وصار« سردال » للفرسان والأبطال).

وفي العام ١١٨٨ بعد أن فرغ سعود من قتال الدلم ، توقف قليلاً في الحائر ، وهناك جهز سرية من الموحدين وأمر عليها (عدامة بن سويرى ، وأمره بالمسير إلى الزلفي وغزوهـا ، فسار اليها ، فإذا بركب من أهل الزلفي خارج من البلد فأغار عليهم وقتلهم ، وكانوا نحو العشرين) [١] .

بيعة المجمعة وحرمة :

وفي هـذه السنة — ١١٨٨ هـ . — قدم وفد من أهل حرمة والمجمعة على الدرعية وبايعوا ، ولكنهم اشترطوا إعفاءهم من الجهاد سنتين فقط .

بيعة أهل الحريق :

ووفـد على الدرعية في تلك السنة أيضاً محمد بن رشاد الهزاني ووجوه أهل الحريق وبايعوا .

---

(١) ابن غنام .

وفد منيخ والزلفي وأخو الشيخ :

وفي سنة ١١٩٠ هـ . قدم وفد من أهل منيخ والزلفي على الدرعية ، وكان معهم الشيخ سليمان بن عبد الوهاب ، أخو الشيخ محمد بن عبد الوهاب — وخصمه سابقاً — فأكرمه عبد العزيز والشيخ ووسعا عليه في النفقة فأقام في الدرعية مع عياله وأظهر من الصدق في خدمة الدعوة ما محا سيئاته السابقة [١] . ويقول ابن بشر إن مجيء سليمان كان بطلب من عبد العزيز والشيخ .

ويقول ابن غنام إن وفـد منيخ والزلفي قدموا « لتجديد عهد الإسلام » ، ولكنه لا يقول لنا متى كان نكوثهم بعهدهم ..

فتنة في حرمة .. وسدير :

في العام ١١٩١ بلغ عبد العزيز أن جمـاعة من سدير ومنيخ يستعدون للردة وقتل الموحدين ، فأمر أخاه عبد الله بن محمـد ، الجد الأعلى للأسرة المالكة السعودية ، بالسير اليهم ، فأتى (بلاد حرمة في الليل وهم هاجعون ، ففرق عبد الله رجالاً في بروج البلد ومواقفها التي تلي القلعـة ، وفي البروج التي تقابل بيبان القلعة ، والجموع في متارسها ، فلمـا انبلج الصبح ، أمر عبد الله على كل صاحب بندق يثورها ، فثوروا البنادق دفعـة واحدة ، فارتجت البلاد بأهلها وأسقط بعض الحوامل ، ففزعوا ، وإذا البـلاد قد ضبطت عليهم ، وليس لهم قدرة ولا مخرج ، فأرسلوا الى الأمير عبد الله يستخبرونه الخبر ، فقال : « لا بأس عليكم ولا خوف ، ولكن أميركم عثمان ذكر عنكم أشياء توجب المخالفـة وادّعى الحذر على نفسه منكم وعدم القدرة على إنفـاذ أمر الدين في بلدكم ، ولا يستقر له فيها قرار إلا برهائن رجال من كباركم ، نأخذهم معنا حتى تخضع رقاب السفهاء ويضرب الدين عندكم بجرانه » .

فلما رأى أهل البلد ذلك لم يكن لهم بد من الموافقة ، وطلب أربعـة رجال

---

(١) ابن غنام .

من آل مدلج رؤساء أهل البلد .. وخرج اليه هؤلاء الأربعـــة ورحل بهم الى الدرعية ، بعد أن بايع له أهل البلد) .

وقد أناخ الأمير عبد الله بن محمد، بعد خروجه من حرمة، في سدير، وأرسل الى أمير الحوطة وأمير العودة يطلبهما اليه وأخذهما معه الى الدرعية ، لأنه تحقق موالاتهما لأهل حرمة على ما هما به من نقض العهد، وأما سويد، صاحب جلاجل، وكانت له ممالأة لهؤلاء ، فتركه عبد الله خوفاً من خلل يقع في سدير .

الفتنة في حرمة والجمعة :

ويقول مؤرخا نجـــد : إن رؤساء سدير أجمعوا على الغدر بالموحدين ، ودعوة أهل كل بلد الى قتل مَن عندهم من الموحدين ، وتمهيداً لذلك أرسلوا الى كبار الموحدين المقيمين في المجمعـــة أن يأتوا الى « حرمة » للتعليم – ففيها متعلمون ومستمعة – فجاء الى حرمة كثير منهم ، ثم أرسلوا الى أمير حرمة ، وكان في نخل له ، يعلمونه بقدوم تلك الجماعة ، وكانوا ينوون البدء بقتله والتخلص منه ، فأعدّوا له ستة رجال يترصدونه ، فلما قدِم قتلوه .. ثم حبسوا كبار الموحدين كرهائن ، لقاء رهائنهم الذين ذهبوا مع الأمير عبد الله وحُبسوا في الدرعية، ثم ساروا الى المجمعة لقتل مَن فيها من الموحدين ، وإمساك قلعتها والتحصن فيها ، ولكن الموحدين كانوا قد سبقوهم الى القلعة ودافعوا عنها ولم يمكنوهم من اقتحامها، فرجع أهل حرمة الى بلدهم خائبين .

ويقول ابن بشر : إن أمير المجمعة ، حمد بن عثمان ، الممالىء لأصحاب الفتنة ، كان عند باب القلعة ، ومعه عدة رجال من أهل البلد ، فلما رأوا (جمع الرجال قد أقبل ومعهم عدة الحرب وأحسوا فيهم الشر، أغلقوا دونهم الأبواب، فجعلوا ينادون لابن عثمان، وهم خلف الباب، ليفتح لهم .. فأمسك الله على يده ولسانه) .

ولما بلغ عبد العزيز ما حدث في حرمة والمجمعة جهز ابنه سعود فسار بأهل العارض الى حرمة ، بينما تبعه مقاتلة من الوشم والمحمل الى منيخ ، وقـــد حاصر سعود حرمة أياماً ، ثم طلب أهلها منه المصالحة ، فصالحهم ، على أن يطلقوا

الأسرى الذين عنــدهم ، ويطلق هو أسراهم في الدرعية ، وقد قبِـل ذلك لأنه كان يخاف من رئيسي المجمعة وجلاجل نقض العهد .

ويقول ابن بشر : إن سعود عزل – بعد ذلك – رئيسي المجمعــة وجلاجل وأخرجهما من بلديهما واستعمل عبد الله بن جلاجل أميراً على بلدان سدير ومنيخ.

المعارك مع أهل حرمة وحلفائهم :

في سنة ١١٩٣ هـ. عزم أهل حرمة على رفع لواء العصيان ، ورأوا أنه لا بد لهم من الاستيلاء على « المجمعة »، لأن فيها عدداً غير قليل من الموحدين وعندهم مرابطة من جند عبد العزيز يتهددون سلامة حرمة وأمنها في كل حين، ولكنهم أدركوا عجزهم عن القيام بهذا العمل منفردين ، فكتبوا الى سعدون بن عريعر ، رئيس الأحساء وبني خـــالد ، يلتمسون منه النصرة ، واستدعوا أهل الزلفي للإنضمام اليهم فقبلوا وتواعدوا على يوم معلوم يهجمون به على المجمعة هجمة واحـــدة على حين غفلة من أهلها ، وقبيل موعد الهجوم بقليل ألبسوا (أناساً منهم ثياب النساء الغواني ، وأمروهم أن يسيروا الى المجمعة .. ويصعدوا الى بروج القلعة ، حتى يدهموا المسلمين في البلد ، ثم تكون لهم فيها منعة .. فلمـــا بادروا الى ذلك .. وصعدوا الى تلك البروج فأمسكوها .. تنبّه أهل المجمعة لكيد المعتدين) .

أقـــام مقاتلة حرمة وحلفاؤهم من أهل الزلفي ونصيرهم سعدون بجموعه الكبيرة محاصرين للمجمعة أياماً ، وأخذوا يقطعون النخيل ويفسدون الزروع ، وكاد أهل المجمعة يطلبون الصلح لولا أن مدداً جاءهم من الامام عبـــد العزيز ، وذلك أنه أرسل الى حسن بن مشاري بن سعود ، في بلد جلاجل، أن يجهز سرية لمناصرة المجمعة ، فسارت السرية ليلاً واستطاعت الوصول الى البلد من غير أن يفطن لها المحاصرون ، وكان أهل المجمعة متحصنين في قلعة البلد ، فألقوا لرجال السرية الحبال فتعلقوا بها وصعدوا الى القلعة سالمين .. ولما عرف سعدون وأهل حرمة والزلفي بوصول هــذه النجدة الجريئة الى المجمعة يئسوا من التغلب عليها

(وقد كانت ضاقت صدور البوادي من الحصار ومن حبسهم مواشيهم، فرحلوا عن الجمعة منصرفين ، ورجع أهل الزلفي الى بلادهم ، فاستقرت الحرب بين أهل المجمعة وأهل حرمة) .

عبد الله ينازل أهل حرمة :

بعد فك الحصار عن المجمعة ، جهز عبد العزيز أخاه عبد الله وأرسله لغزو حرمة ، فوقع بينه وبين أهلها قتال ، سقط فيه عدد من رجال حرمة قتلى ، كما قطع عدداً كبيراً من نخيل البلد ، ثم رجع عبد الله الى الدرعية .

سعود يدمر سور حرمة ويهجِّر متمرديها :

بعد عودة عبد الله ، خرج سعود واستنفر معه أهل البلدان ونزل على بلد حرمة وحاصرها أشد الحصار وقطع شيئاً من نخيلها وما زال يضيق على أهلها ويقاتلهم حتى ملأ الرعب قلوبهم ، فأرسلوا الى سعود يطلبون المصالحة فصالحهم (على ما في بطن الحلة من الأنفس والأموال) ، فلما استقر الصلح كتب إلى أبيه يخبره بذلك ، فكتب اليه عبد العزيز : (ان أهل هذه القرية تكرر منهم نقض العهد ، وهي محذور كلها ، فدمرها واهدمها) .

فأمر سعود بهدم سورها وبعض من بيوتها ، وأمر أيضاً على اناس من أهلها ممن أثار الشر على المسلمين أن يرتحلوا عنها ، فارتحل اناس كثيرون ونزلوا المجمعة وكثير منهم نزل بلد الزبير .

تلك رواية ابن بشر ، وأما ابن غنام فلا يشير اطلاقاً الى كتاب عبد العزيز ، ويقول ان أهل حرمة صالحوا وعاهدوا واشتروا من سعود (جميع ما في البيوت من الأموال والطعام .. فأمر بهـدم جميع القصور وإزالة ما فيها من الدور ، وبجلاء آل مدلج كافة) .

غزو الزلفي عام ١١٩٤ هـ . :

غزا سعود بالمسلمين بلدة الزلفي — في سدير — وكانوا قد أنذروا به فاستعدوا

له ، وجرى بينهم قتـــال سقط فيه بعض الرجال ، ثم رجع سعود بجنده إلى الدرعية .

وفي نفس العام غزا عبد الله بن محمد بلدة الزلفي أيضاً فلم ينل من أهلها منالاً فرجع عنهم .

ويقول ابن بشر ان المسلمين عادوا إلى غزو الزلفي وأشعلوا النار في زروعها، فبايـع أهلها على دين الله ورسوله والسمع والطاعة .

غزوة الأحزاب للروضة .. ثم استيلاء سعود عليها :

يقول ابن بشر في أخبار سنة ١١٩٦ هـ . ان سعدون بعد ارتحاله من بريدة سار ونزل قرب الزلفي (وأقام عليه أياماً واجتمع معـه أناس كثير من أهل الخرج وغيرهم ، ثم ارتحل ونزل « مبايض » الماء المعروف فأقام عليه وصار معه أناس كثيرون من جلوية البلدان من أهل حرمة وآل ماضي أهل الروضة وأهل الزلفي وزيد بن زامل بأهل الخرج وأقاموا أياماً على مبايض يديرون الرأي في أي بلد يسطون فيها من سدير فأجتمع رأيهم على السطوة في بلد « الروضة ».

فلما كان بعد عيد النحر من هذه السنة سار اليها آل ماضي ومن معهم من قبيلتهم وجماعتهم وسار معهم آل مدلج وغيرهم من أهل سدير والزلفي وسار معهم أيضاً زيد بن زامل ومن معه من أهل الدلم واهل الخرج ، فسار الجميع ليلاً وسطوا فيها قبيل الصبح واستولوا عليها ، وكان في الحصن الذي في وسط البلد جماعة مرابطة من جهة عبد العزيز من أهل العارض وغيرهم..فأنزلوهم من الحصن بالأمان ، وأخرجوهم من البلد .

ورحل سعدون من مبايض ونزل الروضة وأقام فيها حتى استقر فيهـا آل ماضي وضبطوها .. ثم رحل منها سعدون وتركها ، وتفرق أهل البلدان الذين سطوا معه فيها ، ومن ساعة رحل سعدون والرعب وقع في قلوب آل ماضي.. ثم صار أهل سدير يواقعونهم بالقتـال في كل وقت ، وأقبل امداد من العارض والمحمل وكثرت عليهم الوقائـع وضيقوا عليهم) ..

وخلال ذلك كان سعود نازلاً في (ثادق) فرحل منها وجاء إلى الروضة .. فاشتد على أهلها القتال، واستولى سعود على شطر كبير من النخيل وأخذ يقطع الأشجار وأنزل اهل البروج من بروجهم وبقيت قلعة البلد وحدها فأرسلوا إلى سعود وطلبوا المصالحة وبذلوا له كثيراً من الدراهم نكالاً ، فصالحهم على حقن الدماء وما في بطن الحلة من الأموال، وأن يرحل عن البلد:آل ماضي واعوانهم فاستولى سعود على البلد وأجلاهم عنها ، ومدة لبثهم فيها وحربهم شهر .

وكانت بلدة الداخلة في ذلك الحرب ملجأ لمقاتلة المسلمين [1] .

بيعة وادي الدواسر :

يقول ابن بشر ، في أخبـــار سنة ١١٩٩ هـ . ، أن رئيسي وادي الدواسر ، ربيع وبدن ، ابني زيد ، حضرا الى الدرعية ومعهما (رجال من رؤساء قومهما على الشيخ وعبد العزيز ، وبايعوا على دين الله ورسوله والسمع والطاعة) .

ويبدو أن هذه البيعة كانت قاصرة على هذين الزعيمين وفئة صغيرة معهما ، أما بيعة وادي الدواسر الاجتماعية فلم تتم إلا عام ١٢٠٢ هـ. (وذلك بعد محاولات ومقاتلات عديدة) .

هذا كل ما نجده في ابن بشر عن بيعة وادي الدواسر .

أما ابن غنام فيعطينا تفاصيل طريفة عن جهاد الأخوين ربيع وبدن في سبيل نشر الدعوة بين أبنـــاء الوادي . ومن المفارقات اللطيفة أن المؤرخ الفرنسي « مانجان » يورد لنا ، في شيء من الاختصار ، نفس الرواية التي نجدها في ابن

---

(١) تلك رواية ابن بشر ، ويقول ابن غنام ان سعدون حاصر الداخلة فلما بلغه ظهور سعود حصل له الرعب والارجاف وولى مدبراً .. وإن رجالاً من أهل الإيمان من سدير وغيرهم بادروا أهل الروضة القتال قبل مجيء سعود اليها وقتلوا من أهلها عدة رجال وحصروا الأهلين .. ولمـــا جاء سعود استولى على جميع الحلل التي كانت في النخل وشرع في قطع النخل والأشجار فطلب الأهلون الصلح وعاهدوا على الإسلام .. وأمر عليهم عبد الله بن عمر .

غنام ، مع أنه لم يأخذها عنه ، وها نحن نورد روايته ثم نتبعها بخلاصة وافية لأقوال ابن غنام .

رواية مانجان :

أخذ الأخوان ربيع وبدن ، بعد عودتهما من الدرعية ، يدعوان أهل وادي الدواسر الى اعتناق المذهب الحنبلي الوهابي ، فامتنع من ذلك وجهاء الوادي ، وجرى قتال بين الفريقين ، فتحصن الأخوان ومَن معهما في شبه حصن أقاماه في قرية « دام » ولم يستطع خصومهم اقتحامه ، ولذلك عمدوا الى إلقـاء حمار ميت في بئر الماء التي يستقي منها رجال الحصن ، فحفر أصحاب الحصن بئراً جديدة ، ثم أرسل ربيع الى خصومه يطلب الهدنة وأهدى الى زعيمهم فرساً ، فانعقدت الهدنة بينهما ، وخـلال ذلك طلب ربيع من الأمير عبد العزيز مؤناً وذخائر ، فأرسلها اليه فتقوّى بذلك وامتنع ، وعاد القتال بينه وبين خصومه مرة اخرى ، فصنع هؤلاء (مصفحتين) ووضعوا في كل منهما ثلاثين رجـلا ، وتقـدموا نحو الحصن ، ولكن إحدى المصفحتين تحطمت وتطايرت صفائحها وتكشفت عن الجند الذين فيها .. وبعد حصار طويل ومناوشات كثيرة اقترح المهاجمون على ربيع الخروج من حصنه بأمان، فقبل وخرج وذهب الى الدرعية، فأعطاه عبد العزيز مالاً وسلاحاً وذخيرة ، وأثنى عليه وشجعه، فعاد الى الوادي وأقام حصناً جديداً ، واستمر يقاتل الأهـالي حتى أتعبهم ، فلجأوا الى رئيس نجران يلتمسون منه العون والنصرة ، فأقبل اليهم وعـالج الحصن فلم يستطع اقتحامه.. ولذلك رأى زعماء الدواسر أن أفضل وسيلة لضمان سلامتهم وأمنهم هي الطاعة لعبد العزيز ، فخاطبوا في هذا الأمر « ربيعاً » فأشار عليهم بالذهاب الى الدرعية ، ففعلوا ، وهنـاك قدموا طاعتهم .. ولكنهم عادوا الى العصيان بعد ستة أشهر ، فسار اليهم أمير الخرج سليمان بن عفيصان ، وهزمهم ، فطلبوا الصلح ، وفرض عليهم عبد العزيز ألفي بندقية وألفي ريال .

خلاصة رواية ابن غنام :

في عام ١٢٠١ هـ . وفَدَ ربيع وبدن ، رئيسا الخاريم ، على الدرعية وبايعا ، ثم عادا الى الدواسر يدعوان بدعوة التوحيد ، فنفرت منها الجماهير وناصبتها العداء ، فبنيا لأنفسها ولمن تبعها قصراً منيعاً ، ثم جددا الدعوة وأحرقا شجرة كان يتعبّدها الأهالي ، فغضب الأهالي لمعبودهم وساروا الى القصر وحاصروا الأخوين وجماعة الموحدين ثلاثة أيام فلم ينالوا منهم منالاً ، فعمدوا الى إلقاء حمار ميت في بئر القصر ، ولكن أهل القصر حفروا لأنفسهم بئراً جديدة ، ثم أهدوا الى رئيس العصابة الثائرة فرساً فارتد عنهم بمن معه ، ثم أرسل ربيع الى عبد العزيز يخبره بما كان ويستنصره ، فأمدّه بمال وسلاح وزاد ، وكتب الى مبارك بن عبد الهادي أن يساعد ربيعاً ، فأسرع اليه ونزل في القصر ، فحاول جماعة « الخطاطبة » أن يبنوا قصراً أمام قصر ربيع ، ولكن جماعة ربيع حالوا دون ذلك ، فعمد الخطاطبة الى صنع « زحافات » من خشب ، في كل منها ثلاثون رجلاً ، وتقدموا نحو القصر فانكشفت إحدى الزحافات وقتل الموحدون تسعة من رجالها ، ثم أتبعوهم بسبعة آخرين ، وأخذوا منهم أسلحة ودروعاً ، ولما رأى أهل الوادي عجزهم عن الموحدين وتكاثر خسائرهم وضحاياهم ، طلبوا من الموحدين الخروج من القصر بأمان ، ففعلوا وذهبوا الى الدرعية ، فأحسن عبد العزيز وفادتهم وأكرمهم ، ثم عادوا الى الدواسر وبنوا قصراً جديداً يقابل قرية « تمرة » ، وراحوا يشنون الغارات منه على قرى الوادي ، فأذعنت لهم عشائر كثيرة وفي طليعتها (الحنابجة) ، ودخلوا في الدعوة ، ولذلك رأى رؤساء الدواسر المناهضون للدعوة ، وفي مقدمتهم رؤساء الرجبان والوداعين ، أنهم عاجزون عن الاستمرار في الكفاح ، فلجأوا الى رئيس نجران لإنجادهم ، فأقبل الى الوادي وقاتل جماعة الموحدين ، وأكثرهم من الحنابجة ، فأنزلوا به

خسائر فادحة ، واضطر الى التراجع والعودة الى بلاده مهزوماً ذليــلاً .. وكان نصر الموحدين عظيماً وكانت آثاره سريعة ، فجـــاء الرجبان وجميع الوداعين وبايعوا ، وتتابعت على ذلك القرى مُكرَهة ، ولكنهم عــادوا الى العصيان والفساد بعد ستة أشهر ، فكتب عبد العزيز الى سليمان بن عفيصان أن يجهز جيشاً لقتالهم ، ففعل ، (وقدم عليهم عجلاً ، ودام فيهم القتل والقتــال ، حتى انكأ أهل الضلال ، ونكد عليهم العيش والبال ، وضاق عليهم الحال .. فبعــد ذلك رغبوا في الإسلام ودانوا .. فقدموا الى الدرعية .. فعاهدوا عبـــد العزيز على الإسلام ، وشرط عليهم .. ألفي ريال وألفي أتفق .. أن تسلم في الحال .. فالتزموا بذلك ووفوا به وسلموه) .

الأحساء

(الأحساء .. ملك كثير الخير ، كالبصرة في كثرة الطعـــام والأشجار والأنهار ..

وفيه من الأرز شيء يكفي جزيرة العرب قاطبة ، ومن التمر كذلك . ولم يبسط الملك لآل سعود حتى أخذوا الأحساء .

.. وكل طائفـة هلكت بالقحط من أطراف مملكة آل سعود يأمرهم بالذهاب إلى الأحساء فترد حالهم في أقل الأيام ، وليس ذلك إلا من بركة فيها وحاصل كثير) .

لمع الشهاب

(.. وكان من العوامل التي أعانت سعود على الاستيلاء على الأحساء وغزو العراق الجنوبي : وجود الحمـــلة الفرنسية في مصر (١٧٩٨ — ١٨٠١) وانشغال الدولة العثمانية بمواجهتها) .

الدكتور رجب حراز (الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب)

الاحساء

لم تكن الأحساء ، حتى القرن الثالث عشر للهجرة ، معدودة من دولة نجد ، ولا خاضعة لأحد من أمراء نجـــد ، وقد نستطيع القول أن أمراء الأحساء والقطيف هم الذين كانت لهم السيطرة والصولة والجولة في كثير من البلدان النجدية ، وكان أمراء الأحساء ، وخصوصاً آل عريعر ، يقومون بغزوات كثيرة على القصيم وغيرها ويجدون من النجديين أنصاراً يساعدونهم على عدوانهم ، بسبب اختلافهم على الزعامات المحلية ، وقد رأينـا ، قبل ، كيف ألزم أمير الأحساء واحداً من أمراء نجد ، هو صاحب « العيينة » ، بقتل الشيخ محمـد بن عبد الوهاب أو نفيه من بلدته ، فنفذ أمره صاغراً .

ولعل الدرعية من بلدان نجد القلائل ، التي رفضت الخضوع الى أمراء الأحساء وقاومتهم وطردتهم عنها . ويذكر لنا ابن بشر في سابقة العام ١١٣٣ هـ . — وهو عام ولادة عبد العزيز بن محمد — أن سعدون بن محمد بن عريعر قضى فصل الصيف في نجد (وحجر الكثير في العارض كل فصل الصيف ، وأظهر المدافع من الأحساء ونزل عقربا المعروفة .. ثم سار الى الدرعية ، ونهب فيها بيوتاً في الظهيرة وملوى والسريحة ، وقتل أهل الدرعية من قومه قتلى كثيرة) .

التحدي الأول للأحساء :

في عام ١١٧٦ هـ . خرج من أرض نجـد رجل تحدّى أمير الأحساء في عقر

داره ، فغزا بلدين من بلدانه وقتل عدداً من رجاله وعاد سالماً الى وطنه ، هـذا الرجل هو : الأمير عبد العزيز بن محمد ، وكان ذلك في حياة أبيه .

كان هذا التحدي، في ذلك الوقت، أمراً عظيماً جداً ، ولكنه لم يكن يعني خطراً جسيماً يتهدد سلامة الأحساء، لأن احتمال خضوع الأحساء يومئذ للدرعية كان يشبه احتمال خضوع الضبع للغزال .

ولكن عبد العزيز أخذ يزداد كل يوم قوة ، بينما كان صاحب الأحساء يزداد كل يوم ضعفاً ، وفي أحسن حالاته يقف حيث هو .

التحدي الثاني :

وفي العام ١١٩٨ هـ . قـام سعود بن عبد العزيز بتحدي الأحساء مرة ثانية ، فأغار على (العيون) من قرى المبرز .

التفكير في الاستيلاء على الاحساء :

بعـد غارة العيون ، بدأ عبد العزيز يفكر في الاستيلاء على الاحساء ، وكان ميزان القوى قد تغير كثيراً لمصلحته ، وكان الخلاف قد دبّ بين زعماء الاحساء فكان ذلك فرصته الذهبية ، فيتخلص نهائياً من خطر أمراء الأحساء على بلاده وينتفع بموارد الاحساء العظيمة .

الدماء بين بني خالد :

قال صاحب اللمع : (إعلم أنه لما أراد الله ذهاب دولة الخوالد وضع الشقاق بينهم ، فصار كل من آل حميد يجر شعباً من القبيلة لنفسه ، ليقوى أمره فينـال الرئاسة ، ولم يكونوا كذلك من قبل بل كانوا جميعاً . وأول هـــذا التفرق أن عرعر بن دجين .. لما مات ولي بعهده ابنه بطين بن عرعر، فاختلف عليه اخوانه ومشائخ قبائل بني خالد ، وقـد قتلوه غيلة لأمور نقموا بها عليه ، فتولى بعده أخوه سعدون ، وحكم في بني خالد اثنتي عشرة سنة، وكانت شوكة آل سعود ،

حينئذ ، قد قويت في جميع بلدان نجـد ، من حضر وبدو ، فصارت قوتهم أول وهن دخل على بني خالد) .

ويقول ابن بشر في أخبار سنة ١٢٠٠ هـ . : (وفيها دبت بين بني خـالد الفتن واستحكمت في قلوبهم الشحناء والاحن .. فأراقوا بينهم الدماء .. وغدا بعضهم لبعض سالباً ولهلاكه مريداً وطالباً فأصبحت الأرض من أفعالهم تعج والخلق تجأر إلى الله وتضج ، وتدعو عليهم بالاذلال .

وفيهـا جرت وقعة « جضعة » بين بني خالد ، وذلك إن رؤساء المهاشير وآل صبيح اتفقوا مع عبد المحسن بن سرداح ودويحس بن عريعر على مقـاتلة « سعدون » رئيس بني خالد ، وأرسلوا إلى ثويني واستنجدوه واستنصروه .. فأقبل اليهم بجموعه وتنازلوا مع سعدون مدة أيام ، وقتل بينهما قتلى كثيرة وصارت الكرة على سعدون ومن معه فانهزموا ، واستولى دويحس في بني خالد والأمر والحل والعقد بيد عبد المحسن .

التجاء سعدون الى الدرعية :

هرب سعدون من الأحساء لا يلوي على شيء ، ثم بدا له أن يلجأ إلى حمى عبد العزيز ، صديق خصمه ثويني ، وفي هذا من الاحراج مـا فيه .. وهكذا سار إلى الدرعية ، ومعه عدد محدود من أنصاره ، فلما وصل إلى ظاهر البلدة ، أرسل إلى عبد العزيز يطلب منه قبوله ضيفاً ولاجئاً ، فأجابه عبد العزيز أنه متعاهد مع ثويني ، ولا يحب أن يؤوي اليه خصماً لثويني .. ولكن سعدون تجاهل هذا الرفض وتابع طريقه إلى الدرعية ، ودخلها ..

ويقول مانجان أن عبد العزيز حبس سعدون عنده ، ثم استشار الشيخ محمد ابن عبد الوهاب في أمره ، فقال له الشيخ : لا يجوز لك قتل هـذا الرجل ولا رفض ضيافته ، وقد ينفعك يوماً في الاستيلاء على الأحساء ، لأن له فيها أنصاراً.

ويقول ابن غنام إن عبد العزيز فوجيء بوصول سعدون وجماعته إلى الدرعية وهو في طريقه إلى صلاة الجمعـة ، فحصل له كثير من الكرب ، ثم أسر بذلك

الخبر إلى الشيخ ، فجلا عنه الشبه والأوهام ، وتلا عليه الآية الكريمة : ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ، والله قدير والله غفور رحيم ﴾ فسري عن عبد العزيز وتبين له وجه الحق .

قبل عبد العزيز التجاء سعدون اليه ، وكتب إلى ثويني يخبره بنزول سعدون عليه ، ويقول إن هذا لا يعني نقض العهد القائم بينهما لأنه لن يعين سعدون عليه ولن يدعه يفعل شيئاً يضره ..

لم يرض هـذا الكلام ثويني ، وأصرّ على اعتبار ذلك نقضاً للعهد وتحدياً ، أو أنه ادعى ذلك لغاية في نفسه ، وجدّ في التجهز للحرب [1] .

التمهيد للاستيلاء على الاحساء :

في سنة ١٢٠٢ هـ . ذهب سعود الى الدهناء وأقـام فيها ، يريد ان يتحسس ويتفحص الأخبار عن بني خالد .

وفي تلك السنة غزا سليمان بن عفيصان بلدة « الجشة » في الاحساء ، وقتل من أهلها رجالاً ، وغزا كذلك «العقير» ، فأخذ ما في الخان من الأموال وأحرق بيوت الجريد .

وفي سنة ١٢٠٣ هـ . سار سعود بجنود كثيرة الى الاحساء ، وكان بين جنوده

---

(١) لقد حارب سعدون الدرعية غير مرة ، وفي عـام ١١٩٢ هـ . طلب من عبد العزيز المصالحة فأجابه اليها ولكن سعدون ما لبث أن نقض الصلح ، وفي عام ١١٩٤ هـ . هجم سعدون على غزو لأهل سدير والوشم الموحدين وقتلهم وكان بين قتلاهم أميرا الغزو .. ثم أغار على النبطة ومعهم غزو لأهل ضرمى فقتل من الموحدين ثلاثين رجلا ، وفي العام ١١٩٦ هـ . غزا سعدون بريدة وحاصرها طويلا وعجز عنها ، كما غزا الروضة .. وهكذا نرى سجل سعدون حافلا بالعداء للدعوة ، ملطخاً بالدم .. ومع ذلك قبل التجاؤه ..

أما سبب ثورة عبد المحسن على سعدون ، فهو أن سعدون كان يخشى من الشيخ عبد المحسن آل عبيد الله ، خال داحس ومحمد ، أخو سعدون لأبيه ، أن ينازعه الرئاسة أو يدفع اليها أحد أخويه المذكورين ، فصمم على قتله .. وعلم عبد المحسن بذلك فهرب مع داحس ومحمد سراً إلى العراق واستنصرا الشيخ ثويني ..

عدد من عربان بني خالد الذين جلوا الى الدرعية ، فالتقى بقاتلة لعبد المحسن ودويحس ، وجرت بينهم مناوشة قصيرة ، ثم انصرف سعود راجعاً . ويعلل ابن غنام سبب إسراعه في العودة بأنه علم أن جماعة من جنوده ، وهم من بني خالد ، أضمروا الخيانة . ويقول صاحب اللمع أن رجال سعود هم الذين كانوا يقاتلون فكان أكثر القتلى منهم .

عاد سعود من الدرعية الى الاحساء مرة اخرى برجاله المخلصين وحدهم ، فسار الى المبرز ورمى أهلها بالبنادق ثم سار الى قرية « زالفضول » (فأخذها وقتل من أهلها نحو ثلاثمائة) .

تحريض الشريف غالب :

ويقول صاحب «اللمع» : إن الشريف غالب (كتب لعبد المحسن يرغبه في حرب آل سعود ، وقد بذل له شيئاً من المال نقداً ، وأعطاه بيده خمسين عبداً من عبادلة السند والاغوان « الأفغان » ، لأنه لا يمكنه توصيله – أي المال – الى عبد المحسن بغير ذلك ، لإحاطة ملك آل سعود بجميع أرض بني خالد براً وبحراً ، وجعل معهم اثنين من خدامه لأجل التوصيل ، وقال : إستعن بهذا على حرب عبد العزيز واغزه من تلك الأطراف التي تليكم ، لئلا تقوى شوكته فيميل عليكم ميلة واحدة ، وهاأنذا أمشي عليه من جهة الحجاز ، فأجابه عبد المحسن لما قال ..) .

ويقال إن عبد العزيز عرض على سعدون أن يجهزه بجيش الى الاحساء ، ولكن سعدون مات قبل ذلك .

سعود يقاتل عبد المحسن ويؤمر زيد بن عريعر :

وفي عام ١٢٠٤ هـ . سار سعود الى الاحساء بجنود كثيرة ، وسار معه عدد كبير من بوادي الظفير والعارض وجلوية بني خالد ، وكان على رأسهم زيد بن عريعر ، الذي أصبح زعيماً عليهم ومرشح الدرعية لإمارة بني خالد والاحساء بعد النصر ..

إلتقت جموع سعود بجموع بني خالد في « غريميل » ، فهزمهم سعود هزيمة منكرة وغنم منهم مالاً كثيراً، وقتل عدداً كبيراً جداً ولم ينجُ منهم إلا القليل، وهرب بعض رؤسائهم الى قطر والزبارة ، منهم عبـــد المحسن وعيال عريعر .
ويقول ابن غنام إن سعود أراد من زيد بن عريعر ، بعد انقضاء معركة غريميل، أن يسير معه (إلى الاحساء حتى يقيم فيها علم التوحيد والدين .. فأبى عن ذلك وتعلل ..) فعاد سعود إلى الدرعية .

ويقول ابن بشر: إن بني خالد كانوا يحاربون تحت قيادة عبدالمحسن ودويحس، فهربا الى المنتفق ، فاستعمل سعود (زيد بن عريعر في بني خـــالد أميراً ، فاجتمعوا عليه) .

مقتل عبد المحسن :

ذكر ابن بشر في أخبار سنة ١٢٠٦ هـ . أن زيد بن عريعر،بعد توليه الإمارة على الأحساء ، كتب هو وأخوته إلى عبـد المحسن بن سرداح ، الذي هرب إلى المنتفق وبذلوا له الصداقة والأمان وأمنوه ووعدوه ، حتى أتى اليهم واجتمع بهم ، فقتلوه في مجلسهم .

مسير سعود الى القطيف :

في سنة ١٢٠٦ هـ . سار سعود إلى القطيف ، فنازل بلدة « سيهات » واقتحم أسوارها ودخلها وقتل من أهلها ألفا وخمسمائة رجل واستولى على جميع ما فيها من الأموال التي لا تعد ولا توصف .

ثم سار إلى « القديح » واستولى على أموالها .

ثم استولى على« العوامية »وغيرها من القرى ، ثم ذهب بعد ذلك إلى الفرضة وحاصرها ، فبذل له أهلها ثلاثة آلاف زر ، فرفع سعود عنهم الحصار ورجع إلى الدرعية .

ويقول ابن بشر إن أهل الفرضة صالحوا سعود على ٥٠٠ أحمر ، وان سعود دخل (عنك) ونهبها وقتل من أهلها ٤٠٠ .

ثورة في الأحساء :

في سنة ١٢٠٧ هـ . ثار بنو خالد على رئيسهم زيد بن عريعر واخوته وجميع آل عريعر ، لأنهم قتلوا عبد المحسن آل سرداح ، وحالفوا الدرعية .

وقد نصّب الثائرون براك بن عبد المحسن أميراً على بني خالد ، فلم يمض على ولايته غير قليل حتى أخذ يشن الغارات على جماعات من البدو كسبيع وغيرهم ليظهر قوته ..

عبد العزيز يقاتل بني خالد :

كانت ولاية براك وأعماله الاستفزازية تحدياً ظاهراً للدرعية ،فأمر عبد العزيز ابنه سعود أن يسير إلى قتال بني خالد .

ويقول ابن غنام إن سعود ، بعد وصوله إلى الأحساء ، عرف إن بني خالد نازلون على ماء اللصافة ، فسأل رؤساء جنده : هل يتبعهم ، أم ينتهز فرصة غيابهم فيقتحم بلدانهم وأهلهم ومحلاتهم ؟. فأشاروا بأن يقتحم محلاتهم، ولكنه آثر تتبعهم ومبارزتهم ، فسار إلى اللصافة فوجدهم قد غادروها ، فأدرك أنهم سيعودون اليها أو إلى المياه القريبة منها ، فلما عادوا برز اليهم المسلمون فقاتلوهم وقتلوا منهم ستمائة رجل في حملة واحدة ، ويقدر ابن بشر جملة القتلى من بني خالد بين ألف وألفين ، وقد انهزم براك بن عبد المحسن بقليل من رجاله ولجأوا إلى المنتفق ، واستولى سعود على أموالهم ومتاعهم ومائتين من خيلهم .

ويسمي ابن بشر هذه الوقعة باسم وقعة « الشيط »،وهو موضع في اللصافة .

وقد كان لهذه الموقعة أثر بليغ في نفوس سكان الأحساء فمالوا إلى الاستسلام والطاعة للدرعية .

سعود يدعو أهل الأحساء الى الطاعة :

سار سعود بعد ذلك إلى « الطف » على ماء الردينيات [1] ونزلها ، وأقام

---

(١) في ابن بشر الردينية ، ولكن مؤلف تاريخ الأحساء ضبطها هكذا : « الردينيات » .

فيها أياماً ، وكتب إلى أهل الأحساء رسائل يدعوهم فيها إلى الدخول في الإسلام والطاعة والانقياد .

سعود يدخل الاحساء بدعوة من أهلها :

يقول ابن غنام أن رسل أهل الاحساء (قدمت على سعود في منتصف شعبان سنة ١٢٠٧ هـ . ومعهم كتابهم يدعونه فيه للقدوم عليهم ، فسار اليهم في أول رمضان ، فنزل قرب « عين نجم » ، فخرج اليه أهـــل الاحساء وعاهدوه على الإسلام والطاعة ، فأقالهم من الجهـاد أعواماً ، ترغيباً لهم في البقاء على الإسلام وتألفاً لقلوبهم .

ثم أمر بهدم جميع ما في البلاد من أماكن البدع والزيغ والأهواء والضلال، وإزالة القبـاب التي على القبور .. وأمر كذلك بإقامة شعائر التوحيد وإبطال ما خالف الشرع من الأحكام والمواظبة على إظهار الصلوات في المساجد ومعاقبة كل متخلف عنها ، وأبطل جميع أنواع الربا والعقود الفاسدة والمظالم والعشور والامكاس .

وأمر كذلك بنشر العلم وإحيائه بالمذاكرة ، والتدريس على جميع المذاهب الأربعة، والتجرد في تفهم التوحيد ، وأقام الأئمة في المساجد والعلماء في المدارس وأقرّ الاحباس والسبل .

ثم أشار على سعود كثير من أهل البلاد بأن يبني له حصناً .. فوافق بعـد تردُّد ، واجتمع رأي أهل المشورة أن يكون موقعه مكان بيوت آل حميد وما حولهـا ، فهدمت تلك البيوت وأمر بأن تدفع قيمة كل بيت الى صاحب البيت حتى لا يضيع ملكه) .

ويذكر ابن بشر أن سعود استعمل على الاحساء أميراً : محمد الحملي ، وجعل على بيت المال حسين بن سبيت ، وأن العلماء الذين أقامهم في الاحساء لتعليم الدين هم : عبدالله بن فاضل وابراهيم بن حسن بن عيدان ومحمد بن سليمان وحمد بن حسين ابن حمد بن حسين .

أهل الاحساء ينقضون عهدهم :

ارتحل سعود من الاحساء وقصد قرية « نطاع » ، ماء في الطف ، وأقام فيها نحو شهر ، فأتته الأخبار أن أهل الاحساء نقضوا العهد .. وقتلوا المسلمين الذين أقامهم سعود عندهم دعاةً وهداةً ومعلمين ، وكان جملة مَن قُتل نحو ثلاثين رجلاً) [1] .

استشار سعود أهل الرأي في العودة الى الاحساء لمعاقبة الثائرين ، فأشاروا عليه بالعودة الى نجد لاستكمال العدّة والعدد ، فعاد الى الدرعية .

الاستيلاء على شمالي الاحساء وهرب ابن عريعر :

قال ابن غنام : (في سنة ١٢٠٨ هـ . سار سعود بالمسلمين يريد حصار الاحساء وتدميرها ، وعقـاب مَن فيها من الفجار والمرتدين الذين قتلوا دعاة المسلمين ومعلمي التوحيد فيها، وكان زيد بن عريعر وإخوانه وجماعته نازلين في الكويت حين ثار أهل الاحساء ، فسار بجماعته الى الاحساء وبقي فيهـا يستعد مع أهلها لقتال أهل الإسلام ، فلما كان آخر المحرم نزل سعود على قرية الشقيف، من قرى الشمال في الاحساء ، وكان فيها ستمائة رجل ، فأحدق بها المسلمون واحتدم القتال بين الفريقين يومين وقُتل من أهل البلدة عدة رجال ، وشرع المسلمون في قطع النخل، وفي الليلة الثالثة هرب أهل الشقيف الى قرى القرين والمطيرفي والمبرز ، فأرسل سعود جماعة من المسلمين الى قرية الشقيف فوجدوها خالية ، فأخذوا ما وجدوا فيها من الأموال .

ثم اجتمع أهل قرى الشمال في القرين ، فحاصرهم المسلمون وحاصروا كذلك أهل المطيرفي، فلما طال عليهم الحصار طلبوا (أي أهل قرى الشمال) من سعود المصالحة فصالحهم على نصف الأموال ، ثم أمر أهل القرين بالجلاء عن بلدتهم فارتحلوا .

---

(١) انظر ابن بشر ، الذي يقول أن أهل الأحساء قتلوا الأمير الحلي وصاحب بيت المال .

فلما تمّ للمسلمين النصر على أهل الشمال ، سار بعض جيش المسلمين إلى المبرز فخرج أهلها إلى لقائهم ، ومعهم زيد بن عريعر واخوانه وجماعته ، فاقتتلوا ، وقتل من أهل الضلال غدير بن عمر وحمود بن غرمول ، وعاد زيد وجماعته إلى بلدة المبرز .

وبعد أيام أعاد المسلمون الكرة ، ولكن لم يقتل أحد .

فلما عرف المسلمون حال أهل المبرز عمدوا إلى استدراجهم بالحيلة ، وذلك بأن يتراجع المسلمون ويتبعهم أهل البلدة ومن انضم اليهم فيكشفهم المسلمون ويكرون عليهم ، وقد كان ذلك ، فاجتمع على المسلمين عدد كبير من أهل الأحساء كادت أن تنخلع قلوب المسلمين لمرآه لولا أن ثبتهم الله ، فصدقوا الحملة وهزموهم بعد ان قاتلوهم أياماً وقتلوا منهم نحو مائة وعشرين رجلاً ، وانهزم زيد بن عريعر إلى بلدان الشرق [1] .

وبعد أيام سار المسلمون إلى بلاد ابن بطال [2] فقاتلوهم أهلها وقتلوا منهم عدة رجال وغنموا ما فيها من الأمتعة والحيوان والطعام .

ثم سارت جموع المسلمين إلى الشرق وقاتلوا أهل الجبيل وقتلوا منهم رجالاً .

بيعة براك وأهل الأحساء :

كان الأعراب وأهل البوادي ممن كان مع سعود في تلك الأثناء يدمرون ويقطعون النخيل ، حتى اشتد الضيق على اهل الأحساء ، فأتى براك بن عبدالمحسن إلى سعود وأنبأه ان اهل الأحساء يريدون الدخول في الدين ويلتزمون بجميع الأحكام ، فطلب منه سعود ان يخرجوا اليه بأنفسهم ، فاستعان براك بكبار اهل التوحيد فقاموا معه وأعانوه ، واستقر الرأي بين براك واهل الأحساء على ان يذهب اليهم براك – بعد ارتحال سعود إلى نجد – ويبايعوه على الإسلام

---

(١) ويسمي ابن بشر هذه المعركة : وقعة محيرس .

(٢) البطالية .

ويخرجوا زيد بن عريعر واخوته وينفوهم، فارتحل سعود حين ألح عليه اخوانه وقالوا له : عسى ان يكون هذا سبباً لهم في الإيمان .

نقض العهد :

فلما ارتحل سعود وزال عن اهل الحساء الحصار والرعب نكثوا بوعدهم لبراك حين عـــاد اليهم يطلب منهم الوفاء بما عاهدوا عليه وثار بينهم الخلاف والشقاق ، فانصرف عنهم براك وخرج الى البادية ، ثم كرّ عليهم بخيله ، وانضم اليه جماعة من اهل الدين من السياسب ، واجتمعوا في (الجشة) واجتمع اولاد عريعر واعوانه واهل المبرز واهل الهفوف في بلدة (الجفر) ، وكانوا من الكثرة بحيث لا يضبطهم الحصر ، فاحتدم بينهم القتال ، وقتل منهم عدة رجال ، حتى استطاع براك ان يستولي على الهفوف ، فهرب دويحس وماجد اولاد عريعر ، ودخل براك المبرز في اليوم التالي ، وعاهده أهل الهفوف والمبرز على الإسلام ، فأقام شرائع الدين في الأحساء ، وكتب الى عبد العزيز يعلمه بما تم ، فكتب اليه عبد العزيز ان يبذل في الدين جهده .

زوال ولاية آل حميد :

قـــال ابن بشر : (.. وتولى براك في الأحساء ودخل اهل الهفوف وجميع اهل الأحساء في طاعته وصار نائباً لعبد العزيز في الأحساء سامعاً مطيعاً وبزوال ولاية زيد عن الأحساء زالت ولاية آل حميد المستقلة لهم في الأحساء والقطيف ونواحيها ، لأن ولاية براك هذه كانت لعبد العزيز بن محمد بن سعود، فكما اتفق أول ولايتهم لتلك النواحي بلفظ(طغى الماء)اتفق تاريخ زوالهم بلفظ (وغار) فحصل الطباق البديعي[1] .

---

(١) البيتان اللذان أشار اليها ابن بشر هما :

(رأيت البـــدو آل حميد لما تولوا أحدثوا في الخط ظلمـــا
أتى تاريخهم لمـــا تولوا كفانا الله شرهمو « طغى الما »)

البيتان قيلا في أول ولايتهم ، وأما البيت الذي قيل في زوال ولايتهم ، فهو :

(وتاريخ الزوال أتى طبـــاقاً وغار إذا انتهى الأجل المسمى)

فتنة الاحساء الكبرى :

لم تستقر الامور في الاحساء مدة طويلة ، فقد أخذت عناصر الفساد والفتنة تتجمع وتحاول نقض العهد وخلع الطاعة ومحاربة رجال الدعوة ، ولما بلغ ذلك الإمام عبـد العزيز بعث الرسل والكتب الى براك بن عبد المحسن يدعوه الى قمع الفتنة وطرد رؤسائها وإجلائهم عن البلاد والسهر على إقامة شعائر الدين، ولكن براك أجاب أنه عـــاجز عن طرد المفسدين لقوتهم وأنه يخشى ان يثوروا عليه فتكون الفتنة بهم أعظم .

ويبدو أن أول من حرّض على التمرد رجل يدعى (صالح النجار) استطاع ان يستميل اليه جمـــاعة كابن عفالق والجبيلي وابن حمد وغيرهم ، وكان يدبر المؤامرات ليلاً ويتظاهر في النهار بأنه من جماعة المسلمين .

ويقول ابن بشر: إن هؤلاء الجماعة – مع رجال من رؤساء الاحساء، وبراك نفسه كان ممالئاً لهم – (أجمعوا على نقض عهد المسلمين ومحاربتهم ، وتبين أمرهم وأظهروه ، ثم أرادوا من السياسب موافقتهم فأبوا عليهم وقاتلوهم وامتنعوا ، ثم إن السياسب أرسلوا الى عبد العزيز يستنجدونه ويستحثونه ، فبعث اليهم ابن عفيصان في جيش طليعة امام ابنه سعود ، فلما أتاهم البشير قويت قلوبهم وثبتوا). ويقول ابن غنام أن رئيس السياسب سيف آل سعدون دعا اليه رجال عشيرته الذين كانوا ممالئين لأصحاب الفتنة وحذرهم مغبـة أعمالهم ، فارعووا وعادوا الى حظيرة الحق فأصبحت السياسب صفاً واحداً، أما زعيم الفتنة صالح النجار فاجتمع عنـــده السفهاء والأراذل من الرفعة والنعاثل وغيرهم من سفلة القبـائل ، وأجمعوا رأيهم على ان يقتل كل فريق منهم المسلمين الموحدين الذين يقيمون بينهم ، وبدأ صالح النجار فقتل عبد الله بن حسن من الموحدين وجرح ابن كثير ، ثم نهض مع جمـــاعته الى السياسب ، فعجزوا عنهم ، فأرسلوا الى

البلدان الشرقية يطلبون المدد ، وكان أهل المبرز مع السياسب وكان معهم كذلك فريق من العتبان رئيسهم مهوس بن شقير ، فقام صالح وجماعته بمحاربتهم ، ولكنه أدرك أن التغلب عليهم مستحيل وأن هزيمته آتية لا ريب فيها ، فأرسل الى رئيس العتبان يطلب منه الأمان ، ففعل .

ثم وصل ابن عفيصان ، ومعه جنوده الشجعان على مائتي مطيـة ، فقتلوا من المتآمرين ستين رجلاً ، أكثرهم من أهل الجبيل ، وهرب رؤساؤهم الحملي والحبابي وابن عفالق الى قصر علي بن حمد .

وسار ابن عفيصان الى قرية « العمران » وحاصرها ، وفي خلال ذلك طلب رؤساء المتآمرين منه الأمان على أن يجلو عن البلاد ، فأجابهم الى طلبهم ، وذهبوا الى العقير ثم الزبارة .

ويقول ابن بشر : (تزبن ابن عفالق والحبابي على ابن حمد فحاصرهم ابن عفيصان ومن معه مدة أيام وضيق عليهم ، فطلب ابن عفالق والحملي والحبابي الأمان وأن يسيروا الى عبد العزيز ، فأذن لهم وساروا اليه في الدرعية) .

سعود في الاحساء :

كانت فتنـــة الاحساء في شهر رمضان من سنة (١٢١٠ هـ) ، وفي شهر ذي القعدة من هذه السنة خرج سعود من الدرعية ، وعرج على (شقرا) حيث توافد اليه كثير من المقاتلة ، ثم سار الى الاحساء فنزل قريباً من مزارعها المعروفة باسم (الرقيقة) [1] وقضى هناك ليلته (وأمر مناديه ينادي في المسلمين أن يوقد كل رجل ناراً وأن يثوروا البنادق عند طلوع الشمس ، فلما أصبح الصباح رحل سعود بعد صلاة الصبح ، فلما استووا على ركائبهم ثوروا بنادقهم دفعة واحدة ، فأظلمت السماء وأرجفت الأرض وثار عج الدخان في الجو وأسقط كثير من النساء

---

(١) في تاريخ الاحساء : الرقيقة تقع في الجهة الجنوبية من الهفوف .. تحول اليها كثير من سكان الهفوف وبنوا فيها البيوت الجميلة .. هواؤها جيد وماؤها عذب فرات .

الحوامل في الاحساء . ثم نزل سعود في الرقيقة المذكورة ، فسلم له ، وظهر عليه جميع أهل الاحساء على إحسانه وإساءته ، وأمرهم بالخروج اليه فخرجوا فأقام في ذلك المنزل مدة أشهر يقتل من أراد قتله ويجلي من أراد جلاءه ويحبس من أراد حبسه، ويأخذ من الأموال، ويهدم من المحال، ويبني ثغوراً ويهدم دوراً ، وضرب عليهم الوفا من الدراهم وقبضها منهم ، وذلك لما تكرر منهم من نقض العهد ومنابذة المسلمين وجرّهم الأعداء عليهم ، وأكثر سعود فيهم القتل ، فكان مع ناجم بن دهينيم عدة من الرجال يتخطفون في الأسواق أهل الفسوق ونقاض العهد ، وكان أكثر القتل في ذلك اليوم من المسلمين في الاحساء بالتلنقية والسوادية المجتمعة على الفسوق ، الذين فعلهم في الاحساء بأهوائهم كلما أرادوه فعلوه، ولا يتجاسر أحد يأمرهم او ينهاهم لكثرة تعديهم، فهذا مقتول في البلد، وهذا يخرجونه الى الخيام يضرب عنقه عند خيمة سعود ، حتى أفناهم إلا قليلاً.

وحاز سعود من الأموال في تلك الغزوة ما لا يُعدّ ولا يُحصى .

فلما أراد سعود الرحيل من الاحساء ، أمسك عدة رجال من رؤساء أهله ، منهم علي بن حمد وآل عمران وبريكان ومحمد حسن العدساني ، القضاة ، ورجال كثير غيرهم ، وظهر بهم الى الدرعية وأسكنهم فيها .

واستعمل في الاحساء (ناجم المذكور ، وهو رجل من عامتهم) .

قصة القطيف :

لا يذكر ابن بشر شيئاً عن معارك القطيف ولا ندري سر هذا الإهمال .

ويقول صاحب اللمع أن سعود ، بعد أن أتم إخضاع الاحساء ، باستثناء القسم الشرقي منها والقطيف ، رجع الى الاحساء مرة ثانية ، وقاتل صاحب بلاد الشرق (علي بن حمد) ، واقتحم عدداً من قراه ، فدخل على قلعة صغيرة وتحصن فيها مع أبناء عمومته ومائة مقاتل ، فحاصرهم سعود ورماهم بالمدافع وهدم طرفاً من بنيان القلعة ، ولما رأى علي الخطر المحدق به ، طلب الأمان ، فأمنوه .

وأرسل عبد العزيز بعــد ذلك جيشاً الى القطيف ، بقيادة ابن عفيصان ، وعدده ثمانية آلاف مقاتل ، وكان على القطيف عبد الله بن سليمان الخالدي ، وعنده جيش كبير في القلعة ، فاستشار كبير الرعايا ، أحمــد بن غانم القطيفي ، في الخطة الصالحة الواجب سلوكها أمام الموحدين، بعد هلاك بني خالد ، وأوضح له أن مقاتلته قلائل ، وأنه يخشى أن يخرج من القلعة فلا تضبط ، ويخشى كذلك أن يبقى فيها فيحصرها الموحدون وليس عنده مدد ، وكل محصور مأسور .

فأجابه ابن غانم : (اخرج وقاتله ولا تخشَ على القلعة) .

فخرج عبدالله بن سليمان وحارب حرباً شديدة فيمكان يقال له «الجارودية» ، يبعد عن القطيف ثلاث ساعات ، وقاوم اثني عشر يوماً ، ثم انهزم وهرب الى الصحراء ثم الى تاروت ، حيث تحصن في قلعتها مع نفر من رجاله .

ولما بلغ خبر ابن سليمان الى أحمد بن غانم ، حصن نفسه وجماعته في القلعة ، فجاء ابن عفيصان وطلب من أحمــد تسليم القلعة ، فرضي بذلك ، ولكنه خاف من جنود المهاشير الذين كانوا معه في القلعــة ، فاقتحم ابن عفيصان القلعة عنوة واستولى على القطيف وقتل كثيراً من أهلها ، وأما أحمد بن غانم وآل غانم الذين يبلغ عددهم ٤٠٠ فلم يمسهم أحد بسوء .

ثم أرسل ابن عفيصان فرقة من رجاله الى تاروت فعجزوا عنها ، فكتب الى عبــد العزيز ، فأجابه : سأرسل اليك مدداً قوياً من صالح الدوسري ، ففوض اليه البلد واخرج بنفسك الى عدو الله ورسوله ولا تقبل منه صرفاً ولا عدلاً .

وقد استطاع ابن عفيصان الاستيلاء على تاروت و كتب الى عبدالعزيز بالفتح، فكتب اليه عبد العزيز : أقبل الى الدرعية واجعل على القطيف أحمد بن غانم .

الحملات العراقية ضد نجد

سنة ١٢٠١ هـ .

ثويني يغزو القصيم :

في أول سنة ١٢٠١ هـ . سار ثويني برجال المنتفق ، ومن تبعهم من أهل الزبير وبوادي شمر وطي وغيرهم ، وقصد القصيم ، وكان عدد مقاتلته كبيراً جدا ، وكانت أسلحتهم ومؤنهم موفورة . ويقول ابن غنام : إن جيوش ثويني ما كان (يحصي عدتها إلا عالم الأسرار .. حافة بتلك المدافع والقنابل الكبار ، التي لا يقوم عندها حصن ولا جدار ، ولا يثبت عند رؤيتها قلوب الصغار والكبار) . ويقدر ابن بشر زهبة البنادق والمدافع وآلاتها في حملة ثويني هذه بسبعمائة حمل .

معركة التنومة :

نزل ثويني بجموعه أولاً عند قرية التنومة ، وحاصرها ، ورماها بالمدافع أياماً ، ثم استولى عليها . ويقول ابن بشر : إن استيلاء ثويني على التنومة كان عنوة ، وإنه (استأصل أهلها قتلاً ونهباً ، قتل جميع أهلها إلا الشريد ، قيل : إن الذي قتل فيها مائة وسبعون رجلاً) .

أما ابن غنام فيقول : إن الاستيلاء على التنومة تمّ صلحاً بالمكر والخديعة ، وإن أهل التنومة قاوموا الغزاة ببسالة نادرة ، والتحفوا القمص والأكفان وصمموا

على الشهادة متطلعين الى ما عند الله من الجنان ، فلما عجز ثويني عن اقتحام قلعة البلدة بمدافعه الكبار والصغار، أرسل الى رجال القلعة بالأمان (وزين لهم النزول عن ذلك المكان ، والخروج الى سائر الأوطان .. وكان الواسطة بينهم عثمان حمد .. فرضوا بذلك .. ولما استقر ذلك الأمان بينهم ، دخلوا عليهم القلعة سريعاً ، فعجلوا للمسلمين حينهم ، وقتلوا غالب من وجد ، ولم ينجُ إلا من هرب وُفقد ، ونهبت تلك القرية) .

حصار بريدة :

سار ثويني ، بعد فراغه من التنومة، الى بريدة . ويقول ابن غنام : إن مقام ثويني عند بريدة كان قصيراً جدا، وإنه ناوش أهلها الحرب من بعيد، ثم ارتجف من الخوف والرعب ، فانهزم وعاد أدراجه مسرعاً الى البصرة .

وفي اعتقادنا ، ان رواية ابن غنام عن حصار كل من التنومة وبريدة غير دقيقة ، فلا يعقل أن يعجز ثويني عن قرية صغيرة مثل التنومة او يتخلى عن حصار بريدة ولما يمضِ عليه إلا أيام قلائل ، وهو الذي قطع من أجلها المسافات الشاسعة وجهز الجيوش الكبيرة وأنفق الأموال وقاسى الأهوال ، لمجرد .. أنه « ارتجف من الخوف » !..

الواقع ان لعودة ثويني الى بلاده أسباباً اخرى ذكرها ابن بشر وابن عيسى، فالأول يقول إن ثويني نازل بريدة (وحصل بينه وبين أهلها بعض القتال، فبينما هو محاصرها أتاه الخبر بأنه وقع في أوطانه ، بعد ظهوره ، بعض الخلل، فارتحل منها راجعاً) . ويوضح لنا ابن عيسى ما أشار اليه ابن بشر تلميحاً فيقول : إن الخبر الذي بلغ ثويني هو أن (سليمان باشا ، والي بغداد، عزله عن رئاسة المنتفق وولى مكانه حمود بن ثامر) .

خيبة ابن سرداح :

كان رئيس بني خالد ، عبد المحسن بن سرداح ، قد أقبل من الأحساء لمساعدة ثويني ومقاسمته النصر والغنيمة ، فبلغه وهو في طريقه اليه ارتحاله وعودته إلى

البصرة ، فعاد من حيث أتى ، ومات بعض رجاله من الظمأ [١] .

متابعة مؤخرة ثويني :

يقول ابن غنام إن أهل بريدة ، بعد انسحاب ثويني، خرج منهم سبعة رجال ولحقوا بمؤخرة ثويني ، لعلهم يصيبون غنماً ، ولكن فرسان ثويني أسرعوا اليهم وقتلوهم ، وإن الأمير سعود جدّ هو أيضاً في أثر ثويني ، فأدرك أسلافاً من شمر. كبيرهم ابن جدى .. فقتل المسلمون منهم رجالاً .. وأخذوا ما عندهم من اثاث وأمتعة وزلال وغنم وآبال ، ورجعوا بأحسن الآمال » .

مصير ثويني والتجاؤه الى الدرعية :

يتتبع ابن بشر أخبار ثويني ، بعد عودته إلى العراق ، فيقول انه نزل بلد الزبير ، فجاء اليه متسلم البصرة للسلام عليه ، فحبسه وأخذ خيله ، وركب ساعته إلى البصرة ودخل السرايا وضبطها واستولى على البلدة ، ثم طلب من أعيانها أن يكتبوا إلى السلطان ليكون أميراً وباشا في بغداد .. فأرسلوا كتاباً بذلك مع مفتي البصرة إلى السلطان العثماني في استانبول ، فلما قرأ السلطان الكتاب عرضة على وزرائه ، فقالوا له : هذا اعرابي متغلب .. فغضب السلطان وطرد المفتي ..

ولما علم والي بغداد ما كان من ثويني ، سار اليه وقاتله ، فانهزم ثويني هزيمة منكرة ، وهرب بمن بقي معه إلى « الجهراء » قرب الكويت ، ثم إلى ديرة بني خالد في الصمان .

وفي عام ١٢٠٤ هـ . ، كما يقول ابن بشر ، سار حمود بن ثامر ، شيخ المنتفق الجديد إلى ثويني وأخذ محله وخيامه وقتل عدداً من رجاله .. فهرب ثويني وقصد إلى بني خالد الذين ساعدهم في محنتهم فلم يحسنوا وفادته .

ولم يرَ ثويني بعد ذلك كله ملجأ له إلا الدرعية ،التي أراد بها الشر غير مرة، فقصدها ونزلها ، فأكرمه عبد العزيز كثيراً وأعطاه مالاً وخيلاً وابلاً ..

(١) ابن غنام .

وفي (تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد) لإبراهيم بن صالح بن عيسى ، إن ثويني ومن معه ساروا من الكويت « لقتال حمود بن ثامر ، فالتقوا به في البرجسية بالقرب من بلد الزبير ، وحصل بينهم قتال عظيم وصارت الهزيمة على ثويني واتباعه وقتل منهم عدد كبير ، وانهزم ثويني ومعه عدة رجال إلى الدرعية » ..

وفي (تاريخ الكويت السياسي) لحسين خلف الشيخ خزعل ، إن ثويني غادر الدرعية وتوجه إلى الكويت وحل ضيفاً على أميرها الشيخ عبد الله الصباح وعرض عليه ما كان يدور في خلده من أمر ابن اخيه الشيخ حمود بن ثامر ، فأشار عليه الشيخ عبد الله الصباح بالذهاب إلى بغداد لطلب العفو من الوزير سليمان باشا ، والي بغداد ، فقبل ثويني نصحه وانصاع لرأيه السديد » .

سنة ١٢١١ هـ .

ثويني يقود حملة كبيرة على الدرعية ..

ولكن رجلاً مغموراً يقتله وترجع الحملة بالخزي :

أثار استيلاء عبد العزيز على الأحساء غضب السلطان العثماني ، الذي كان حريصاً على استبقاء هذه المقاطعة الغنية ضمن ممتلكاته ، فكتب الى والي بغداد يأمره بتجهيز حملة لمحاربة الدرعية واسترداد الاحساء ، ولكن والي بغداد سليمان باشا اصطنع الأعذار الملفقة لتأخير موعد هذه الحملة، فأعاد السلطان الطلب مرة ثانية ثم ثالثة ، فأذعن الوالي أخيراً لأمر السلطان ، خوفاً على نفسه من العزل والانتقام .

وقد يتساءل أحدنا عن السر في التجاء السلطان العثماني الى واليه وصبره عليه، بينما كان يجب عليه أن يأخذ هو زمام المبادرة ويتحرك فوراً بجيوشه القوية .. والجواب هو: إن البلاد العثمانية كانت تعاني الشيء الكثير من الأخطار الداخلية والخارجية ، فقد حاربتها روسيا والنمسا ، ثم تبعتها فرنسا فدخلت جيوشها بقيادة نابوليون بونابارت مصر .. وإلى جانب هذه الاعتداءات الأجنبية قامت

الفتن في بعض المنـــاطق العثمانية المأهولة بعناصر غير تركية .. وكل ذلك أضعف هيبة السلطان وسلطته وقوته ، وسلبه مقدرته على التحرك .

جهز سليمان باشا (عام ١٢١١ هـ .) حملة كبيرة لمحاربة نجد ، اختار لقيادتها الشيخ ثويني ، الذي عرض نفسه على الوالي والتمس منه أن يعيـــده الى مشيخة المنتفق ويكل اليه حرب نجد ، فيضمن له .. استرداد الاحساء وتهديم الدرعية.

رواية ابن غنام .. ومناقشتها :

يقول ابن غنام : إن أعداء الدعوة ، من علماء وغيرهم ، هم الذين طلبوا من والي بغداد تجهيز الحملة ، وهم الذين نصحوا له باختيار ثويني قائداً لها ، لما عُرف عنه من الشجاعة والسطوة ، خلال وقائعه المشهورة في القصيم وغيرها .. فعمل الوالي بنصحهم واستدعى ثويني اليه وسأله رأيه في حرب نجـد ، فأجابه ثويني أنه مستعد لحربها وتدمير عاصمتها الدرعية ،فولاه قيادة الحملة وأعاده الى مشيخة المنتفق ، وعزل حمود بن ثامر عنها .

ويبدو لنا أن رواية ابن غنام تنطوي على خطأين :

الخطأ الأول — قوله أن الحملة طلبها العلماء من الوالي كأنها مسألة دينيـة ، والحقيقة هي أن الحملة تمت بأمر السلطان لاعتبارات سياسية ومالية .

ويتبين لنا هذا الأمر بوضوح من قراءة كتب التاريخ العثماني ، التي صوّرت لنا غضب السلطان الشديد من ضيـــاع الاحساء ومواردها ، فكتب الى الوالي يأمره باستردادها قبل أن يتحرك أعداء الدعوة .

الخطأ الثاني — قوله أن الوالي استدعى ثويني اليه بناءً على نصيحة العلماء .. والحقيقة هي أن ثويني هو الذي عرض نفسه على الوالي .

يقول مؤلف « دوحة الوزراء » إن استيلاء عبد العزيز على الأحساء وقتله أكثر من مائتي رجل من أهلها ثم استيلاءه على القطيف والعجير ومـا جاورهما وإلحاقها بالقطيف ، واقطاعها لأتباعه وأنصاره ، هذه الأمور كلها (أزعجت الشيخ ثويني وأغضبته ، فاستأذن للخروج واسترداد هذه البلاد من الوهابيين ، وقد وافقت الحكومة على ذلك) .

وهكذا يشير المؤرخ في رفق إلى أن ثويني هو الذي طلب من الوالي أن يأذن له بمحاربة النجديين .. ولكن ابن بشر أكثر جزماً وصراحة في إظهار موقف ثويني وتطرحه على الوالي ، فقد ذكر في تاريخه ان ثويني بعد رجوعه من الدرعية إلى العراق ، (رمى بنفسه على سليمان باشا ، وأقام عنده مدة وهو يحاول صاحب العراق أن يوليه على المنتفق ثم يسير الى نجد ويخربها ويقتل أهلها فوافق على ذلك صاحب العراق..وجعله والياً على المنتفق وعزل حمود بن ثامر).

حشود الثويني :

قضى ثويني أربعة أشهر أو أكثر في اعداد الحملة ، وقد أسميناها الحملة « العراقية » لأن رجالها كانوا من حاضرة العراق وباديتها ، وإن كان الآمر بها سلطان الترك ..

سار ثويني من المنتفق الى البصرة ، فاستقبل فيها استقبال الملوك ، وتبارى العلماء والشعراء في القاء الخطب والقصائد بين يديه ، وفي هذا « الجو » الحماسي ضم ثويني إلى جيشه المؤلف من عربان المنتفق رجالاً من البصرة والزبير وبوادي الظفير وكذلك بوادي بني خالد وكان على رأس هؤلاء « براك بن عبد المحسن » الذي كان تولى امارة الأحساء لعبد العزيز ثم هرب منها،واقيم غيره أميراً عليها.

ويقول مؤلف الدوحة ان والي بغداد أوعز إلى متسلم البصرة أن يسند ثويني (بما عنده من العساكر النظامية ومن الرماة البلوج والمدفعية ، وكذلك ارسلت اليه الدولةالعثمانيةأحد اغوات بيروت المسمىأحمد آغا الحجازي زادة لمعاونته).

ويقول ابن بشر ان بني خالد ساروا كلهم مع ثويني ما عدا المهاشير ، وان ثويني نزل على ماء « الجهراء » قرب الكويت (فأقام عليها نحو ثلاثة اشهر وهو يجمع البوادي والعساكر والمدافع وجميع آلات الحرب من البارود والرصاص والطعام وغير ذلك مما يعجز عنه الحصر . وركب عساكر أيضاً في السفن من البصرة ومعهم الميرة تباريه في البحر ، وقصدوا ناحية القطيف ، واتفقت له قوة هائلة) ...

حشود نجد لمواجهة ثويني :

يصف لنا ابن غنام بأسلوبه المسجع قوة ثويني العظيمة، وجموعه التي ضاقت « منها الأودية والفجاج والوهود .. والقنابل والقنابر والمدافع التي أصواتها كالرعود » ، ثم يقول : (لما تحقق عبد العزيز الخبر عن الثويني .. رفع يديه لمولاه .. ودعاه : يا من.. يكشف السوء عن المكروبين .. أكفنا بحولك وقوتك المعتدين .. وشتت شملهم أجمعين) .

ثم .. أمر عبد العزيز سعوداً والمسلمين بالتجهز والخروج لمناضلة المبطلين ، وأرسل الى البلاد كافة ، دانيها وقاصيها، يأمرهم بالتجهز ، فلبوا دعوته وبادروا الى الطاعة وخرجوا للجهاد .

— لكن هذه المحنة فضحت كثيراً من الناس لم يستطيعوا الصبر على البلاء ، فزين لهم الشيطان أن يرتدوا فنقضوا العهد — .

خرج سعود بجموعه في النصف الأول من شوال سنة ١٢١١ هـ . ، وأرسل فريقاً من جيشه وأمَّر عليهم محمد بن معيقل وسيَّره حتى نزل بطرف الصمان ، ولما علموا أن جيش ثويني يريد أن يسبقهم الى (الطف) حثوا السير اليه فسبقوه ونزلوا عليه . وأقام سعود في (الحفر) زمناً ، يكاتب قبائل الاعراب وفرق الإسلام وبلدانه وجميع من دان بالتوحيد من أهل الجنوب والشمال، يطلب منهم النصرة والعون ، فتتابعت عليه الامداد ، فكان كلما جاءته جماعة أرسلهم الى (الطف) ليلحقوا بجيش المسلمين هناك ، حتى اجتمع من الخلق ما لا يكاد يحيط به الحصر .

تلك رواية ابن غنام ، وهي تردّ الى سعود وحده إمارة الجيش منذ اللحظة الاولى . وأما ابن بشر فيقرر لنا أن عبد العزيز استعمل ابن معيقل أميراً على أهل الخرج والفرع ووادي الدواسر والافلاج والوشم وسدير والقصيم وجبل شمر ، وأنه نزل بجيوشه (الطف) في ديرة بني خالد . وأما سعود فقد خرج بعد ذلك بأهل العارض واستلحق غزواً من البلدان ونزل (التنهات) ، الروضة المعروفة عند الدهناء ، ثم رحل عنها الى الحفر ، الماء المعروف بحفر العتك .

ويضيف ابن بشر إلى ذلك أن عبد العزيز أمر أيضاً ما لديه من البوادي من مطير وسبيع والعجمان والسهول وغيرهم من بوادي نجـــد يحشدون بأهاليهم ومواشيهم ويقصدون ديرة بني خالد ويتفرقون في أمواهها وينزلون ويثبتون في وجه هؤلاء الجنود ، ففعلوا ما أمروا به .

تحركات الجيشين :

سار ثويني بجموعه من الجهراء الى الاحساء قاصداً الطف ، حيث تجمعت فرق نجدية يقودها ابن معيقل ، فلما بلغ هذا الأمير مسير ثويني نحوه تراجع بجنوده عن الطف وانحاز الى ام ربيعـــة وجودة، ثم تحرك ثويني بجنوده ونزل (الشباك) ، موقع ماء ، فوقع شيء من الوهن في صفوف النجديين ، ولكن الجيشين لم يلتحما في قتال سافر ، وبقيا مدة طويلة يتفاديان المعركة الحاسمة ، وربما استطعنا تقدير هذه المدة بأربعة أشهر او نحو ذلك ، كانت شبه هدنة غير معلنة ، ولذلك استطاع بعض مقاتلة نجد خوض معـــارك جانبية مع قوم من (العمائر) في القطيف ، وأعراب من شهران ، ثم سار بعضهم الى جزيرة العمائر، خائضين اليها البحر بخيولهم ، ولعل هذه الغزوة العجيبة أول غزوة برية بحرية يخوضها رجال نجد[1] !

---

(١) لخص ابن غنام الثلاث الغزوات التي قام بها رجال الدعوة ضد العمائر وعرب شهران ، قال :

١ – غزا ابن معيقل مع جيش من أهل الأحساء والمهاشير وأهل نجد وقصدوا جزيرة العمائر فلما اجتازوا اليها الصحراء وبدت لهم الجزيرة ، خاضوا اليها البحر ، ولم يغز المسلمون قبل هذه الغزوة في البحر ، وخاضت معهم بعض الخيل ، فلما وصلوا ساحل الجزيرة أغاروا على أهلهـــا فقتلوا منهم عدة رجال وأخذ المسلمون ما بها من الأموال .

٢ – أرسل سعود رسلاً نحو القطيف، ومعهم ركب آل مرة، فوجدوا هناك قوماً من العمائر فأخذوهم على غرة وقتلوا منهم خمسة وعشرين رجلا وأخذوا سلاحهم .

٣ – سار ربيع بن زيد ، أمير وادي الواسر ، يريد جهة الحجاز ، فأغار على فريق يقال لهم أبو البؤس ، من اعراب شهران ، فهزمهم وقتل منهم نحو خمسين رجلا وأخذ المسلمون جميع الحلة والغنم والابل .

مقتل ثويني وزوال الغمة :

يقول ابن بشر ان مجرد نزول ثويني بجيوشه على (الشباك) أوقع الخلل في بوادي المسلمين ، ولم يكن قد بدأ قتالاً بعد ، ولكن الله سبحانه « أراد الفرج بعد الشدة والقصر بعد اليأس ، فتسلط على ثويني عبد اسمه (طعيس) فقتله ، وكان هذا العبد فارق براك بن عبد المحسن ، حين نقض العهد ، فأتى إلى بوادي المسلمين وغزا مع ركب جيش منهم .. فوافقه أناس من قوم ثويني ، وأخذوا الركب والعبد .. وصار مع بني خالد عند براك ، فصمم عزمه على قتل ثويني وكان قد أظهر ذلك عند بعض من حضره ، وهم يستهزئون به ،فحين نزل ثويني الشباك المذكور وجلس مجلسه .. أقبل العبد من خلفه فطعنه بين كتفيه طعنة واحدة ليست نافذة ، ولكن الله جعل فيهـا حتفه ، وقتل العبد من ساعته ، وحمل ثويني إلى الخيمة حيث مات ، وجعلوا أخاه ناصراً أميراً مكانه »[1] .

رواية مانجان عن القاتل :

يقول مانجان ان العبد طعيس كان لجأ مع جماعة من أهل الأحساء المتمسكين بعقيدتهم الى الدرعية ، وخدم عبد العزيز ، ثم انضم إلى جيش الأمير سعود ،ثم خرج واستأسر لفريق من بوادي الظفير ، وبهـذه الوسيلة استطاع الوصول الى معسكر ثويني ، فترصد له حتى رماه في مجلسه بحربة في صدره كان فيها هلاكه وقـد استل ثويني قبيل موته سيفه وضرب به قاتله ضربة ، ثم أجهز عليه الحاضرون ..

---

(١) يقول ابن غنام ان مقتل ثويني وهزيمة جيشه وقعا عام ١٢١١ هـ . والصحيح أنهما وقعا عام ١٢١٢ ، وفي ابن غنام ان طعيس كان من جماعة براك بن عبد المحسن وان بنى خالد هددوا براك بالأسر والاعتقال إذا لم ينضم إلى ثويني ، ففعل خوفاً..بينما هرب جماعة من رجاله المخلصين لعقيدتهم ومنهم طعيس إلى الدرعية ، وان طعيس – كما في رواية مانجان – غزا مع مناع أبا رجلين فأسره رجال من الظفير كانوا مع جيش ثويني وأخذوه معهم ..

رواية الدوحة :

وفي دوحة الوزراء : (بينما كان ثويني جالساً في خيمته الكائنة قرب خيمة محمد عريعر ، دخل عليه رجل عربي أسود ، وبيده حربة حديدية ، وهتف : « الله أكبر » ، ثم قذف بها على صدره فسحقته ، وخرج رأسها من ظهره ومات على الأثر .

أما القاتل فقد تجمعوا عليه وقتلوه حالاً ، ولم يعرف هل هو من أتباع عبد العزيز الوهابي ، او أنه من جماعة شيوخ بني خالد .

أما محمد العريعر وبراك فقد كان كل منهما يطمع بالاستيلاء على الأحساء وجعلها تحت حكمه . ومهما قيل في هذه الحادثة فإنها قلبت الخطة رأساً على عقب ، وسببت عودة هذه القوات من حيث أتت ، وفيما هم في طريق عودتهم هجم عليهم الوهابيون وأوقعوا بهم قتلاً وفتكاً ذريعاً ، أما اخوان الشيخ ثويني وعشائر المنتفق فقد القوا ما بأيديهم من المدافع واكتفوا بإنقاذ عوائلهم وأنفسهم وفروا إلى ديارهم . وأما العسكر البلوجي فقد وقع الوهابيون به ضرباً وأسراً واستولوا على ما معه من المدافع والعتاد وغير ذلك وذهبوا بها غنيمة باردة الى الدرعية .

لقد وصلت أخبار هذه الحادثة الى بغداد سنة ١٢١٢ هـ . فكان وقعها شديداً ..) .

رواية بريدجس :

ويزعم (بريدجس) أن الأمير سعود كان على علم سابق بنيّة طعيس وعزيمته ، لأنه تقدم بجيشه نحو الغزاة فور وقوع القتل .

ولم يذكر بريدجس المصدر الذي نقل عنه ، ولا يمكن بناء حكم تاريخي على مجرد التوهم .

والأرجح عندنا ، ان كان يمكن الترجيح بين (وهمين) ان يكون براك هو الذي شجع العبد على فعلته ، وإن كان التفسير الأمثل هو أن العبد إنما أقدم على فعلته نصراً لدينه .

بيعة طعيس ذهبت مثلاً :

وقـــد أصبح عمل طعيس ، أي إقدامه الجريء على قتل ثويني في ظروف لا يرجو فيها لنفسه خلاصاً من القتل والتمثيل، مثلاً يُضرَب . قال مؤلف تاريخ الاحساء : (وبهذا يعرف معنى المثل العـامي ، فيقولون للرجل المغامر : بايع بيعة طعيس ، يعني اندفع اندفاع طعيس في قتل ثويني) .

انحياز براك وأثره في هزيمة المعتدين :

لم يكن مصرع ثويني وحده سبب هزيمة جيوشه المريعة، فقد كانت تستطيع التماسك ومتابعة القتال او حفظ شرفها على الأقل ، فهناك عنصر يجب ألا يغفل كان له أثره في تخاذل المعتدين ، وهو انحياز براك برجاله الى جيش المسلمين بعد مقتل ثويني . ويقول ابن غنـام : إن براك كتب الى كل من عبد العزيز وسعود أن انضمامه الى ثويني لم يكن برضائه وإنمـا أكره عليه وأنه سيتحين الفرص للحوق بالمسلمين .

ويقول ابن بشر : إن براك ندم على متابعته لثويني ، وعرف أن ثويني — إن استولى على الاحساء — لن يؤثر على أولاد عريعر أحدا .

ويقول مانجان : إن الأمير سعود كان كتب الى براك أن ينضم اليه في قتال ثويني ، فأجابه : الأفضل أن أكون مع ثويني ، ثم أنسحب من معسكره عند احتدام المعركة ، وبذلك تقع الفوضى في صفوفه .. فالهزيمة .

وقد نفذ براك وعده فور مقتل ثويني ، فانحاز هو وجمـاعته الى الجيش الإسلامي الذي كان يقوده حسن بن مشارى ، فأوقع ذلك الرعب والهلع في رجال ثويني ، فلاذوا بالهرب وتخففوا من أحمالهم الثقيلة كالمدافع ونحوهـا ، ولكن جنود عبد العزيز تبعوهم وغنموا منهم غنائم هائلة .

النصر المؤزر بعد مصرع ثويني :

تحول الخطر الداهم بمصرع ثويني وما تبعه من انحياز براك ، الى نصر مؤزر للمسلمين، كانت له رنة فرح في نجد وعند رجال الدعوة في كل مكان، بينما استقبله

خصوم الدعوة بالوجوم والهلع والحزن . ويقدّر ابن غنام ما أخذه المسلمون من رجال ثويني بمائة ألف رأس من الغنم وثلاثة آلاف من الإبل وغير ذلك. ويقول ابن بشر : (كان قتل ثويني رابع المحرم أول سنة ١٢١٢ ، وسميت هذه الوقعة « سجية » ، فلما فرغ سعود من قسمة الغنائم سار ونزل شمال الاحساء وخرج اليه أهلها وبايعوه على دين الله ورسوله والسمع والطاعة، وقدم فيه وأخر، ونهى وأمر ، وأخذ من الأموال ما لا يحصر) .

مصرع ثويني في « المقامات » :

يتخذ الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ مصرع ثويني دليلاً من جملة الأدلة على رعاية الله تعالى للمسلمين في نجد ، فقال في إحدى مقاماته : (.. وأما وزير العراق فسار مراراً عديدة بما يقدر عليه من الجنود والكيد الشديد ، وأجرى الله عليهم من الذل ما لا يخطر ببال قبل أن يقع بهم ما وقع ، من ذلك أن ثويني في مرة من المرات مشى بجنوده الى الاحساء ، بعد ما دخل أهلها في الإسلام في حال حداثتهم بالشرك والضلال ، فلما قرب من تلك البلاد أتاه رجل مسكين لا يعرف ، من غير ممالأة لأحد من المسلمين ، فقتله ، فمات ، فنصر الله هذا الدين برجل لا يعرف ، وذلك مما به يعتبر ، فانفلّت تلك الجنود وتركوا ما معهم من المواشي والأموال خوفاً من المسلمين ورعباً ، فغنمها من حضر، وقد قال الشيخ حسين بن غنام في ذلك :

تقاسمتم الأحساء قبل منالها
فللروم شطر والبوادي لها شطر) [1]

---

(١) هذا البيت من قصيدة طويلة لابن غنام ، يقول فيها أيضاً :

تلألأ نور الحق وانصدع الفجر ... وديجور ليل الشرك مزقه الطهر
لقد أقبلوا ، والأرض ترجف منهمو ... وقد أدبروا ، يقفوهم الذل والصغر
رمى الله أحزاب الضلال كما رمى ... ذوي الفيل إذ أعياه عن مكة الحصر

انصاف ثويني :

لم يكن ثويني موفقاً في مسيره الأخير الى الاحساء، ولكننا لا نستطيع أن نجرده من كل فضل سابق بسبب هذه الفعلة . يقول ابن سند :

(في سنة ١٢١٢ هـ . قتل « الشقي طعيس » ثويني بن عبد الله بن مانع القرشي الهاشمي العلوي الشبيبي ، فمات غريباً شهيداً .. فحُمل ودُفن في جزيرة العماير ، وعند ذلك سقط في أيدي الجيوش التي معه وانفلّوا راجعين ، فتبعهم جيش ابن سعود ، ومـا زالوا معه في مكابدة الشدائد حتى نزلوا مـاء يسمى « سفوان » ، فأمل اخوان ثويني أن يلمّوا الجيش مرة ثانية ويعودوا لغزو الوهابيين كما كان في نيّة ثويني ، إلا أن الباشا صرف نظرهم عن هذا الفكر) .

ونحن لسنا مع ابن سند حين يصف طعيس بأنه شقي ويصف ثويني بأنه شهيد ، ولكننا معه حين يمتدح ثويني لأنه حارب العجم ، الذين احتلوا البصرة مرتين وارتكبوا فيها من الفظائع ما يعجز عنه الوصف .. ووفقه الله في التغلب عليهم مرتين [١] .

الحملة العراقية الثانية بقيادة الكيخيا علي [٢] :

كان لهزيمة الحملة العراقية الأولى على نجد ، بعد مصرع قائدها ثويني ، أثر سيء جداً في نفس والي بغداد ، فأرسل إلى السلطان العثماني تقريراً يذكر فيه أسباب اخفاق الحملة ووعد بتسيير حملة جديدة أقوى منها تحقق النصر المنشود .

---

(١) وفي (تاريخ الكويت السياسي) ان سليمان باشا أعطى ثويني، حين ولاه رئاسة المنتفق ، خمسين الف قرش ومائة ناقة ومائة فرس ومائة خلعة ، فما خرج من بغداد إلا بعد أن فرق كل ما أعطاه .

(٢) – الكتخدا – أو الكيخيا – : لقب يستعمله الأتراك بمعنى النائب ، ويقصد به هنا نائب الوالي ومساعده – وعلي باشا ، نائب والي بغداد ، كما يقول دليل الخليج الفارسي ، عبد معتق من الكرج زجورجيا ، زوجه مولاه سليمان بنته واتخذه نائباً له ، وقد وصفه بعضهم بأنه جاهل وفظ غليظ عنيد ، ولكن بريدجس يقول انه شاب شجاع صاحب همة ، وقد يكون جاهلا بأصول الحرب .

وفي سنة ١٢١٣ هـ .أتمّ الوالي تجهيز هذه الحملة،وعقد رايتها لنائبه الكتخدا علي باشا .

ويقول مؤلف الدوحة ان الكتخدا علي ، تألم كثيراً هو أيضاً من اخفاق الحملة ، فأقنع الوالي سليمان باشا بأن يكل اليه قيادة الحملة الجديدة، فوافق على ذلك (وجهزه بكل ما يحتاج اليه من أموال وعتاد وعساكر ولوازم ، وبعد اكمال استعداداته غادر بغداد بجيش لجب في اليوم ٢٢ من ربيع الآخر ١٢١٣هـ. حتى بلغ البصرة وعسكر في الرباط مدة وجيزة وسافر بعدها نحو الزبير ، وقد جند في طريقه حوالي خمسة آلاف مقاتل من النجادة ، وسار

(في جحفل ستر العيون غباره فكأنما يبصرن بالآذان)

ويقول ابن سند في مختصره ، ان بين الذين اشتركوا في حملة الكيخيا : ابراهيم ابن ثابت ، ابن وطبان، ومعه جم غفير من أهل الزبير — وابن وطبان هذا يلتقي آباؤه بآباء آل سعود ، ويتهمه ابن سند بموالاة السعوديين — واشترك في الحملة أيضاً ناصر الشبلي أمير عرب عقيل ، وحمود بن ثامر بن سعدون بن مانع أمير عرب المنتفق ، وفارس الجربا أمير شمر ، كما صحب الكيخيا: الشيخ محمد بن عبد الله بن شاوي الحميري ، أحد دهاة العرب .

ويصف لنا ابن بشر قوة هذه الحملة الجديدة ، فيقول انها كانت تتألف من عساكر كثيرة من (العراق والأكراد والجرة والبصرة .. وعربان المنتفق مع رئيسهم حمود بن ثامر ، وآل بعيج والزقاريط وآل قشعم وجميع بوادي العراق وبوادي شمر والظفير ، واتفق له قوة هائلة من المدافع والقنابر وآلاتها وآلات الحرب ، وسار معه أيضاً أهل الزبير وما يليهم ، فاجتمع جموع كثيرة مما وراء العراق إلى نجد ، حتى قيل إن الخيل الذي يعلق عليها ثمانية عشر ألفاً) .

ويقول ابن سند في سبائك العسجد ، ان الكيخيا (أرسل إلى آل خليفة برسل وصحيفة يروم منهم النجدة والمناصرة والعدة .. فأرسلوا اليه .. هدايا ، وصحائف منطوية على وصايا) .

وفي (اللمع) ان الحملة سارت إلى جزيرة بلبول بقرب الكويت ، وكان الناس يصلون اليها مع دوابهم خلال الجزر ، إذ تنحسر الميـاه بينها وبين البر ، وقد استعملت الحملة مائتي سفينة استأجرتها من عتوب الكويت ومائتي سفينة من أهل أبي شهر و كنكون وكانت هذه السفن محملة بالبندق والمدافع والبارود والمشاة ..

سبب اشتراك المنتفق وشمر في الحملة :

يبدو أن لاشتراك شمر والمنتفق في هذه الحملة الجديدة أسباباً خاصة ، وقد كشف لنا ابن بشر عن سبب نقمة الشمريين ، في كلامه عن مسير الأمير سعود عام ١٢١٢ هـ . الى السماوة ، لأن عيونه أتوه بعد غارته على سوق الشيوخ في العراق — وأخبروه (بعربان كثيرة مجتمعين في الابيض — الماء المعروف قرب السماوة — فوجّه الجيوش وأغار عليهم على مائهم ذلك ، وكانت تلك البوادي كثيرة من بوادي شمر، ورئيسهم مطلق بن محمد الجربا ، الفارس المشهور ، ومعه عدد من قبائل عربان آل ظفير وآل بعيج والزقاريط وغيرهم ، فحصل بينهم قتال شديد وطراد خيل ، ثم حمل عليهم المسلمون فدهموهم في منازلهم وبيوتهم، فقتل عدة رجال من فرسان شمر والظفير وغيرهم وقتل ذلك اليوم مطلق الجربا المذكور ، وكان على جواد سابق ، وهو يقلبها يمنة المسلمين ويسرتهم ، فعثرت به جواده في نعجة ، وأدركه خزيم بن لحيان ، رئيس السهول وفارسهم فقتلـه ، وغنم المسلمون محلتهم وابلهم ومتاعهم .)

أما المنتفق فلم يشر ابن بشر إلى غارة سعود عليهم سنة ١٢١٢ هـ . ولكن ابن سند ذكر في مختصره ان سعوداً غزا في تلك السنة أطراف المنتفق ، فصبح القرية المعروفة باسم العباس ، وقتل منها ومـا حولها خلقا كثيراً ، وحرق وكر راجعاً .

سير الحملة الى الأحساء :

لم يشأ الكيخيا أن يسير بحملته إلى الدرعية ،عاصمة عبد العزيز، لأن الطريق

اليها وعر، فقرر المسير إلى الأحساء والاستيلاء عليها أولاً ، والإقامة فيها قليلاً، ثم التوجه بعد ذلك الى الدرعية ...

ويقول مؤلف الدوحة ان الكيخيا كان ينوي اتخاذ الأحساء(قاعدة لحركاته كي يستطيع أن يجلب منها بسهولة ما يحتاج اليه بصورة تدريجية. وهكذا تحرك بمن معه حتى وصل محلاً يقال له (الروضتين)،لا يدل اسمه على مسماه ، إذ لا ماء فيه ولا رياض ، وعليه فقد جاوزه إلى « الجهرة » ونزل فيها ، ولكن ماءها كان مالحاً وغير صالح للشرب والطريق وعرة لا يمكن مواصلة السير فيها ، فظل حائراً في أمره، وعندئذ انبرى شيخ الكويت لمساعدة الحملة ، بأن استأجر بعض السفن البحرية من مكان يسمى العجير ، نقلوا بها بعض المعدات والذخائر الثقيلة عن طريق البحر ، وواصلت الحملة سفرها بمشقة حتى بلغت أول قرية من قرى الأحساء وهي المسماة « نطاع » فأناخوا فيها مدة عشرة أيام، ثم تحركوا حتى اقتربوا من مدينة الأحساء نفسها) .

استسلام الهفوف والمبرز ومقاومة حصونهما :

لما اقترب الكيخيا من الأحساء أحب دخولها صلحاً فكتب إلى أعيان البلدة يستميلهم اليه ، فأجابوه بالقبول والطاعة ، وكذلك فعل أهل المبرز ، وهي بلدة قريبة من الهفوف(قاعدة الأحساء والتي تسمى أيضاً باسم المنطقة كلها: الأحساء).

استسلم أهالي الهفوف والمبرز ، ولكن رئيس حصن الهفوف ، الأمير سليمان ابن عفيصان ، ورئيس حصن المبرز الأمير سليمان بن ماجد رفضا الاستسلام ، هما ومن معهما من رجال نجد، وبفضل مقاومة هذين الحصنين اضطر الكيخيا إلى فك الحصار عنها ومغادرة الأحساء ..

بطولة المرابطين :

كان حصن المبرز يعرف باسم (صاهود) الهدف الأكبر للحملة ، ويقول ابن بشر : إن حصار الحملة لهذا الحصن دام من سابع رمضان الى السابع من ذي القعدة ، أي شهرين ، وان العدو كان (يحاول هذا الحصن بكل الأسباب ، من

القتال وسوق الأبطال ، والرمي بالمدافع والقنابر الرمي العظيم ، الذي هدم غالب الحصن وكاد يفنيه لولا وقاية الله تعالى. . وقد حفروا عليه حفوراً وملأوها بالبارود وثوروها عليهم وبنوا بنياناً عالياً يرمون منه وسط القصر ، وعملوا زحافات للجدران وسار خلفها الرجال بالمدافع وهدموا بالمدافع جدرانه وبيوته ولكن حماة الحصن كانوا يبنون ما يخربه الأعداء ويسدون الثغر التي يحدثها رميه بنيطات التمر) ..

ويذكر ابن بشر ان حماة الحصن كانوا نحو مائه رجل فقط .. (أكثرهم من بلدان نجد ، مع الشجاع الماجد سليمان بن محمد بن ماجد ، من أهل ثادق. . وألقى الله عليه ثباتاً عظيماً هو ومن معه ، ولم يعبأوا بتلك الجنود ولم يعطوا الدنية لعدوهم ، فلما طال المقام على تلك العساكر والجوع وبطل كيدهم ، وقع في قلوبهم الملل والتخاذل وألقى الله في نفوسهم الرعب وزلزلوا وارتحلوا اجمعين وتركوا الأحساء ، وانهزم معهم أهل الأحساء الخائنون ، لا يلوي أحد على أحد ولا والد على ولد ، وتركوا محالهم وأمتعتهم واموالهم .

ولما أراد الكيخيا ومن معه الارتحال ، جمعوا سلالهم وزحافات الخشب والجذوع التي أعدوها لحفر الحفور والجدران ، وشيئاً من متاعهم وطعامهم ، وأشعلوا فيها النيران .

ولما وصلوا « القطار» المعروف عند حويرات الأحساء وقع في قلوبهم الرعب وخافوا من سعود وجيوش المسلمين فدفنوا رصاص مدافعهم .. وأحرقوا بعض خيامهم وراياتهم .

وأما الذين امتنعوا على الكيخيا في قصر الهفوف فرئيسهم ابن عفيصان ومعه عدة رجال من أهل الخرج وغيرهم، وليس عليهم معظم حصار وحاولوهم مراراً عديدة ولم يحصلوا على طائل) .

رواية ابن سند :

ويقول ابن سند في مختصره : وأطاع الكتخدا غالب سكان المبرز ، وفي اثناء الحصار غزا حمود نجداً فأغار على سبيع فقتل منهم وغنم ابلا وشاءً جماً ،

ومعه في تلك الغزاة فارس الجربا وابن أخيه بنية الجربا — وبنية هذا أحد من اشتهر بين العرب بالكرم والشجاعة والنخوة — ولما رجع حمود من تلك الغزوات وورد على الكتخدا بالغنيمة قويت همته وحاول فتح القلاع .. ولكن الأطواب لم تعمل شيئاً في اسوار الأحساء وذلك لمتانة اسوارها، فلما طالت مدة الحصار ولم يمكن للكتخدا الفتح وهدم القلاع ، واشتد القحط على العسكر ، فرّ الكتخدا هارباً مع عسكره قاصداً العراق . وفرّ أهل الحسا مع جيش الكتخدا خوفاً على أرواحهم وأعراضهم وفروا في أسوأ حال من تشتيت الحال وعدم وجود الرواحل فكانوا مشاة حفاة جائعين عطشى، يجدّون في السير خوفاً من ابن سعود يدركهم .. تاركين الأموال والديار ، سالكين المهامه والقفار ، خصوصاً من تداخل مع عسكر الدولة في تلك الأيام) .

رواية اللمع :

ويزعم صاحب (اللمع) ان عجز الكيخيا عن اقتحام قلعة الهفوف ، كان بسبب خيانة البكرات ، أعيان بغداد ، الذين كانوا يرافقون الحملة ، وخيانة حمود رئيس المنتفق أيضاً .. فقد استطاع ابن عفيصان أن يشتريهم بالهدايا والأموال ، وهي رواية انفرد بها اللمع لا يعتقد بها .

رواية الدوحة :

يصف لنا مؤلف الدوحة حصار الحصنين فيقول ان المناوشات بين حماتها وبين جيش الكتخدا استمرت مدة عشرين يوماً ، ولما رأى قادة الجيش أن مدافعهم لم تؤثر في جدران الحصون ، تناولوا المعاول وراحوا يعملون على هدمها فلم ينجحوا أيضاً ، ثم وصلت اليهم مدافع ثقيلة فاستعملوها وأثرت في الجدران ، ولكن هذه المدافع كانت تنفجر وتتمزق بعد الطلقة الرابعة ، وهكذا عجز الجيش عن دك الحصون وتهديمها ولم يبقَ أمامه سوى الاستمرار في الحصار حتى يستسلم حماة الحصون وهذا أمر يطول ، والجيش لا يستطيع الانتظار طويلاً ، (فلا كلأ ولا عشب ، وقد هزلت الجمال وقعدت عن حمل الأثقال ، وهلك منها

مـا يقرب من تسعة آلاف بعير ، وتناقصت الذخائر والمعدّات ، وراح الجنود يفكرون .. في الهلاك الذي ينتظرهم فيما إذا بقوا على هـذه الحالة ، وذهبوا الى رؤسائهم يلحّون عليهم بضرورة الإسراع في العودة لعدم وجود فائدة من بقائهم هناك . إلا أن هؤلاء الرؤساء اعترضتهم مشكلة ، وهي كيفية العودة بعـد أن هزلت الحيوانات التي معهم وتعذر نقل الأثقـال . وأخيراً قرروا أن تسحب المدافع من قبل الجنود والمشاة ، وأمـا الذخائر والمعدّات الاخرى فبعضها دفن تحت الأرض وبعضها أُتلف او أُحرق لئلا يستفيد منه العدو ، وعلى هـذه الحالة انسحبوا الى الوراء ، بلا زاد ولا ذخائر ولا مؤن ، حتى وصلوا موقعـاً يسمى « الشباك » ، وهم في حالة يرثى لها ، وقد وجدوا في هـذا المكان عشباً وماء أنقذهم وأنقـذ دوابهم من الهلاك ، ثم ادلهمّت السماء وأرعدت وأمطرت عليهم مطراً غزيراً وهبّت عليهم عواصف أطارت خيـامهم وبعض أمتعتهم وبقوا لا ملجأ لهم من الرياح والأمطار ، ولقوا من العذاب ما لا يمكن وصفه حتى كادوا أن ييأسوا من حياتهم ، واستمروا على هـذه الحالة طول الليل حتى الصباح ، وعندئذ طلعت الشمس وتقشعت الغيوم وتنفسوا الصعداء ، وفتشوا عن خيامهم فعثروا عليها وأتوا بهـا الى المعسكر ، ثم أدركتهم المؤن باقتراب السفن منهم ، ولكن المؤن كانت قليلة ولا تكفي هذا الجيش أكثر من يوم واحد ، ومع ذلك فقد تقاسموها ، ومن أصاب رطلاً من الشعير فهو سعيد .

وبينما هم على هذه الحالة،بلغهم أن ابن عفيصان كتب إلى عبدالعزيز آل سعود يخبره بمـا حلّ بالجيش العثماني ، ويحرّضه على انتهاز الفرصة للانقضاض عليه وسحقه، فقام هذا وحشد جمعاً كبيراً من عشائر الوهابيين وأهل اليمن والعارض وجبل شمر ، وأرسله بقيادة ابنه سعود ، فاندفع يتعقب الجيش ويتلصص عليه.

فلما بلغ ذلك علي باشا أخذته الحميّة والغيرة ، وقـام باتخاذ الاستعدادات اللازمة لضرب هذه الحشود والانتقام منها .

أمـا سعود ، ومَن معه ، فقد تقدم بتحريض ابن عفيصان حتى اقترب من مكان يسمى « مخبات » وهناك تحصّن واستعد .

وأما علي باشا وجيشه فقد اقترب منهم ، واتخذ مواقع في مكان يسمى « الثاج » .

ثم بدأت مناوشات بين الطرفين قُتل فيها منها بعض المحاربين ، وكان من جملة القتلى خالد الثامر ، وهو أخو شيخ المنتفك ، حمود ، ثم اشتد القتال شيئاً فشيئاً .

سعود يطلب الصلح :

وأيقن الوهابيون أن لا قِبَل لهم بمواصلة الحرب، فأعلنوا الرغبة في الصلح ، وأرسل سعود كتاباً إلى علي باشا ، هذا نصُّه :

(من سعود بن عبد العزيز إلى علي

أما بعد . . عرفنا سبب مجيئكم إلى الأحساء وعلى أي منوال جئتم، أما الأحساء فهي قرية الآن ليست داخلة في حكم الروم وبعيدة عنكم ولا يحصل منها شيء يسوى تعبكم، ولو أن جميع الأحساء وما يليها تؤدي لكم دراهم ما تعادل مصروفاتكم التي عملتموها في هذه السفرة، ولا يوجد بيننا وبينكم من المضاغنة قبل ذلك إلا ثويني، فهو كان المعتدي ولقي جزاءه، فالآن مأمولنا المصالحة، وهي خير لنا ولكم، والصلح سيد الأحكام).

شروط الكيخيا للصلح :

فلما رأى علي باشا ان الاستمرار في محاربتهم يتطلب الاحاطة بهم من كل مكان وتضييق الحصار عليهم إلى أن يستسلموا ، واستعمال المدافع لدك حصونهم والهجوم عليهم و كلتا الحالتين غير متيسرة ، وذلك بسبب ضعف الجيش وقلة المياه العذبة والكوارث التي أصابته ، وبعد المداولة في هذه الامور مع ذوي الرأي من الرؤساء والشيوخ الذين معه قرروا قبول الصلح .

وهذا نص الكتاب الذي أرسله علي باشا إلى سعود ردا على كتابه :

(من علي باشا الى سعود بن عبد العزيز

أما بعد .. فقد أتانا كتابك ، وكل ما ذكرت من أمر المصالحة صار معلوماً لدينا ، ولكن على شروط نذكرها لك ، فإن أنت قبلتها وعملت بها فحسن ، والا فما نحن بعاجزين عنك ولا عن طوائفك ، بعون الله وقوته ، وعند الخبر الصحيح اذا اشتدت الهيجاء وانشقت العصا فحسبك المضحاك والسيف المهند ، حيث لنا مقدار أربعة أشهر في بلادك ، نجوب الفلا ونستأسر أهل القرى ما قدرت تظهر من مكانك غير هذه الدفعة ، وبهذه الدفعة أيضاً اغتررت بقول ابن عفيصان .

أما الشرط الأول ، فهو أن الأحساء لا تقربها بعد ذلك .

والثاني : الأطواب التي أُخذت من ثويني انك ترجعها .

والشرط الثالث : تعطينا جميع ما صرفناه على هذا السفر .

والرابع : أن لا تتعرض للحجاج التي تجيء اليك من طريق العراق ، ولا تتعرض لأبناء السبيل ، وتكف غزوك عن العراق وتكون معنا كالاول .

فهذه الشروط التي أخبرناك بها ، والسلام على من اتبع الهدى) .

سعود يقبل بعض الشروط :

وهذا جواب سعود بنصه :

(.. جاءنا كتابكم وفهمنا معناه ، أما من حال الشروط المذكورة :

فأولاً : الأحساء هي قرية بعيدة عن دياركم وخارجة عن حكم الروم وما تجازي التعب ولا فيها شيء يوجب الشقاق بيننا ، فهذه حالها .

وأما الأطواب ، فهي عند والدي بالدرعية فإذا صدرت اليه أعرض الحال بين يديه .

– والوزير سليمان باشا أيضاً يكتب اليه ، فإن صحت المصالحة وارتفع الشقاق بين الطرفين فهي لكم ، وأنا كفيل بها أن أجيبها إلى البصرة .

وأما مصاريفكم ، فإني لا أملك من هذا الأمر شيئاً ، والشور في يد والدي والذي هو يقرره يصل اليكم .

وأما ما ذكرتم من أمن الطريق وعدم التعرض للحجاج والمترددين فحباً

وكرامة ، وعلي عهد الله وميثاقه انه ما يفقد لكم بعير واحد ، ولا يسري منا ضرر على المترددين ، وما لهم عندنا غير الكرامة والتسيار ..)

قبل الكيخيا جواب سعود ، وتمت المصالحة بينهما وعاد الجيش العراقي إلى بلاده .

ويقول صاحب الدوحة ان هذه الحملة غابت عن العراق قريباً من عشرة أشهر ، (وقد لاقت من الأهوال والمهالك ما لا يمكن وصفه ، وان ما جمعه الوالي سليمان باشا من الأموال وما ادّخره من سنة ١١٩٤ إلى السنة الثالثة عشرة ومائتين وألف قد صُرف كله في سبيل هذه الحملة ، ومع كل هذا لم تأتِ بالثمرة المرجوّة) .

وقاحة الكيخيا :

وقد علق مختصر ابن سند على شروط الكيخيا ، قائلاً :

(انظر إلى هذا الكيخيا المغفل ، الذي يشترط شروطاً ، مع كونه مغلوباً مهزوماً ، وهل هذا إلا نوع من الوقاحة ؟..

وانظر إلى ابن سعود كيف أجابه بأجوبة ، وترك بيت القصيد ، أعني مصاريف الحرب وردّ الاطواب ..

.. ما قاله في جوابه الأول : من سعود بن عبد العزيز إلى (علي).. ولم يذكر لعلي أباً ، إشارة إلى كونه لا يعلم له أب ..) .

رواية ابن سند في مسألة الصلح :

يرى ابن سند أن الكيخيا هو الذي جنح إلى الصلح ، بسبب خيانة المسؤول عن ذخائر الحملة ومؤنها ، وميل ابن وطبان إلى أهل نجد ، وهذا ما قاله :

(لما قفل الكتخدا هارباً ، جدّ في طلبه سعود بن عبد العزيز بجيشه فأدركه في محل يسمي « ثاج » ونزل سعود « الحناءة » ، وانشبك القتال بين الفريقين ، وقُتل خالد بن ثامر أخو حمود ، فبينما الفرسان تتطارد إلا وقد جنح الكتخدا للصلح ، وذلك أن بعض كبراء عساكر الكتخدا من أقارب سعود وعلى مذهبه ،

فصاروا يهولون أمر سعود للكتخدا فداخله الخوف ، كما فعلوا به لما كان في الأحساء . والسبب الثاني أن متولي مصاريف جيش الكتخدا اختلس أموالاً جمّة وقيّدها في الدفاتر كذباً وزوراً فاقتضى رأيه أن العسكر إذا رجع مهزوماً ومصالحاً على المغلوبية فلا يصير عليه شدة محاسبة على المال التالف ، لأن جميع الأموال والذخائر التي كانت معه تعدُّ من جملة المهالك ويقطع النظر عنها .

وأما المتهوم بهذه الخيانة وأنه هو الذي كان يشير على الكتخدا بالهزيمة ويهول أمر سعود والوهابيين هو : إبراهيم بن ثابت بن وطبان ، لأنه كان رجلاً فصيحاً منطقياً من دهاة العرب ، ويظن فيه مثل هذا الكلام ومتهم ببعض من عقائدهم ، يعني أنه يكبر أمر الوهابيين عند بعض أمناء الكتخدا فينقلون له ذلك الخبر إلى أن داخله الخوف وكان ما كان ، خصوصاً ان ساعده بمثل هذه الأفكار متولي الخزينة بناء على خيانته المالية ، ولذلك أكثر الناصحين للكتخدا مثل حمود بن ثامر وأمثاله ما كانوا راضين بالصلح .

وأما قول المؤرخ التركي ان سبب انهزام الكتخدا في هذه الوقعة وطلب الصلح هو نفاد الزاد من العسكر فهو غلط محض مبني على إشاعة الخائنين ، بل الخبر الصحيح ان الذين نفد زادهم هم الوهابيون ، ولو تأنى الكتخدا يومين لفرُّوا من أمامه طلباً للقوت .

.. ولما تمَّ الصلح على هذه الكيفية رجع الكتخدا إلى بغداد ، ولم يفِ سعود بواحد من الشروط .

رأي ابن بشر في الصلح :

لا يذكر ابن بشر شيئاً عن رسائل الصلح المتبادلة بين سعود والكتخدا ، ويكتفي بالقول ان الله (ألقى الرعب في قلوب الكيخيا وجنوده ووقع فيهم الفشل فطلبوا المصالحة والمكافة وان كلاً من الفريقين يرحل على عافية وحقن دماء ، وصالحهم سعود على ذلك فارتحلوا إلى أوطانهم) .

أما ما سبق هذا الصلح ومهد له فهو - كما يقول ابن بشر - ان سعود لما علم برجوع الكيخيا إلى العراق وأراد أن يهجم (على ساقتهم ومتخلفهم ويخيفهم

ويأخذ من شذّ من بواديهم فسار إلى الماء المعروف باسم « ثاج »، ولكنه فوجىء بأن عساكر الكيخيا مقبلة نحوه، لا هاربة منه .. وهكذا جمع الله بينه وبين خصمه على غير ميعاد.. فتبايع المسلمون على الموت وهم يظنون ان تلك العساكر والجموع تناجزهم، وجرى بينهم مجاولة خيل .. وأقاموا على ذلك أياماً ..)، ثم كان الصلح – على غير موعد أيضاً – (ثم رحل سعود وقصد الأحساء ونزل عليه ورتب حصونه وثغوره وأقام فيه قريب شهرين، واستعمل عليه أميراً سليمان بن محمد بن ماجد ثم رحل إلى وطنه قافلاً .)

رواية مانجان :

يقول مانجان إن غاية الحملة التي قادها الكتخدا كانت احتلال الأحساء، وقد سار عربان العراق تحت الراية العثمانية، وعند وصول الحملة إلى الأحساء أعلن كثير من الأهالي خضوعهم، بينما انضم قسم منهم إلى حصن (الكوت) الذي كان يقوده الأمير الوهابي إبراهيم بن عفيصان .

هاجمت الحملة الحصن، وكانت كلما فتحت فيه ثغراً سده المدافعون بقفف التمر ونحوها .. ويجثث قتلاهم أيضاً !

وبعد حصار دام سبعين يوماً، قال المقاتلون للكيخيا : ما الفائدة من هذا الحصار ؟ إن رجال سعود يناوشوننا في السهول ويزعجوننا !

فقرر الإنسحاب ..

وبلغ ذلك سعود، فذهب إلى بئر (ثاج)، ولكنه رأى أن جند الكيخيا لم ينسحبوا، وانهم على العكس من ذلك، يتجهون نحوه، فأقام التحصينات والمتاريس !...

ووقع الصدام بين الجيشين ..

وكان الجيش العثماني يتألف من (٢٨) ألف فارس وعشرة آلاف من المشاة[1].

وكان جيش سعود يتألف من (١٢٠٠) فارس و ١٢ ألفاً من المشاة .

---

(١) تقول لادي بلنت إن عدد الجنود النظاميين بينهم أقل من الخمس وكثرة المقاتلين من البدو.

وبعد مناوشات ، تقرر عقد الصلح ، وانسحب الكيخيا إلى العراق .

ولما وصل سعود إلى الأحساء كافأ ابن عفيصان على إخلاصه وجعله حاكماً على المقـــاطعة . وهكذا توطد سلطان عبد العزيز وأصبح الناس جميعاً يحبون الخضوع اليه .

وعقد الصلح بينه وبين الشريف غالب وذهب كثير من أهل نجد إلى الحج .

وبعـد انسحاب جيش بغداد ، أراد عبد العزيز أن يقيم صلات حسنة مع سليمان باشا فأرسل اليه عشرين جواداً وعباءآت وهدايا) ..

رواية كورانسيز :

يزعم كورانسيز ان الكيخيا كان قادراً على أخذ عبد العزيز أسيراً ، لو انه أراد ذلك ، ولكنه قبل الرشوة فتخاذل ..

وهذا الزعم باطل ، لأن عبد العزيز لم يشترك في الحملة حتى يؤسر ..

ولكننا ننقل رواية كورانسيز ملخصة لمجرد العلم بما كتبه هـذا المؤرخ الذي كان أول غربي كتب عن الدعوة الوهابية ، قال :

(أثارت قوة عبدالعزيز حسد السلطان العثماني ، وكان السلطان يحكم امبراطورية كبيرة جداً ، ولكنها تتألف من أقاليم معادية لحكمه ، فما كان يستطيـع إخضاع الثائرين عليه بوسائله الخاصة ، وإنمـا كان يؤلـّب إقليماً على إقليم لتبقى الأقاليم كلها في حالة تفرقة وخصومة وضعف ، فيسهل عليه بذلك التسلط عليها ..

وفي عام ١٧٩٨ م . أمر السلطان والي بغداد بمحاربة الوهابيين ، فجهز الوالي حملة كبيرة وجعل عليهـا نائبه (علي) – الذي غلب عليه لقب (كيخيا) او كتخدا ومعناه النائب او الوكيل – واصطحب معه مستشاراً يدعى (محمـــد الشاوى) ، كان رئيساً لعشيرة العبيد .

تفصل الدرعية عن بغداد صحراء لا يمكن اجتيازها بأقل من اثني عشر يوماً ، والحر وقلة المياه يجعلان السير فيها محفوفاً بالأخطار والمشاق ، ولقـــد اجتاز الكيخيا هذه الصحراء بجهد جاهد واستطاع الوصول إلى الأحساء بجيش كثيف رهيب ، ففوجيء الوهابيون بذلك ، لأنهم كانوا تعوّدوا على مفـاجأة الآخرين

ومبادأتهم القتال ، فلمـــا بودئوا بالقتال على أرضهم تصدعت صفوفهم واضطر أميرهم عبدالعزيز إلى الهرب وكاد يقع في أيدي أعدائه، ولكنه بذل مالاً وهدايا للشاوي، فترك هذا حليفه الكيخيا ، ثم أقام نفسه وسيطاً بينه وبين ابن سعود، ولا شك في أن الأموال التي غمره بها الأمير السعودي كان لها أثرها السحري على الكيخيا أيضاً ، فانعقد الصلح بينه وبين الوهابيين، مع أنه كان قادراً على تدمير مُلكهم .

كان يبدو أن معركة مثل هذه ينهزم فيها عبدالعزيز تجعله يكره (التحرش) بالسلطنة العثمانية مرة ثانية ، ولكنه ما كاد يتخلص من هذه الازمة ، حتى عاد إلى الظهور أمام مشهد الحسين ..) [1] .

رواية جان ريمون :

يقول جان ريمون في مذكراته : (رأى علي باشا أنه لا يستطيع الاعتماد على العرب وحدهم ، فجهز حملة على مقدمتها فرقة من الأكراد ، دخلت الأحساء بقوة وشجاعة وقضت على كل من اعترض سبيلها ، وبقيت حامية سعودية في الحصن فأمر الكيخيا بإدارة المدافع على الحصن .. ولكن عبد العزيز اشترى محمـد الشاوي بالمال ، فزين للكيخيا محاسن الصلح وضرورته ، فرفع الكيخيا الحصار وعقد صلحاً مع الوهابيين) .

وما نشك في أن كورانسيز قد اطلع على مذكرات ريمون ونقل عنها، وتزعم الليدي (بلانت) ان هدايا أُرسلت أيضاً إلى والي بغداد .. وبلانت تنسب ذلك إلى سعود لا إلى عبد العزيز ، فتقول : رأى سعود ان الحكمة تستوجب منه مداراة الوالي التركي سليمان باشا ، فأرسل اليه جياداً أصيلة وهدايا ثمينة سلمت اليه في بغداد .

---

(١) كان سعود بن عبد العزيز هو الذي يتولى بنفسه قيادة المعارك ضد الحملات العراقية وضد العراق ، ولعل كورانسيز وضع اسم الأب مكان الابن ، ولكنه على كل حال قـد غالى في تصوير قوة الحملة العراقية ، وعلى افتراض أن سعود جنح الى الصلح فليس معنى ذلك أنه ضعيف ..

الكيخيا هو الذي طلب الصلح :

إذا كان ريمون وكورانسيز وابن سند ومؤلف الدوحة يقولون إن الوهابيين هم الذين طلبوا الصلح ، فسليمان بن سحمان يؤكد لنا في كتابه (كشف غياهب الظلام) إن الكيخيا هو الذي استجدى الصلح استجداء من سعود ، وان الله ألقى الرعب في قلوب رجال الكيخيا مع كثرتهم وقوتهم (فطلبوا الصلح ، على أن يدعهم سعود يرجعون إلى بلادهم) ..

رواية طريفة لبريدجس :

كان بريدجس وزيراً لانكلتره في بلاط شاه العجم ، وقد زار العراق عند عودة الكيخيا من حملته على الأحساء ، فروى قصة طريفة قد يكون فيها بعض التأييد لرأي ابن سحمان ، قال :

(أخفق علي باشا في حملته لأنه سار إلى الدرعية تاركاً في الأحساء حامية لابن سعود تهدد ساقته ..

أما عجزه عن حصون الأحساء فسببه أنه كان يضرب التحصينات بالمدافع عن مسافة كبيرة بعيدة ، بحيث كانت القنابل تتساقط دونها أو تلامسها في ضعف .. وهكذا اضطر إلى عقد هدنة مع الأمير سعود ..

وقد رأى الأمير الوهابي أن يرسل مندوباً عنه إلى والي بغداد ليأخذ موافقته على مشروع الصلح الذي وقعه الكيخيا علي باشا ، وقد وصل هـذا المندوب بصحبة علي باشا نفسه إلى بغداد .

حدّد سليمان باشا يوماً مخصوصاً لاستقبال المندوب الوهابي ، وأراق على مراسم الاستقبال كل مظاهر العظمة ..

وجاء المندوب السعودي ، بكل بساطه ، جلس قرب الباشا ، وخاطبه بلغة عربية فصيحة ، قائلا :

(السلام على من اتبع الهدى . يا سليمان ، أرسلني عبد العزيز لأسلمك هـذا الكتاب ، ولآخذ منك موافقتك على العهد الذي اتفق عليه ابنه سعود وخادمك

سليمان ، فافعل ذلك بنية صادقة واخلاص ولا تبدل شيئاً في شروط العهد فإن الله يغضب على من ينكثون بعهودهم ، وكن واثقاً إنك متى أبرمت العهد أبرمه عبد العزيز هو أيضاً) ..

وما كاد المندوب الوهابي ينهي كلامه حتى غادر المكان، وسط دهشة الحاضرين وتعجبهم . وهذا شيء عجيب حقاً ولا يكاد أحدنا يصدقه ، ولكن الأغرب من ذلك أن الباشا كتب إلى السلطان في استانبول يقول إن عبد العزيز أرسل اليه رسولاً يلتمس القبول .. بعقد صلح معه .

كانت ملابس المندوب السعودي بسيطة جداً، بينما كانت ملابس الباشا محلاة بالفر و الثمين والذهب والماس..وكان كتاب عبد العزيز الى الباشا مثال البساطة ومكتوباً على رقعة من الورق لم تكن ناصعة البياض !

وقد قابلت الباشا ، بعد انصراف المندوب ، فوجدته غاضباً ممـــا جرى — ولعله كان مستاءً من حضوري وشهودي لما وقع — وقد شتم العرب !

سنة ١٢١٦ هـ .

واقعـــة كربلاء :

في العام ١٢١٦ للهجرة غزا سعود (كربلاء) ، ولكن عبد العزيز لا يعـدُّ مسؤولاً عن وقائعها ، لأنه كان منقطع الصلة بما وقع في العراق ..

رواية ابن بشر :

يقصُّ علينا ابن بشر خبر غزوة كربلاء ، من غـــير أن يذكر مقدماتها والأسباب الدافعة اليها ، ومن غير أن يلتمس بعـد ذلك تبريراً لما وقع فيها من الامور ، ثم هو لا يذكر شيئاً عن أصدائها في العالم الإسلامي .

إن حادث كربلاء ، عند ابن بشر ، غزوة من الغزوات الضخمة ، أسفرت عن قتلى كثيرين وغنائم كبيرة ، وهذا ما قاله عنها :

(.. سار سعود بالجيوش المنصورة ، والخيل العتـاق المشهورة ، من جميع حاضر نجد وباديتها والجنوب والحجاز وغير ذلك ، وقصد أرض كربلاء ونازل

أهل بلد الحسين ، وذلك في ذي القعـــدة ، فحشد عليها المسلمون وتسوّروا جدرانها ودخلوها في ذي القعدة ، عنوة ، وقتلوا غالب أهلهـا في الأسواق والبيوت، وهدموا القبة الموضوعة بزعم من اعتقد فيها على قبر الحسين، وأخذوا ما فيالقبة وما حولها ، وأخذوا النصيبة التي وضعوها على القبر، وكانت مرصوفة بالزمرد والياقوت والجواهر ، وأخذوا جميع ما وجدوا في البـــلد من أنواع الأموال والسلاح واللباس والفرس والذهب والفضة والمصاحفالثمينة وغير ذلك ما يعجز عنه الحصر،ولم يلبثوا فيها إلا ضحوة ًوخرجوا منها قرب الظهر بجميع تلك الأموال ، وقتل من أهلها قريب ألفي رجل .

ثم إن سعود ارتحل منها على الماء المعروف بالأبيض ، فجمع الغنـائم وعزل أخماسها ، وقسم باقيها بين المسلمين غنيمة، للراجل سهم وللفـــارس سهمان ، ثم ارتحل قافلاً إلى وطنه) [١] .

رواية كورانسيز :

وصف كورانسيز واقعة كربلاء وصفاً مبالغاً فيه ، وهـذا ما قاله في شيء يسير من التصرف :

(الإمام الحسين هو ابن علي وسبط النبي ، جـــاء من المدينة الى العراق ، فقتله حكام العراق الأمويون قريباً من الكوفة ، في سهل كربلاء ، فدفن هناك، وأقام له الشيعة ضريحاً وبنوا حوله بلدة ، أطلق عليها اسمه ، هذه البلدة خربها الخليفة العباسي المتوكل عام ٨٥١ للهجرة ، فأعـاد ملوك الفرس بناءها ، وأنشأ الشاه اسماعيل ، مؤسس الاسرة الصوفية ، مسجداً كبيراً حول ضريح الحسين ، كان خلفاؤه يتبارون في تحسينه وتزيينه، وقد أصبح مشهد الحسين موضع تعبد وتقديس عند الفرس .

تقع بلدة الإمام الحسين على بعد ستة أميال من (الحلة) ، وهي بلدة صغيرة لا يزيد عدد سكانها على سبعة آلاف ، ويديرها (متسلم) ، يعيّنه باشا بغداد

---

(١) في لمع الشهاب أن ما أخذه سعود من كربلاء بلغ ستمائة مليون ريال !..

كل سنة ، ومعه عدد من الجنود ، وهناك أيضاً جماعة من الفرس يقومون على حراسة كنوز المسجد .

وقد جرت العادة أن يحتفل الشيعة كل عام بعيد (علي) ويحجوا الى ضريحه الذي يبعد خمسة أميال عن مشهد الحسين.. وفي يوم الحج هذا خرج أهالي المشهد من بلدتهم ، فانتهز الوهابيون فرصة غيابهم عن البلدة واقتحموها ، وكان عددهم حوالي ١٢ ألفاً ، ولم يكن في البلدة إلا عدد قليل من الرجال المستضعفين قتلهم الوهابيون ولم يبقوا منهم أحداً حياً .. ويقدر عدد الضحايا ، خلال يوم واحد، بثلاثة آلاف ..

أما السلب فكان فوق الوصف ، ويقال ان مائتي بعير حملت فوق طاقتها بالمنهوبات الثمينة !.. فقد استولى الوهابيون على كل الكنوز والأموال، وجردوا القبة من صفائح النحاس ، لأنهم ظنوها من الذهب ..

وصلت أخبار هذه الغزوة الهائلة الى بلاد فارس فهج الناس وماجوا ، وطلب الشاه من والي بغداد الإسراع بتجهيز حملة تأديبية ضد الوهابيين وأنذره بأنه سيسير بنفسه لتأديبهم عبر العراق، اذا لم يفعل الوالي ما طلبه منه ، فوعده الوالي وعوداً) ..

رواية مانجان :

يقول المؤرخ مانجان ما ترجمته :

دخل سعود كربلاء على رأس عشرين ألف مقاتل ، وكان ذلك في أول يوم الأضحى ، وقد قتلوا الرجال ، ولكنهم وفّروا النساء والأطفال والشيوخ والعجزة ، ونهبوا الدور والحوانيت ، وهدموا قبة مشهد الحسين ، وقد دلّهم حارس القبر على مكان الكنوز فأخذوها ، وهي :

٢٠ سيفاً مرصعاً بالجواهر – أوانٍ وزهريات ومصابيح ثمينة – سجاد نفيس صينيات مطليّة بالذهب – مصاحف ممتازة بخطوطها وزينتها – لآلىء، وزمرد ، ومرجان ، الخ ..

لؤلؤة في حجم البيضة ، أخذها الأمير سعود لنفسه خاصة .

وقد اقتلع الوهابيون الفصوص الذهبية من الجدران ، وأخذوا من أسواق البلدة ما ليس يحصى كثرة من المتاع والأقمشة ، كما أخذوا عدداً من الجواري ..

وأما النقود التي أخذوها فهي :

٦٠٠٠ مربعة اسبانية .

٣٥٠٠٠٠ ريال ضرب البندقية .

٤٠٠٠٠٠ دوقية ضرب هولندة .

١٦٠٠٠٠ ريال ضرب القسطنطينية .

٦٠٠٠٠ تومان ، عملة فارسية ذهبية .

٢٥٠٠٠٠ قرش اسباني .

٤٠٠٠ روبية .

وقد استمر النهب ثماني ساعات ، ثم أخلى المهاجمون البلدة مساء ، وذهب سعود إلى ماء يبعد يوماً عن كربلاء ، وأخذ يحصي الغنائم ، ثم وزعها ، بعد أن فرز منها الخمس الشرعي ، وقفل راجعاً إلى الدرعية .

الأسباب التي أدّت الى واقعة كربلاء :

يقول ابن سند ان سعود بن عبدالعزيز أراد التقوّي بأموال كربلاء استمداداً لتملك الحرمين .

وفي اعتقادنا ان طلب المال لم يكن الدافع إلى غزو كربلاء ، فقد كان بين العراق وبين الدرعية ميثاق سلام وصفاء ، ولا يعقل أن ينقضه سعود لمجرد الشهوة إلى المال .

الواقع ان غزوة كربلاء كانت ردّاً على عدوان شديد قام به بعض رجال العراق ضد أنصار الدعوة ، فاعتبرت الدرعية ذلك العدوان نقضاً للعهد وتحدياً يستوجب العقاب ، فكانت غزوة كربلاء ...

قال الغزاوي ، في حوادث سنة ١٢١٤ هـ . :

(.. وردت حدرة من الوهابية « سابلة » فصادفها الخزاعل ، فقتلوا منها نحو ثلاثمائة رجل !

جاء الخزاعل إلى النجف للزيارة ، فحدثت هذه الوقعة على خلاف الشروط المعطاة إلى سعود بن عبد العزيز .

ولذا لم تَرُقْ هذه الحادثة للوزير وتأسف كثيراً لوقوعها ، وكانت السبب في الوقائع الأخيرة) .

ويقول بركارت وموسيل ان العدوان وقع من جانب العراقيين على فرقة وهابية كانت تحرس قافلة من حجاج الفرس كانوا في طريق عودتهم من الحج إلى أوطانهم .

محاولة لاسترضاء الدرعية :

ويقول مؤلف دوحة الوزراء :

(في أعقاب الحوادث التي وقعت سنة ١٢١٤ هـ . بين الخزاعل والوهابيين في النجف الأشرف وقتلهم نحو الثلاثمائة وهابي ، ووصول خبرهم إلى عبد العزيز ، قام هذا فوراً بالكتابة إلى الجهات المختصة محتجاً على هذه الحادثة ومتخذاً منها ذريعة لإلغاء الصلح ، ما لم تدفع اليه ديات القتلى ، ولأجل إيقاف تنفيذ ما قرره وإبقاء المصالحة على حالتها ، أوعز الوالي إلى عبدالعزيز البيك أحد أبناء الشاويين ، أن يعرج على الشيخ الوهابي ، بعد تأدية فريضة الحج ، ويحوّله عن عزمه .

ولما قدم عليه وباحثه حول الموضوع أصرّ الشيخ على رأيه ، وأخيراً طلب أن يسمح لعشائره بالرعي ما بين عانة والبصرة من جهة الشامية ، وذلك عوضاً عن ديات القتلى .. وإلا فلا مناص من نقض العهد .

ولما يئس الشاوي من إقناعه بالعدول عن ذلك أرسل ساعياً إلى الوالي يخبره بالأمر ، ويضيف بأن الوهابيين اتجهوا نحو العراق ، لينتقموا لقتلاهم .

وعندئذ أمر الوزير باتخاذ الاحتياطات الضرورية ، وأرسل علي باشا على رأس قوة عسكرية لتحول دون تعرّض الوهابيين للعراقيين ، وسافر نحو الهندية ونزل قرب نهر الشاهي ، وأقام هناك بضعة أيام ثم رحل نحو شفاثة ، وقد التحقت به عشائر العبيد بقيادة محمد بيك ، والتحق به أيضاً فارس الجربا ، والبيات والعساكر النظامية القادمة من اربيل ، وتقدّر بألفي جندي .

هجوم وهابي على العراق سبق واقعة كربلاء :

فلما بلغوا تلك الأنحاء رأوا القوات الوهابية قد حطّت رحالها هناك ، واستعدت أتمّ استعداد للقتال ، ولكنها قبل التصادم انسحبت أمام الجيش ، وبعد انسحابها قررت الحملة أن تميل نحو شفاثة ، لقلة المياه في المكان الذي عسكرت فيه ... وبقي الباشا هناك حوالي الثلاثة أشهر ثم عاد إلى الحلة .. ولما ييئس من عودة الوهابيين ترك قوة كافية .. لتترصد الأخبار وتحافظ على الأمن وعاد ببقية أفراد الحملة إلى بغداد ..)

رواية ابن سند :

تختلف رواية ابن سند لوساطة الشاوي وحملة علي باشا لملاقاة الوهابيين تماماً عن رواية مؤلف الدوحة ، ونحن نرجح رواية ابن سند ، قال في أخبار سنة ١٢١٥ هـ . ما يأتي :

(وفيها توجه عبد العزيز بن عبدالله بن شاوي الحميري إلى حج بيت الله الحرام وأمره الوزير بأن يمر على الدرعية في عودته ، ويلاقي سعود بن عبد العزيز ويكلمه في ديات من قتل من خزاعة وسكان النجف ، أي الذين قتلهم الوهابيون .. فلما أتمّ حجه قصد الدرعية وتلاقى مع سعود وكلمه في هذا الشأن ، فضحك وقال له :

« أما كفى الوزير أننا تاركوه يحكم في بغداد ، والله عما قريب ترى جميع غربي الفرات لنا ، وشرقيه له » .

فانقلب ابن شاوي بغير ما أمل .. وأعلم الوزير ردّ سعود .. فاستعد الوزير لمحاربة الوهابيين ..)

ويتحدث ابن سند عن حملة الكتخدا فيقول :

(سنة ١٢١٦ هـ. أغار سعود بأهل نجد الوهابيين على العراق سرايا وركبانا ، فنهبوا وسلبوا وحرقوا بعض القرى ، وسبوا وأسروا ، فأرسل الكتخدا علي بيك لمقاتلتهم ، ومحمد الشاوي وفارس الجربا ، ومعهم عسكر ، فلما التقنوا معهم ووجدوهم قد تحصنوا بالرواحل ، أي أنهم قربوا الابل ودخلوا وسطها وجعلوها متاريس ، وصاروا يرمون عليهم بالبنادق الرصاص من وسط الابل ، فجبن العسكر

وخافوا من الهجوم عليهم ورجعوا إلى شفاثي ، كحبالى ، وما بهم من عطش ، ولكن ادعوه كذبا، إنما هم كرهوا النزال في الحروب خوفاً على أرواحهم ، وكان يمكنهم أن يقرنوا الابل ويدخلوا وسطها، كما فعل الوهابيون، ويهجموا مع الإبل سوية .. ولكن ما أكثر أعذار الجبان) .

عجز الوالي عن الانتقام :

يرجع مؤلف الدوحة تقاعس الوالي سليمان باشا عن الثأر لواقعة كربلاء إلى مرضه ، وإلى انتشار وباء الطاعون في بغداد ، وهذا بعض ما قاله :

(سافر الكيخيا علي مسرعاً نحو كربلاء،على أمل أن يظفر بالوهابيين وينتقم منهم وينقذ البلدة من قبضتهم ، إلا ان الأخبار وردته ، وهو يومئذ في الحلة ، بأن الوهابيين بعد ما نهبوا وقتلوا خرجوا قبيل العصر نحو الأخيضر ، فتوقف علي باشا في الحلة لأسباب اضطرته إلى هذا التوقف ولعدم بقاء ما يدعو للسفر إلى كربلاء بعد هروب الوهابيين منها .

وفي هذه الأثناء وصل متصرف البصرة الداماد سليم بيك هو وعثمان آغا والتحقا بالحملة التي اتجهت نحو الهندية وعسكرت فيها ، وهنا انتشرت شائعة مفادها ان الوزير الذي كان يشكو من مرض المفاصل قد اشتد عليه مرضه ولم يخرج من بغداد إلا لإخفاء هذا المرض الذي أقعده عن الحركة تماماً ويوشك أن يقضي عليه ، وهو الآن في أشد حالات المرض .

ومن جهة أُخرى ، وردت الأخبار بأن الطاعون أخذ يفتك بسكان بغداد فتكاً ذريعاً ويحصد منهم ما يقرب من سبعين نفساً في اليوم ، وهذه الأخبار المحزنة قد أقلقت الحملة وأقعدتها عن تنفيذ مهمتها ، فاكتفى علي باشا بإرسال بعض القوات إلى كربلاء من باب الإحتياط ..

هذا وقد نقلوا خزينة النجف الأشرف ، خوفاً عليها من غارات الوهابيين ، وضموها إلى خزينة موسى الكاظم ..) .

حرب الروس وثورة الأكراد :

يقول بعض المؤلفين ان (فتح علي شاه) ملك العجم عزم على (تجهيز جحفل

عدته مائة ألف مقاتل ، يغزو به الوهابيين في عقر دارهم ..

وكذلك سليمان باشا والي بغداد أخذ في اعداد جيش جرار يتولى قيادته بنفسه ..

ولكن .. فاجأت العجم حرب مع الروس ، وفاجأت سليمان باشا فتنة في بلاد الأكراد ، فانصرفت الهمم عن قتال الوهابي ..) [1] .

رأي دليل الخليج الفارسي :

يقول دليل الخليج الفارسي : (احترم الوهابيون الصلح المعقود بينهم وبين العراق ، حتى هوجمت قافلة من الحجاج العجم كان يقودها وهابي ، بين الحلة والنجف ،من قبل عربان العراق ، فاعتبر الوهابيون هذا العدوان خرقاً للصلح..

وفي نيسان ١٨٠١ م . هاجم الوهابيون كربلاء ، وكان عددهم ستة آلاف .

هاجموا كربلاء هجوماً صاعقاً خلال ثماني ساعات فقط ، هدموا اثناءها مشهد الحسين ونهبوا كل ما فيه وقتلوا الرجال ، ويقال ان عدد القتلى من أهل كربلاء ثلاثة آلاف وربما خمسة آلاف ، ولم يفقد الوهابيون أي قتيل ، وقد أخذوا معهم أيضاً عدداً من الأسرى .

ويقال إن المقيم البريطاني « سربريدجس » جمع أموالاً وافتدى بها مائتين من أسرى العجم وأعادهم إلى بلادهم .

هاجم الوهابيون ، بعد كربلاء ، النجف ، ولكن أهلها ردوهم ، ثم هاجموا شط العرب ، قرب البصرة ، فردهم أهل الزبير .

.. ومات سليمان باشا قهراً .. في ٧ آب سنة ١٨٠٢ م .) .

---

(١) أنظر كتاب حاضر العالم الإسلامي .

بين عبد العزيز وبين أشراف مكة

عهد الشريف أحمد بن سعيد :

تولى حكم مكة ، في أوائل عهد عبد العزيز ، الشريف أحمد بن سعيد ، وكان مبغضاً للترك ، وقد اتبع نحو الدرعية سياسة مودّة وأخوّة ، فأذن لأهلها بالحج ، وكانوا ممنوعين منه ، وطلب عالماً من أهل الدرعية يبين لأهل مكة حقيقة الدعوة التي نهض بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ولكن عهد هذا الشريف ، لسوء الحظ ، لم يطل ، ولو انه استمر لتغير وجه التاريخ ، ولّما حدثت مأساة الدرعيـــة على أيدي محمد علي ورجاله ، فقد كان الدافع اليها سوء التفاهم بين مكة والدرعية .

في العام ١١٨٣ هـ . أذن شريف مكة أحمد بن سعيد لأهل الدرعية وأنصار الدعوة عموماً بالقدوم إلى مكة المكرمة للحج ، الذي كان ممنوعاً عنهم بحجة أن الوهابية .. مذهب جديد مخالف للسنّة وما عليه سائر المسلمين ..

أبطل الشريف هذه الدعوة الكاذبة ، واستقبل بنفسه جماعة من أهل العارض جاؤوا للحج ورحّب بهم وأكرمهم ، وعادوا إلى بلدانهم دون أن يلقوا أية مشقة .

لماذا خالف الشريف أحمد أسلافه واتبع سياسة حسنة نحو الدرعية ، كان الإذن بالحج إحدى علاماتها ؟

يقول ابن غنام ، في أخبار سنة ١١٨٣ : (وفيها غزا المسلمين ركب ، فصادف الشريف منصور ، فأخِذ مع ركب معه ، وأُتي به مأسوراً ، فمنّ عبـد العزيز

عليه بإطلاقه دون الفدا ، فرجع بعـــد ذلك برخصة من شريف مكة في الحج لذوي الهدى ..) .

ويتفق رأي مانجان مع رأي ابن غنام ، إذ يقول : (أسر عبد العزيز فتى من أشراف مكة يدعى منصور ، فأطلق حريته وأكرمه ، فعـــاد إلى مكة يلهج بالثناء على عبد العزيز ، وطلب من الشريف أحمد بن سعيد أن يأذن لأهل نجد للحج تقديراً لحسن صنيعه معه ، ففعل) .

وفي اعتقادنا ان سياسة الشريف أحمـد لم تتغير بسبب هذا الحادث وإكراماً للشريف منصور ، وإنمـــا تغيرت بسبب ظروف خاصة كانت تحيط بالشريف المذكور ، فقد جاء ، من قبل ، إلى مكة موظف تركي معروف ، هو (محمد بك الملقب بأبي الذهب) ، فعزل الشريف أحمد عن الشرافة وأجلاه عن مكة وجعل مكانه (حسين بركات) ، ولكن الشريف أحمـد قتل الشريف حسين واستعاد إمارة مكة ، فكره الأتراك ، وأحبّ الوهابيين لأنهم مثـله يكرهون الترك ، وكان إطلاق الشريف منصور فرصة ظهرت فيها عواطف الشريف المكنونة او المكبوتة .

قرر هذا الشريف أن يعيش بسلام ومودة مع الدرعية ، بل أحب أن يشرك قومه في التفتح لدعوة الشيخ ، فكتب اليه كتاباً رقيقاً يطلب فيه إرسال واحد من علمـــاء نجد إلى مكة ليبين لعلمائها الأمر الذي يدعو اليه ، فاستجاب الشيخ لطلبه وأرسل إلى مكة ، بمشورة عبـد العزيز وموافقته ، عالماً كبيراً هو الشيخ عبد العزيز الحصين .

رسالة الشيخ الى الشريف :

ويقول ابن غنام ان الشيخ الحصين حمل معه إلى شريف مكة رسالة من الشيخ وعبد العزيز ، ولكن الرسالة تبـــدو صادرة عن رجل واحد ، هو الشيخ ، وهذا نصُّها :

بسم الله الرحمن الرحيم

(المعروض لديك ، أدام الله فضل نعمته عليك ، حضرة الشريف أحمد ابن

الشريف سعيد ، أعزّه الله في الدارين ، وأعزّ به دين جده سيد الثقلين .

إن الكتاب لما وصل إلى الخادم ، وتأمّل مـا فيه من الكلام الحسن ، رفع يديه بالدعاء إلى الله بتأييد الشريف ، لما كان قصده نصر الشريعة المحمـدية ومَن تبعها ، وعداوة مَن خرج عنها ، وهذا هو الواجب على ولاة الامور.. ولما طلبتم من ناحيتنا طالب عـلم ، امتثلنا للأمر ، وهو واصل اليكم ، ويحضر في المجلس الشريف ، أعزه الله تعالى، هو وعلماء مكة ، فإن اجتمعوا ، فالحمد لله على ذلك، وإن اختلفوا أخذ الشريف كتبهم وكتب الحنابلة ، والواجب على كل منا ومنهم أن يقصد بعمله وجه الله ونصر رسوله ، كما قال تعـالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ﴾ إلى قوله : ﴿ لتؤمنن به ولتنصرنه ﴾ ، فإذا كان الله سبحانه قـد أخذ الميثاق على الأنبياء ان ادركوا محمداً ﷺ ، على الإيمان به ونصرته ، فكيف بنا يا أُمته ؟ فلا بد من الإيمان به ولا بد من نصرته ، ولا يكفي أحدهما عن الآخر، وأحق النـاس بذلك وأولاهم أهل البيت الذين بعثه الله منهم وشرّفهم على أهل الأرض ، وأحق أهل البيت بذلك من كان من ذرّيته ﷺ .

وغير ذلك ، يعلم الشريف ، أعزه الله ، ان غلمانك من جملة الخدام ، ثم أنتم في حفظ الله وحُسن رعايته .)

المناظرة :

ويقول ابن غنام ان عبد العزيز الحصين ، لما وصل مكة ، (نزل على الشريف الملقب بـ « الفعر » واجتمع هو وعلماء مكة عنده، وهم: يحيى بن صالح الحنفي، وعبد الوهاب بن حسن التركي ، وعبد الغني بن هلال، وتفاوضوا في ثلاث مسائل وقعت المناظرة فيها :

الاولى ـــ ما نسب الينا من التكفير بالعموم .

الثانية ـــ هدم القباب التي على القبور .

الثالثة ـــ إنكار دعوة الصالحين للشفاعة .

فذكر لهم الشيخ عبدالعزيز أن نسبة التكفير بالعموم الينا زور وبهتان علينا. وأما هدم القباب ، فهو الحق والصواب ، كما هو مسطور في غير كتاب ،

وليس للعلماء فيه شك ولا ارتياب .

وأما دعوة الصالحين وطلب الشفاعة منهم والاستغاثة بهم في النوازل ، فقد نص عليه الأئمة الفواضل ، وقرروا أنه من الشرك الذي فعله الأوائل ، ولا يجادل في جوازه إلا كل ملحـــد جاهل .. فأحضروا من كتب الحنابلة (الاقناع) ، فرأوا عبارته في الوسائط وحكايته الاجمـاع ، فصار لهم بتلك العبارة اقتناع ، ولهم الى الإقرار إسراع ، وتفوّهوا بأن هـــذا دين الله وانتشر بينهم وشاع ، وقالوا هذا مذهب الإمام المعظم ، وانصرف عنهم عبد العزيز مبجّلاً مكرّما).

ذلك قول ابن غنـام ، وأما ابن بشر فإنه يكتفي بالإشارة إلى رحلة الشيخ الشيخ عبد العزيز الحصين إلى مكة ولا يذكر شيئاً عما حدث فيها .

عهد الشريف سرور بن مساعد :

في العام ١١٨٦ ثار الأشراف على الشريف أحمد بن سعيد وأجلوه عن مكة وولوا مكانه سرور بن مساعد ، وكانت دسائس الترك وراء ذلك ، والله أعلم .

وقـد امتدت ولاية الشريف سرور بن مساعد من عام ١١٨٦ هـ . إلى عام ١٢٠٢ هـ . أي ست عشرة سنة ، وقد أذن هذا الشريف لأهل نجد بالحج الى مكة عام ١١٩٧ هـ . ولم يقم بأي عدوان على نجد .

ويقال انه كتب إلى السلطان العثماني مظهراً تخاوفـه من توسع الوهابيين ، ونسب اليهم التفكير في الهجوم على الحرمين ، وطالب بإعطائه المساعدات اللازمة للوقوف أمامهم ومقاومتهم ، وقيل كذلك انه كتب إلى ولاة الشام وبغـــداد وجدد يسألهم عن المعونة التي يستطيعون تقديمها اليه فيما إذا أراد تجهيز حملة ضد الوهابيين ، فكانت الردود في جملتها غير مشجعة .

ويقول المؤرخ التركي جودت باشا إن والي جدة كتب إلى الباب العالي إن تخاوف شريف مكة من الوهابيين في غير محلهـا ، وإن المسألة ليست أكثر من « حرب كلامية » ، ومناظرات في العقائد ، وليس وراءها شيء ..

ويلوم هذا المؤرخ التركي الحكومة العثمانية لتهاونها في مساعدة شريف مكة قائلاً : لعلها كانت تظن انه يريد استخدام أسلحتها ومواردها في احتلال نجد ،

لضمها إلى أملاكه ، مع انه مـا كان يفكر في ذلك قط .. ومهما يكن الأمر ، فقد كان لهـذا الشريف فضل يذكر في الوقوف أمام تفاقم النفوذ الوهابي في الحجاز ، لأنه كان محبوباً من الشعب ، وقد زاده زواجه من بنت سلطان مراكش شهرة ومكانة ..

الهدايا تليّن قلب الشريف :

ويقول ابن غنام في أخبار سنة ١١٩٧ :

(وفيها أهدى عبدالعزيز إلى سرور والي مكة ، خيلاً وركاباً ، وكرمه بذلك وشرفه ، وقصده بذلك التشريف والإكرام واهدائه النفيس الرخصة لأهل الدين والإسلام في أداء .. خامس أركان هذا الدين .. الذي منعوه من سنين .. فجاء الأمر في ذلك بالرخصة ، فشمر المسلمون .. فحجوا ذلك العام ، وكانوا نحو ثلاثمائة) .

وصف سرور :

نقل ده غوري في كتابة « حكام مكة » عن شارل ديديه ، الذي زار الحجاز في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، وصفه للشريف سرور ، قال : كان سخياً جداً ، وشجاعاً ، ومنصفاً حتى مع أشد أعدائه ، وكانت سياسته متجهة إلى اصلاح الضرائب التعسفية وإصلاح الإدارة ، وبالجملة كان لويس الحادي عشر الحجاز ..

ويقول القاضي محمد بن علي الشوكتاني في كتابه « البدر الطالع » :

.. طار صيته في الآفاق وبلغ من المجد والسعي في أعمال الخير وتأمين السبل ما لم يبلغ اليه أحد من آبائه ، ولقـد كانت أخبار الوافدين للحج إلى بيت الله الحرام تخبر عنه بأخبار تسر القلوب وتشنف الاسماع .. وكان عظيم السطوة شديد الصولة قامعاً للفساد راعياً لمصالح العباد كثير الغزو لمردة الأعراب الذين يتخطفون الناس في الطرقات ، ثم مات في رجب سنة ١٢٠٢ هـ .) .

الشريف غالب بن مساعد[1] :

في العام ١٢٠٢ هـ . (١٧٨٦ م .) ، بعد وفاة الشريف سرور ، خلفه أخوه عبد المعين ، ولكنه لم يبقَ في الشرافة أكثر من يوم او بعض اليوم، ثم تخلى عنها لأخيه الشريف غالب .

ويقول ابن دحلان ان الخلعــــة السلطانية وصلت الى مكة في ذي القعدة ، فلبسها الشريف غالب بن مساعد ، بعد قراءة الفرمان السلطاني بالحطيم .. وأمر بالزينة ثلاثة أيام ..

وفي شهر ذي الحجة فارقه بعض الأشراف وذهبوا الى عشائر هذيل اليمانيــة وعادوا بها لمقاتلته ، فاستعان عليها ببعض العساكر الشامية ، التي كانت مع أمير الحاج الشامي ، وهزمهم ، فساروا الى الطائف ، فهزمهم ، ثم ساروا الى سل ، ثم عادوا الى مكة ، وجددوا القتال معه فهزمهم .. ثم تصالحوا ودخلوا مكة بأمان .

وفي العـــام ١٢٠٣ (حصل خلاف بين والي جدة .. وبين وزير الشريف ، فأغلق الباشا الفرضة والقبان ، وقلد قاضي الشرع بالمقاليد ، فجعل القاضي ينزل الفرضة لجمع العشور ويضبط ما تحصل من المال .. ثم عزل الشريف قاضيه لأنه سبب الفتنة .

وفي ذلك العـــام أغرى أحد أنصار الشريف سرور أحد أولاده ، وهو الشريف عبد الله بن سرور ، وكان صبياً لا يتجاوز عمره الثانية عشرة ، بأن يطلب الشرافة لنفسه ، وجمع له ٥٠٠ عبــد وضربوا بالرصاص على بيت الشريف غالب وقطعوا طرقات مكة أياماً ، ثم تمَّ التغلب عليهم وهرب موقظ الفتنــة الى مصر) .

---

(١) يقول ديديه ، في وصف الشريف غالب : (كان رجلا جسيماً ، تعلم صناعة الحرب وهو فتى ناشىء ، وكان جذاباً حلو الحديث مهذباً ولكنه مستبد) . انظر حكام مكة .

المكاتبات بين الشريف والدرعية .. والمناظرة :

كانت السنتان الاوليان من حكم الشريف غالب - كما رأينا - مستغرقتين بأفراح الخلعة السلطانية ثم بالفتن الداخلية . فلما انتهى من ذلك واستقر حكمه، كان لا بد له من تحديد سياسته نحو الدرعية ، وخصوصاً قضية الحج .. فبدا له أن يكتب الى الإمام عبد العزيز ويطلب منه عالماً من أهل نجد يشرح له حقيقة الدعوة .. فلما وصلت رسالته الى عبد العزيز والشيخ، اختارا له الشيخ عبدالعزيز الحصين ، الذي أوفد الى مكة من قبل بمثل هذه المهمة ..

وصل الشيخ عبد العزيز الى مكة فأكرمه الشريف غالب واستمع الى أقواله في أكثر من مجلس ، وكانت مع الشيخ رسالة كتبها الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى علماء مكة ، هذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

(من محمد بن عبد الوهاب الى العلماء الأعلام في البلد الحرام نصر الله بهم سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام ، وتابعي الأئمة الأعلام ،

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد .. جرى علينا من الفتنة ما بلغكم وبلغ غيركم ، وسببه هدم بنيان في أرضنا على قبور الصالحين ، ومع هذا نهيناهم عن دعوة الصالحين وأمرناهم بإخلاص الدعاء لله ، فلما أظهرنا هذه المسألة مع ما ذكرنا من هدم البناء الذي على القبور كبر على العامة وعاضدهم بعض من يدّعي العلم ، لأسباب ما تخفى على مثلكم ، أعظمها اتباع الهوى ، مع أسباب أخر ، فأشاعوا عنا أنّا نسب الصالحين وأنّا على غير جادة العلماء ، ورفعوا الأمر الى المشرق والمغرب ، وذكروا عنا أشياء يستحيي العاقل من ذكرها ، وأنا اخبركم بما نحن عليه، بسبب ان مثلكم ما يروج عليه الكذب على أناس متظاهرين بمذهبهم عند الخاص والعام ..

فنحن، ولله الحمد ، متبعون لا مبتدعون، على مذهب الإمام أحمد بن حنبل. وتعلمون - أعزكم الله - ان المطاع في كثير من البلدان لو يتبين بالعمل بهاتين المسألتين انها تكبر على العامة الذين درجوا هم وآباؤهم على ضد ذلك ، وأنتم

تعلمون – رحمكم الله – أن في ولاية الشريف أحمـــد بن سعيد وصل اليكم الشيخ عبد العزيز بن عبد الله ، وأشرفتم على ما عندنا ، بعد ما أحضروا كتب الحنابلة التي عندنا عمدة ، كالتحفة والنهاية عند الشافعية ، فلما طلب منا الشريف غالب – أعزه الله ونصره – امتثلنا ، وهو اليكم واصل ، فإن كانت المسألة إجماعاً فلا كلام ، وإن كانت مسألة اجتهاد فمعلومكم انه لا إنكار في مسائل الاجتهاد ، فمن عمل بمذهبه في محل ولايته لا ينكر عليه ، وأنا أشهد الله وملائكته اني على دين الله ورسوله ، واني متبع لأهل العلم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .)

علماء مكة يستكبرون .. ويرفضون المناظرة :

طلب الشيخ عبد العزيز من شريف مكة أن يجمعه بعلمـــاء مكة ليناظرهم ويبين لهم حقيقة الدعوة ، ولكن علماء مكة رفضوا المناظرة، وأجابوا الشريف بأن (هؤلاء جمـاعة ، ليس عندهم بضاعة ، إلا إزالة نهج آبائك وأجدادك ، ورفع يدك عن معتادك وجوائز بلادك .

فطار لبُّه وارتعش قلبه) .

ذلك ما قاله ابن غنام عن مهمة الحصين الجديدة في مكة ، وأمـا ابن بشر فلم يُشِرْ اليها إطلاقاً .

الشريف غالب يتنكر للدرعية :

لما رأى الشريف غالب توسُّع الحركة الوهابية وانضمام بعض العشائر الحجازية – او الخاضعة لنفوذ الشريف – اليها ، خاف منها من ملكه، فكتب الى الدولة العثمانية يبين لهـا (خطر) الوهابيين ويخوفها من هجومهم المرتقب على الحرمين ويطلب منها الإسراع في إمداده بالرجال والسلاح لمقاومتهم، ثم كتب الى الولاة العثمانيين في العراق والشام يندبهم الى القتـــال معه .. فلم يستجب اليه أحد، وأخيراً .. رأى أن يبدأ هو – وحده – الحملة على نجد ، لعلهـا تصيب بعض النجاح ، فتشجع الولاة العثمانيين على تأييده ، او تحمل بعض البلدان والعشائر التي قبلت الدعوة الوهابية مكرهة – في زعمه – على الثورة والانتقاض .

ويزعم مؤلف اللمع ان سبب عداء الشريف غالب للدرعية هو ان سعود بن عبد العزيز غزا قوماً من (مطير) كانوا معاهدين وملتجئين للشريف [1] ، وان الشريف — من جهة ثانية — لما (رأى ان عبدالعزيز أدخل يده في ملك بني خالد، خشي ان يدخل النقص عليه في ملكه ، وكان الشريف « مهيوباً » وله جاه كلي في جزيرة العرب وغيرها من الأقطار الإسلامية ، فبدأ الشريف غالب بتهيئة الحرب وأسبابها .. وقد استمال الشريف كثيراً من بداة نجد كمطير وعتيبة والبقوم وأهل تربة وسبيع وغيرهم من القبائل ، وكذا كثير من قحطان وبعض الدواسر ، فأطاعوا الشريف غالب ، و « اختلفوا » على عبد العزيز ، وهذا في مدة شهر او شهرين من تلك السنة التي وقع فيها ابتداء الحرب بين الشريف وبين آل سعود) .

ويقول المؤلف المذكور أيضاً ان الشريف غالب كتب الى رؤساء الاحساء يشجعهم على حرب عبد العزيز ويعدهم الالتقاء بهم على أرض نجد [2] .

معارك الشريف غالب :

يقول ابن دحلان ان الشريف غالب قام بأكثر من خمسين غزوة ضد الوهابيين في نجد ، وضد أنصارهم وحلفائهم في الحجاز وعسير ، وذلك من سنة ١٢٠٥ هـ. إلى سنة ١٢٢٠ هـ .

وقد تمعنا في رواياته لهذه الغزوات فوجدنا أكثرها حملات يسيرة صغيرة ضد جماعات أو أفراد من أنصار الدعوة الوهابية لا تستحق اسم غزوة .. وسنذكر على كل حال أهم تلك الغزوات .

---

(١) ذكر ابن غنام في أخبار سنة ١٢٠٥ غزو سعود لمطير بأرض الجريسية وقتله منهم خمسين نفرا واستيلائه على أموالهم .

(٢) يقول مؤلف اللمع ان الشريف غالب كان عند غزوه الأول لنجد حديث السن لم يعط تدبير الحروب، وإن سبب رجوعه إلى مكة إن الميرة قلت عنده، وخاف أن يدخل أحد أمراء الترك مكة في غيابه وينصب شريفاً غيره ، لأن الأتراك لم يكونوا راضين عنه .. ثم يستدرك فيقول : ولكن الحق الصحيح انه عجز عن الحرب .

غزوة السر – عام ١٢٠٥ هـ . :

سارت الغزوة الأولى من غزوات الشريف غالب إلى نجد بقيادة أخيه الشريف عبد العزيز بن مساعد ، ويقول ابن بشر في وصفها :

(سار عبد العزيز بقوة هائلة وعدد وعدة وعسكر كثيف ، نحو عشرة آلاف أو يزيدون ، ومعهم أكثر من عشرين مدفعاً ، وكان قصدهم الدرعية ومنازلتها ، فضلاً عن غيرها من البلدان ..

فأقبلت تلك العساكر والجنود ، وسار معهم كثير من بوادي الحجاز وشمر ومطير وغيرهم ، فملأوا السهل والجبل ، وصار في قلوب المسلمين منهم وجل ، فنازلوا (قصر البسام) المعروف في السر ، وحاصروا أهله أكثر من عشرة أيام ونصبوا عليه المدافع وضربوه ضرباً هائلاً فكادوه بأنواع القتال وليس في ذلك القصر إلا نحو من ثلاثين رجلاً من أهله ومن هيتم وغيرهم .

فلما رأى الشريف عبد العزيز امتناع هذا القصر ، ولم يعطوه الدنية ، رحل عنهم . وكان بناء هذا القصر ضعيفاً وأهله أضعف ولكن الله إذا قضى أمراً كان مفعولا) .

غزوة الشعراء – سنة ١٢٠٥ هـ . :

يصف مانجان غزوة السر كما وصفها ابن بشر ، ثم يقول إن الشريف عبد العزيز لما رأى عجزه وضعفه أراد الاحتيال على أخيه الشريف غالب ليحضر وينجده ، فأرسل اليه كتاباً يقول فيه إن كثيراً من أهل نجد تركوا ما كانوا عليه من « الضلال » وعادوا إلى الجماعة ، وهم ينتظرون مجيء الشريف غالب للانضمام اليه والمبايعة له .. فأسرع الشريف غالب بالحضور ، وكان معه مقاتلة كثيرون من الحضر والبدو ، وحاصر هو وأخوه بلدة الشعراء في عالية نجد قريباً من شهر .. فلم ينالوا منها منالاً فعادوا إلى مكة خاسرين .

ويقول ابن بشر إن حصار الشعراء دام أكثر من شهر ، وان الشريف غالب ورجاله كادوها بأنواع القتال .. وجعلوا بين رصاص المدافع سلاسل من الحديد

وربطوا فيها ضلوع الحديد وضربوا بها الجدار .. فلم ينفعهم ذلك واضطروا إلى الرحيل عنها ، بعد أن قتل منهم أكثر من خمسين رجلاً ، ولم يكن في تلك القرية إلا نحو أربعين رجلاً ..

ويزعم ابن دحلان ان الشريف غالب استجاب لطلب أهل الشعراء الذين التمسوا منه الأمان فأعطاهم الأمان وعاد إلى مكة ليحضر موسم الحج .

وصف المعارك في المقامات :

وصف الشيخ عبد الرحمن بن موسى معركتي قصر بسام والشعراء في مقامه الرابع ، قال :

(..ما جرى من العبر في حرب أشراف مكة لهذه الدعوة والطريقة المحمدية وذلك أنهم من أول من بدأ المسلمين بالعداوة فحبسوا حاجهم فمات في الحبس منهم عدد كثير ومنعوا المسلمين من الحج أكثر من ستين سنة .. وفي هذه المدة سار اليسم الشريف غالب بعسكر كثيف وكيد عنيف ، فقدم أخاه عبد العزيز قبله بالخروج فنزل على قصر بسام فأقام مدة يضرب بالمدافع والقنابل وجرّ عليه الزحافات ، فأبطل الله كيده على هذا القصر الضعيف بناؤه القليل رجاله فرحل منه ووافى (غالبا) ومعه أكثر الجنود، ومعه من الكيد مثل ما كان مع أخيه أو يزيـد ، ونزلوا جميعاً بـ (الشعرى) فأخذ يحربهم بكل كيد ، فأعجزه الله هو ومن تبعه عن ذلك البنـاء الضعيف الذي لم يتأهب أهله للحرب بالبناء ولا بالسلاح فأبطل الله كيده ورده عنهم بعد الاياس والافلاس ، فسلط الله المسلمين على من كان معه من الاعراب وخصوصاً « مطير » فأوقع الله بهم (العدوة) ، ومعهم مطلق الجربا فهزمهم الله تعالى وغنم المسلمون جميع ما كان معهم من الإبل والخيل وسائر المتاع) ..

معركة العدوة مع مطير وشمر وحصان ابليس .. ومسلط الجربا :

يصف لنا ابن بشر معركة العدوة — التي جاء ذكرها في المقامات — ومـا

كان لها من ذيول فيقول : ان سعود أراد معاقبة البوادي من مطير وشمر التي انضمت إلى الشريف غالب وساعدته ، فتبع هؤلاء البدو ، بعد أن انفردوا عن عن الشريف عائدين إلى مواطنهم ، وكانوا قد نزلوا على مـــاء قرب بلد حائل يدعى (العدوه) فلما التقى الجمعان وقع بينهم قتال شديد ، انتهى بهزيمة البدو هزيمة ساحقة ، وقد قتل من مشاهير فرسانهم: مسعود الملقت(حصان إبليس) وسمرة رئيس العبيات من مطير وغيرهمـــا كثير ، وغنم المسلمون إبل المغلوبين وغنمهم وأثاثهم وأمتعتهم وكل ما في محلتهم .

ويردف ابن بشر بعـد ذلك قائلاً : (وهذه الوقعة في آخر الأضحى ، فلما انهزم اولئك البوادي استنفروا ما يليهم من قبائلهم وغيرهم ممن لم يحضر الوقعة وأرسلوا الى سعود يدعونه للمنازلة وانهم يريدون ان يسيروا اليه ، فثبت لهم وأقبلوا اليه مقرنين الإبل ، وهو على العدوة يقسم الغنائم ، فساقوها على جموع المسلمين ، فثبتوا لهم .

وكان في مقدم البوادي (مسلط بن مطلق الجربا) ، وكان قد نذر ان يحشم فرسه صيوان سعود ، فأراد ان يتم نذره ، فاختطفه المسلمون وضربه رجـــل بشوى قرص فطرحه عن جواده فقتل ، وانهزمت تلك البوادي لا يلوي أحد على أحد ولا والد على ما ولد ، وتركوا الإبل مقرنة في الحبال فتبعهم المسلمون وأخذوا جميع أموالهم من الإبل والغنم والأمتعة ، وأقاموا في اثرهم نحو يومين او ثلاثة يأخذون من الأموال ويقتلون الرجال ، وحاز سعود جميع الغنائم من الإبل ، نحو أحد عشر الف بعير وأكثر ، ومن الغنم أكثر من مائة الف ، وعزل الخمس ، وقسم باقيها في المسلمين ، للراجل سهم وللفارس سهمان) [١] .

---

(١) في اللمع أن مطير انحازوا الى أرض شمر واتفقوا مع مطلق الجربا وبادية شمر ، فكره الحضر في حائل هـذا الحلف وأرسلوا الى عبد العزيز يطلبون النجدة ، فأمر ابنه سعود بالذهاب الى هؤلاء البدو ومقاتلتهم ففعل ، وكان معه رجال من العارض وكذلك (هـادي بن قرملة) في جماعة من قحطان .. وان مطلق الجربا جلا الى العراق بعد هزيمته ومصرع ولده .

الشريف يستنجد بالأتراك :

عاد الشريف غالب الى مكة ، بعد هزيمة الشعراء ، مهيض الجناح ، ورأى نفسه في رقعة ملكه الصغيرة كمن يعيش في جزيرة تضربها الأمواج من كل جانب وتتهددها بالفيضان والغرق ، ذلك ان الدعوة الوهابية انتشرت بين القبائل الحجازية وامتدت الى عسير واليمن، وعرف الشريف غالب انه لا يستطيع كسر هذا الطوق الذي أحكم حوله ووقف المدّ الوهابي المتعاظم إلا إذا مدّت اليه الدولة العثمانية يد المساعدة فأعادت الى طاعته هذه القبائل التي تمرّدت عليه وبايعت لعبد العزيز على السمع والطاعة ، ففقد بفقده لها أنصاراً وموارد ومنعة، وأصبح يترقب النقص ويخشى الزوال ..

هل بالغ الشريف غالب في تصور الخطر الوهابي على الحرمين او في تصويره للناس ، ليدفع السلطان العثماني وولاته في الشام والعراق ومصر الى التدخل لمصلحته ، أم كان هذا الخطر حقيقياً وهو يحاول تفاديه بإخلاص ؟

لقد جمع الشريف علماء مكة والمدينة واستكتبهم رسائل الى السلطان العثماني يطلبون فيها النجدة العاجلة لإنقاذ البلاد المقدسة من خطر عظيم يتهددها.. فأهل السنّة معرّضون للذبح ، وقبر النبي ﷺ سوف يستباح .. و (دلائل الخيرات) سوف تُمزق وتُحرق.. الخ. الخ . إذا ترك السلطان الدعوة الوهابية تقرع أبواب الحرمين.. ولم يسرع بإرسال جنوده لمقاتلة الوهابيين ووضع حد حاسم لتحدياتهم المستمرة .

هذا شيء من الأضاليل والسخافات التي كان يشيعها الشريف غالب ورجاله، ويقول ابن دحلان ان الشريف غالب أرسل في شعبان من سنة ١٢٠٧ هـ . مندوبين عنه — هما محسن الحمودي وحسين مفتي المالكية — الى استانبول لمقابلة السلطان وأصحاب الشأن، وتحريضهم على الوهابيين، ولكن أحداً لم يكترث لهما..

ويقول المؤرخ التركي جودت باشا ان الجزار حج عام ١٢٠٨ هـ . فشكا اليه الشريف ما يعانيه من صعوبات ومتاعب بسبب اعتداءات الوهابيين المتزايدة على المناطق الخاضعة لسلطانه ونفوذه منذ القديم..فأشار عليه بكتابة تقرير مفصّل

يبين كل ذلك وإرساله الى السلطان ، ففعـــل ، ولما وصل التقرير الى السلطان أرسله الى مجلس الشورى لدراسته وإبداء الرأي فيه ، فاجتمع المجلس، وكان بين أعضائه وزراء سبق لهم حضور ندوات عقدها (المولوية) ، ذكروا فيها ان الوهابيين يستنكرون (التجويد) في القرآن وقراءة (دلائل الخيرات) ويحرمون بناء القباب على القبور ، وبناء المآذن ، وطلب الشفاعة من الأولياء او من النبي ﷺ ، وانهم يرون الأكل بالملاعق بدعة .. الى أمور كثيرة قابلة للجدل، ولكن أخطر ما قالوه هو ان الشيخ محمـــد بن عبد الوهاب كان يهدد دائماً بتدمير مكة ومعاقبة أهلها وتهديم قبر الرسول ﷺ — كذا .. —

لم يرَ أعضاء المجلس ضرورة لاتخاذ أي إجراء، تلبية لطلب الشريف غالب، ولعلهم كانوا يعتقدون :

١ — ان القضية بين الوهـــابيين وخصومهم قضية مناظرات ومجادلات ومنافسات مذهبية وليس فيها خطر على الدولة .

٢ — ان القول باحتمال تأليف حكومة قوية في جزيرة العرب ، تحل محـــل السلطة العثمانية هو مجرد وهم او إيهام يقصد منه حمل السلطان العثماني على التدخل لمصلحة شريف مكة الذي يريد توسيع ملكه وتقوية نفوذه على حساب السلطان العثماني .

٣ — لم يستطع أعضاء مجلس الشورى الرد على حجج الوهابيين القوية في تأييد وجهات نظرهم ومعتقداتهم كما بيّنوها في كتاباتهم وكتبهم ، وأمـــا ما يقوله خصومهم فلا يمكن اتخاذه أساساً للبحث لأنه قـد يكون موضوعاً على ألسنتهم ومفترى عليهم .

ويخلص المؤلف التركي أخيراً الى لوم مجلس الشورى لأنه حمـــل الى نفس السلطان طمأنينة كاذبة ، فأهمل مواجهة الموقف بمـا ينبغي له من الحزم قبل أن يتفاقم الأمر وتتعاظم المصاعب .

والحقيقة هي أن الشريف غالب أخطأ كثيراً بتوجهه الى سلطان الترك ليردّ عنه ما يزعمه اعتداء من الوهابيين على (ممتلكاته) وعشائره ومنـــاطق نفوذه

وتلويحه بالخطر الوهابي على الحرمين وعلى أهل السنّة ونحو هذا.. ليحمل السلطان على التحرك والنجدة .. فقد كان أولى له وأنفع لبلاده وللمسلمين عامة أن يسعى جاهداً الى التفاهم مع الدرعية مهما يكن الثمن، فرجال الدرعية اخوان له عرب متمسكون بدينهم وأخلاقهم ، والاتفــاق معهم يضمن له وللعرب كرامتهم وحريتهم وعزتهم ، وليس الأمر كذلك مع السلطان العثماني ..

لم يتفتح قلب الشريف غالب لإدراك هذه الحقيقة إلا بعــد معارك خاسرة خاضها ضد الوهابيين، وبعد توثقه من استخفاف السلطان العثماني بشأنه. ويمكن القول ان معركة (الجمانية) ، كانت بدء التحول في سياسة الشريف غالب نحو الدرعية ، ومن المؤسف انه لم يستمر في سياسة الاخوة وعاد الى قديم عهـده في موالاة السلطان العثماني واستفزازه ضد أهل نجد .

وها نحن نلمّ بما كان بين الشريف والوهابيين من معارك حتى عام ١٢١١ هـ . وهو العام الذي أظهر فيه رغبته في التفاهم مع الدرعية .

معارك بين الشريف غالب والوهابيين (من سنة ١٢٠٨ الى سنة ١٢١٠ هـ) :

ذكر ابن دحلان خمس غزوات وقعت من الشريف غالب ضد أنصار الدعوة بين عام ١٢٠٨ هـ . وعام ١٢١٠ هـ . ، وهي :

١ — في ذي الحجة ١٢٠٨ هـ. هاجم المضايفي — وكان من رجال الشريف — برجال من البقوم وغيرهم جماعة ابن قيحان. وأخذ إبلهم وعاد بها إلى مكة .

٢ — في عام ١٢٠٩ هـ . سار الشريف غالب عبد المعين إلى « رغوة » حيث كان يقيم « هادي بن قرملة » ، فلما عرف هــذا مقدم الشريف هرب ، فسار الشريف إلى « رنية » ، وكان فيها ابن قطنان فأسره وأرسله إلى الشريف غالب فمنّ عليه وأطلقه ، فعــاد إلى الغدر ، ثم استطاع الشريف غالب أن يمسك به فقتله ، ثم سار الشريف إلى بريم وشعيا ثم إلى سياج الخيل ، حيث كانت جماعة من المتوهبين من هتيم ومطير ، ففرت مطير ، وأما هتيم فبقيت فقتل منهم كثيراً وأخذ مواشيهم ثم رجع إلى مكة .

٣ – عام ١٢١٠ هـ . سار ناصر بن سليان إلى آل روق المتوهبين ، وقتلهم قتلة شنيعة وأخذ ابلهم .

٤ – عام ١٢١٠ هـ. أرسل الشريف غزواً إلى رنية ، حيث كان ينزل هادي ابن قرملة ، فقتلوا من جماعة هادي حوالي ١٠٠ ثم صادفوا جماعة من قحطان تحت امرة ابن قيحان ، فقتلوا عدداً منهم وأخذوا ابلهم .

٥ – عام ١٢١٠ هـ . التقى ناصر بن سليان في الشماس بجيش وهابي ، فيه ابن ربيعان وهادي بن قرملة والدوشان وغيرهم ، وقد قتل من جماعة الشريف ثلاثة وأربعون رجلاً ، واستولى الوهابيون على كثير من المواشي وعاد ناصر إلى مكة منهزماً .

لا يذكر ابن بشر ، في تاريخه شيئاً من هذه الغزوات ، ولكنه يتحدث عن غزوة قام بها عبد الله بن محمد بن معيقل ، صاحب بلد شقراء ، ضد بوادي عتيبة سنة ١٢٠٨ هـ . ويقول ان قتالاً شديداً نشب بين الفريقين في أرض البغث ،الجبل المعروف في ركبة ، « ثم وقع على الغزو هزيمة وأخذ من ركائبهم قريب مئة مطية ، وقتل من الغزو رجال وقتل من عتيبة عدد كثير » .

معركة الجمانية :

في عام ١٢١٠ هـ.أرسل الشريف غالب حملة بقيادة الشريف فهيد ضد بوادي قحطان التي كان يتزعمها هادي بن قرملة ، فأنزلت بهم خسائر فادحة ، ويقال ان الشريف فهيد أسر ابن قرملة ثم عفا عنه وأطلقه .

يسمي المؤرخ التركي جودت باشا هذه المعركة باسم « روغ النعام » ، زاعماً انه مكان المعركة ، ويقول ابن غنام ان البوادي التي كانت مع فهيد فاجأت ابن قرملة على ماء يقال له : (ماسل) ، وكانوا قد قتلوا « عيونه » حتى يعموا عليه أخبارهم ، فدهموه في بعض الشعاب فقاتلهم ثم انهزم، وقتل من بوادي قحطان التي كانت مع ابن قرملة ٣٠ رجلاً .

لم تسكت الدرعية عن هـذه الهزيمة تنزل بحليفها فقد سار سعود إلى الحجاز

وأغار على فرسان من عتيبة ومطير كانوا متجمعين في الحرة وقتل منهم ثلاثين رجلاً وسار مبارك بن هادي إلى ناحية نجران وأغار على بواديها وقتل منهم رجالاً وأخذ أموالهم وأرسل أخماسها إلى عبد العزيز .

ثم كانت المعركة الكبيرة التي ثأر بها سعود لهادي بن قرملة ...

وقعت المعركة في (الجمانية) ، وهي مورد ماء بعالية نجد ، ويبدو أن سعود لم يشترك فيها بنفسه ، ولكنه أرسل إلى هادي بن قرملة) الذي كان يقاتل حملة كبيرة جهزها ضده الشريف غالب بقيادة الشريف ناصر بن يحيى) جموعاً عظيمة من بوادي عتيبة ومطير والسهول والعجمان وغيرهم ، ثم انضم اليهم رجال الدواسر .

قال ابن غنام :

(فاجتمعت تلك البوادي والجنود قرب الماء المعروف بالجمانية في عالية نجد عند جبل النير ، من مياه قريبة منهم .

ثم إن الشريف ناصر سار بالجموع والعساكر العظيمة ومعهم مدفع ، ونزل على ماء الجمانية ، واجتمع عليه كثير من بوادي الحجاز بأموالها وأهلها ، فالتقت الجموع على الماء المذكور ، فحمل هادي بن قرملة ومن معه على جنود الشريف فولوا منهزمين ، فلحقتهم تلك البوادي والجنود ، ومنحهم الله أكتافهم وأموالهم فقتل منهم نحو ثلاثمائة رجل ، وغنم منهم هادي وجموعه من الإبل والغنم والأمتعة ما لا يعد ولا يحصى ، حتى ذكر ان الرجل والرجلين يحوزون مائة بعير ، وأخذوا خيمة ناصر ومدفعه ، وهرب ومن معه إلى أوطانه ، وعزلت أخماس تلك الغنائم وقبضها عبد العزيز) [1] .

---

(١) في ابن غنام ان عبد العزيز بعث محمد بن معيقل في أثر بوادي الشريف ، وأدرك منهم بني هاجر على الماء المعروف بالقنصلية قرب بلدة تربة فأغار عليهم وأخذ جميع أموالهم وقتل منهم نحو أربعين رجلاً .

وفد من علماء نجد الى مكة :

أراد الشريف غالب ، بعد هزيمة جنده في الجمانية ويأسه من معونة السلطان العثماني ،التقرب من الدرعية ،فأرسل مندوبين عنه الى الأمير عبدالعزيز في الدرعية ، ليطلبوا منه باسمه علماء من أهل نجد يحضرون معهم الى مكة ويبينون لأهلها حقيقة الدعوة التي نهض بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ورجال نجد . قال ابن غنام : (فلما عرف إمام أهل الإيمان ما قصده ذلك الإنسان ، وما حرص عليه من المناظرة لديه والتبيان ، رغب أن يكون انفتح له من الدعوة شي ، او نشر له من الحق طي ..

وكان من حسن سيرة عبد العزيز وفطنته ، وبديع هديه وسنّته .. انه يدعو الى الله تعالى بالتي هي أحسن وأحكم .. فرأى إسعافه بذلك المرام .. فعسى أن يكون له سبباً للسعادة ..

فعند ذلك أرسل اليه من أهل الدين مَن يكشف له عن شبه المبطلين ..)

وهكذا جاء الى مكة وفد من كبار علماء نجد ، عُرفوا بحسن المناظرة وقوة الحجة ، وكان على رأسهم الشيخ حمد بن ناصر بن معمر ، وقد أرسل معهم سعود جزوراً كثيرة لتنحر في المروة .

وصل علماء نجد الى مكة فاستقبلهم الشريف غالب بطلاقة وجه وأكرمهم كثيراً ، وعقد لهم في قصره مجالس للمناظرة مع علماء مكة .

بدأت المناظرة في ١١ رجب سنة ١٢١١ هـ . وكان الشيخ عبد الملك الحنفي أكثر علماء مكة مشاركة وحماسة في إيراد الأسئلة .

في المجلس الأول سأل علماء مكة لماذا يقتل الوهابيون مَن ينسبون اليهم الشرك ، مع انهم ينطقون بالشهادة ؟

فأجابهم الشيخ حمد أجوبة مُقنعة ، ولكنهم لم يرتضوها ، لأنها ليست في كتبهم ، كما قالوا .. فذكر لهم الشيخ الأدلة من كتبهم ، فسكتوا .

وفي المجلس الثاني سأل علماء مكة عن السبب في تحريم دعاء الأموات

والشفاعة ونحو ذلك ، فأجابهم الشيخ حمـــد أيضاً أجوبة ُمقنعة ، ولكنهم لم يقتنعوا بها وردُّوا عليها رداً شديداً .

وأخيراً طلبوا من الشيخ حمـــد أن يكتب لهم بخطه الحجج التي أوردها والأجوبة التي أجاب بهـا عن أسئلتهم لينظروا فيهـا ويقولوا رأيهم الصريح بمحتوياتها ، فاستجاب لطلبهم ، وكتب بذلك رسالة مطولة ، ُعرفت فيما بعـد باسم : (الفواكه العذاب في الرد على مَن لم يحكم السنّة والكتاب) .

لم يسلم علماء مكة بمـا ورد في رسالة الشيخ حمد وما كان ينتظر منهم أن يفعلوا ، لأن اولئك (العلماء) كانوا – في الحقيقة – في خدمة السلطان العثماني وكانوا يتناولون مرتباتهم منه او بأمره [1] .

---

(١) نشر ابن غنام رسالة الشيخ حمـد بنصها الكامل ، بينما أغفلها ابن بشر تماماً ، بل أغفل أمر المناظرة كله وما زلنا نتعجب من ذلك. وقد نشرت الرسالة في عدة مجموعات وطبعت مراراً.

وهذه رؤوس عناوين للمسائل وأجوبتها ، كما جاءت في رسالة الشيخ حمد :

المسألة الاولى : ما قولك فيمن دعا نبياً او ولياً واستغاث به في تفريج الكربات ؟

خلاصة الجواب : لم يقع مثل هذا ، لا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولا في عهد أصحابه. والموتى يدعى الله لهم ، ولا يجوز أن يكونوا وسائط بين الله وبين الناس ، يدعونهم ويتوكلون عليهم ، ومن يفعل ذلك يشرك ويكفر بالإجماع .

المسألة الثانية : من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ولم يصل ولم يزك هل يكون مؤمناً ؟

خلاصة الجواب : إن قالهـا ، وهو مقيم على الشرك يدعو الموتى ويسألهم قضاء الحاجات ، فهو مشرك .

واختلف العلماء في تارك الصلاة كسلاً من غير جحود، فأبو حنيفة، والشافعي في أحد قوليه، لا يكفرانه ، والإمام أحمد بن حنبل والشافعي في أحد قوليه ، يكفرانه !

والاجماع على أن الطائفة الممتنعة، تقاتل على ترك الصلاة ومنع الزكاة، وإن أقروا بالوجوب. وقد صرح العلماء أن أهل البلد إذا تركوا الأذان والإقامة يقاتلون، وصرحوا بأنهم لو تركوا إقامة صلاة الجماعة يقاتلون ، وكذا لو تركوا صلاة العيد !

وعلماء حرم الله الشريف ، يقولون : من قال لا إله إلا الله ، فقد عصم ماله ونفسه ، ولو لم يعمل بمقتضاها ، وإن لم يصل ولم يزك !

... وهل هذا إلا معارضة لكلام الله ورسوله وكلام أئمة المذاهب ؟ –انظر الصفحة التالية–

عربان الحجاز يدخلون في طاعة عبد العزيز :

أخذت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تنتشر بين بوادي الحجاز وبعض البلدان في جبال عسير ، مثل بيشة وتربة ، التي كانت خاضعة لأشراف مكة ، فأثار ذلك هلع الشريف غالب ودفعه إلى القتال مراراً ، ولكن قتاله لم يزد الدعوة إلا انتشاراً .

ويبدو لنا ان أقدم أنصار الدعوة في أعالي الحجاز وما يليها وأشهرهم هو : (هادي بن قرملة)، واسم أبيه غانم ولكنهم كانوا يدعونه باسم أمه قرملة [1].

وفد ابن قرملة على الدرعية عام ١٢٠١ هـ . وبايع وحضر دروس الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ثم عاد الى وطنه يدعو بدعوة الشيخ السلفية ، فأصاب نجاحاً كبيراً وأصبح رئيساً على (قحطان) ، بعد دخول جماعة كبيرة من هذه القبيلة في الدعوة ، ولم يكن ابن قرملة قبل ذلك من الرؤساء والأعيان، ولكن قدّمه علمه واخلاصه وشجاعته .

وفي العام ١٢٠٨ هـ . غزا ابن قرملة عشائر البقوم وبني هاجر وهزمهم واستاق ثلاثة آلاف من ابلهم،وقد اشترك معه في تلك الغزوة بأمر من عبد العزيز محمد بن معيقل،وكان معه جنود من أهل الوشم وعرب من مطير وعشائر أخرى.

وفي العام ١٢١٠ هـ . جهز الشريف غالب حملة بقيادة الشريف فهيد للانتقام

.. وفي الاقناع في كتاب الصلاة : .. فإن تركها تهاوناً وتكاسلا .. يهدده ، فإن أبى أن يصليها ... وجب قتله .. ولا يقتل حتى يستتاب ثلاثة أيام ...

المسألة الثالثة : وهي مسألة البناء على القبور ...

الجواب : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه نهى عن البناء على القبور وأمر بهدمه .

وعنه صلى الله عليه وسلم : أنه نهى أن يجصص القبر وأن يبنى عليه وأن يكتب عليه .

وعن علي رضي الله عنه: أنه قال لأبي الهياج الأسدي: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً إلا سويته !

وعن ابن عباس : لعن الله زوارات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج !

(١) ابن غنام .

من ابن قرملة ، وقد استطاعت هـذه الحملة مفاجأة ابن قرملة في شعب من الشعاب كان ينزل فيه وقتلت ثلاثين من رجاله ، ولكنه استطاع الافلات من أعدائه والنجاة ، وعاد مرة اخرى الى الإغارة على عشيرة البقوم في « تربة » ، وقتل منهم نحو مائة رجل وغنم ألوفاً من الإبل والأغنام ، فجاء رؤساء البقوم، في أعقاب هزيمتهم ، الى الدرعية وبايعوا لعبد العزيز على دين الله ورسوله .

وفي العام ١٢١٢ هـ . أرسل الشريف غالب فرقه من جنوده ، بقيادة صهره عثمان المضايفي ، الى (عقيلان) ، حيث كان ينزل مسفر بن نقيحان ، شيخ آل روق من بوادي قحطان، ولكن مسفر ورهطه وعرباً آخرين كانوا معه قاتلوا جند الشريف ومنعوهم من الوصول الى عين المـاء القريبة منهم وقتلوا خمسين جندياً فاضطرت الفرقة الى التراجع منهزمة حتى لا يموت رجالها عطشاً ان لم يموتوا في ساحة القتال .

وفي هذا العام ١٢١٢ هـ . أيضاً سار أمير الدواسر الى بيشة والجنينة وحاصرهما وقاتلها واضطرهما الى التسليم والبيعة لعبد العزيز على السمع والطاعة ولما بلغ ذلك إلى الشريف غالب أرسل فرقة من جنده إلى هاتين البلدتين وحاصرهما وأسر وقتل كثيراً من أهلها واستولى على كثير من أموالها ، ثم سار جنوده الى (رنية) ، فخرج أهلها اليهم وقتلوا منهم نحو مائة ، فانهزم جنود الشريف وعادوا الى مكة ..

اتفاق رؤساء عتيبة ورؤساء حرب وغيرهم ..

ولم ينقض هذا العام ١٢١٢ حتى تم التفاهم بين حمود بن ربيعان ، من رؤساء عتيبة ، وبين رؤساء (حرب) وغيرهم من عربان الحجاز ، على الدخول في طاعة عبد العزيز ، فأرسلوا وفداً منهم الى الدرعية وعرضوا على عبد العزيز المبايعة على السمع والطاعة ، فقبل منهم ، ولكنه (جعل على كل بيت شيئاً من الدراهم ، وعلى كل سلف ركاباً وسلاحاً وخيلاً ، وذلك عقوبة لهم نكالاً ، لأنهم مالوا الى طريق المبطلين .. وكان التنكيل بالمال .. سنة عبد العزيز في من عدل

عن الحق وركب طريق الاعوجاج .. وقبل عرب الحجاز مـا فرضه عليهم عبد العزيز وتمسكوا بطاعته) [١] .

معركة الخرمة :

لم يسَع الشريف غالب ، وهو يرى مـد البحر السعودي يحيط به من كل جانب ، إلا أن يجمع قواه لمعركة كبيرة حاسمة ، تعيد اليه تلك العشائر التي تتبع القوي دائماً .

فسار « بالعساكر العظيمة من البادي والحاضر و (المصارية) والمغـاربة وغيرهم في عدد وعدة وكيد هائل » [٢] الى قتال هادي بن قرملة ، الذي تحدّاه غير مرة، فرأى في طريقه عيوناً لابن قرملة فأمسكهم وتهددهم وسألهم عن مكان تجمُّع عربان قحطان مع رئيسهم ، فدلّوه على مكانهم ، فمشى اليهم ونازلهم وغنم منهم .

ثم سار الى (رنيه) التي دخلت في طاعة عبد العزيز ، ونزلهـا ابن قرملة ، فأبوا التسليم اليه ، فقطع نخيلهم وقاتلهم ، واستمرت المعـارك بينهم أياماً سقط خلالها أكثر من مائة قتيل ، ولكن (رنيه) بقيت صامدة ، فتركها ، وذهب الى (بيشة) بدعوة من جمـاعته ، الذين طلبوا منه أن يحضر الى بلادهم لتأديب خصومهم أنصار الدعوة ، الذين يهجرون البلدة وينضمون الى صفوف ابن قرملة، فأسرع الشريف اليهم وأقام في بيشة أياماً ، واعتقل من أهل الدعوة جماعة ، ثم سار عنهم الى « الخرمة » ، وفيها أنصار للدعوة ، فلمـا وصلها أمر بإحراقها فأشعلت فيها النيران ..

ولكن الشريف فوجىء بمـا لم يكن في حسبانه ، وذلك ان سعود – وكان غازياً من الشمال – أمر جنوده الذين من منطقة بيشة وما حولها ، أن ينفصلوا عنه ويذهبوا الى ابن قرملة ويكونوا تحت إمرته، كان الامام عبد العزيز – قبل

---

(١) ابن غنام .
(٢) ابن بشر .

ذلك — قد أرسل الى هادي بن قرملة أمير قحطان وربيع بن زيد، أمير الدواسر، والى قبائل من أخلاط البوادي كانوا مع جيش من الحضر (وأمرهم أن يجتمعوا ويكونوا في وجه الشريف ، فقوّى الله عزائمهم وساروا اليه حتى دهموه في منزله على الخرمة المذكورة ولم يقفوا دون خيامه ، فألقى الله الرعب في قلوب عساكر الشريف وانهزموا لا يلوي أحد على أحد وتركوا خيامهم ومحالهم وجميع أموالهم والقوم في ساقتهم يقتلون ويغنمون ... وكانت عدة القتلى ألف رجل ومئتين وعشرين رجلاً منهم الشريف مسعود بن يحيى بركات .. وغيره من الأكابر .

وأما النقد فمختلف فيه ، فمنهم من يقول ان في خزائن غالب خمسة عشر الف مشخص نهبت .. وغنموا جميع ما في المضرب من الأموال .. وأخذوا سلاحاً ..) وإبلاً وأمتعة ، وانصرف الشريف (وشريد قومه مكسوراً ، فلم تقم له بعد هذه الوقعة العظيمة قائمة ..) [١]

الشريف غالب يطلب الصلح فيجاب اليه :

في عام ١٢١٣ هـ . أرسل الشريف غالب ، بعد هزيمته الساحقة في الخرمة ، الى عبد العزيز يطلب منه المهادنة والمصالحة ، فأجابه الى ذلك .

لا يذكر ابن بشر شيئاً عن شروط الصلح الذي انعقد بين عبد العزيز والشريف ، وأما المؤرخ التركي جودت باشا فيقول ان الاتفاق يتضمن :

١ — المسالمة ، ووقف الحرب بينهما .

٢ — السماح للوهابيين بالحج الى بيت الله الحرام .

٣ — تعيين حدود للمالك والقبائل التي تحت طاعة الشريف والتي تحت طاعة عبد العزيز . وكان ممن في طاعة الشريف : القبائل التي حول مكة والمدينة والطائف وبنو سعد وناصرة وبجيلة وغامد وزهران والخو [٢] وبارق ومحائل .

وبالجملة ، كان الصلح قائماً على ركنين أساسيين : حرية الحج لأهل نجد ،

---

(١) ابن بشر .

(٢) لعلها المخوات .

واحترام كل من الفريقين لسيادة الفريق الآخر في أرضه وعلى العشائر التابعة له.

حرية الحج :

أما الحج فقد ضمن الشريف حريته، ويقول ابن بشر، في أخبار سنة ١٢١٤، ان سعود حجّ ذلك العام وحجّ معه أهل نجد والجنوب والأحساء والبوادي، (وكانت حجة حافلة بالشوكة وجميع الخيل والأثقال والنساء، واعتمروا وقضوا حجتهم على أحسن الأحوال ولم ينلهم مكروه، ورجعوا سالمين) . ويقول، في أخبار سنة ١٢١٥ هـ . ان سعود حجّ بالمسلمين للمرة الثانية (وكان أبوه عبدالعزيز على رأس الحجاج ولكنه مرض في بعض الطريق فرجع، فاحتفلوا احتفالاً أعظم من الاولى التي قبلها، وأجمل معه غالب أهل نجد ومَن تبعهم من البوادي وغيرهم بالنساء والأطفال، وقد اعتمروا وحجوا على أحسن حال، واجتمع سعود بغالب في مكة، وبذل سعود في مكة من الصدقات والعطاء شيئاً كثيراً .)

ويقول جودت باشا إن عدد الوهابيين الذين حجوا مع سعود في ذلك العام كان يزيد على عشرين ألفاً، وقد خشي الشريف أن يقع حدث في مكة، فبنى الأبراج والمتاريس حول شعابها وبثّ فيها رجالاً من العشائر الموالية له، هذا مع قيامه بحق الضيافة والتكريم والتوقير للأمير سعود وصحبه .

ويقول ابن دحلان ان الشريف غالب احترس من الوهابيين قبل قدومهم، فأمر أولاً ببناء سور الطائف، ثم ببناء الأبراج في أطراف مكة، فشيّد مداخل مكة بالأبراج، وطلب كثيراً من القبائل من جميع الفجاج، وترس جميع المداخل والأبراج، فلم يدخل سعود بجيشه مكة قبل الوقوف، بل نزل بعرفة، وكان معه ما يزيد على عشرين ألفاً، وفي أيام « منى »، في اليوم الثاني عشر، وقعت خصومة بين عربان الشريف وقوم سعود آلت إلى قتال بالرصاص، فما زال الشريف يمنع عربانه حتى كفّ القتال، وتبادل سعود والشريف الهدايا ...

احترام السيادة ثم الاخلال بها ونقض الصلح :

قلنـــا إن الركن الثاني من أركان الصلح بين مكة والدرعية هو احترام كل منهما لسيادة الآخر ، وقـــد بقي هـــذا الشرط مرعياً حتى سنة ١٢١٧ هـ . ثم وقع الاخلال به ، فرجال الدرعية يقولون إن الشريف غالب هو الذي أخل به ، وأنصار الشريف يقولون إن رجال عبد العزيز هم الذين خالفوه .

يقول ابن بشر في أخبار سنة ١٢١٧ هـ . : (وفي هذه السنة انتقض الصلح بين الشريف غالب وبين عبد العزيز بن محمد بن سعود ، وفارق الشريف وزيره عثمان ابن عبد الرحمن المضايفي ، وخرج من مكة وترك الشريف ونابذه ، ووفد على عبد العزيز وبايعه على دين الله ورسوله والسمع والطاعة) ... الخ .

لم يقل لنا ابن بشر كيف نقض الشريف الصلح ، وإنما اكتفى بتحميله تبعة النقض ، وهكذا فعل « الفقي » من بعده ، فقال إن الشريف غالب هو الذي نقض الصلح .. « فلم يرق ذلك في نظر المضايفي ، وزير غالب وزعيم عربان تربة وما جاورها ، فنبذه وخرج من مكة مغاضباً » .

والحق إن مجرد مغاضبة المضايفي للشريف ليس دليلا كافياً على سوء نيـة الشريف، بل هناك من يتهم المضايفي بسوء النية ، وانه كان يحسد الشريف غالب ويطمع بمكانه ، ولذلك « شوّه سمعة الشريف عند عبد العزيز وحرضه عليه » .

لا نعرف من جهة مؤرخ نجـد أسباب نقض الصلح ، وأما مؤرخو الحجاز والمؤرخ التركي جودت باشا فيحملون تبعة النقض المضايفي بالدرجة الأولى ، ثم رؤساء عسير المنضمين حديثاً إلى الدعوة ، ولا شك ان «عقدة» الشريف غالب من الوهابيين.. وشدة خوفه من كل نجاح تصيبه الدعوة بين قبائل الحجاز وعسير قد عجلتا في نقض الصلح .

يقول ابن دحلان إن سبب نقض الصلح ان الأمير سعود كاتب شيخ محايل سعدي بن بشار وشيخ بارق أحمد بن زاهر ، فصارا يفسدان كثيراً من القبائل

حتى كان منها من الفساد ما حصل به انتقاض الصلح . ويقول « دي غوري »
إن سبب نقض الصلح استيلاء الوهابيين على بلدة (حلى) .

وأكبر الظن ان الحوادث التي عكرت صفو العلاقات بين الأمير عبد العزيز
والشريف غالب كاستيلاء الوهابيين على حلي وتسلط ابن شكبان على قبائل زهران
ومهاجمة شيخ محائل للقنفذة لم تكن أموراً غير قابلة للحل والإصلاح ، ولكن
الشريف غالب لم يحسن التصرف حيالها ، وكان من أكبر أغلاطه انه انتدب
المضايفي لمفاوضة الدرعية ، وهو الذي يضمر له العداء .. ويقول ابن دحلان ان
المضايفي ذهب مع عدد من الأشراف الى الدرعية ، يحملون رسائل من الشريف
الى عبد العزيز ، فأحسن عبد العزيز استقبالهم (ولكن المضايفي .. شوّه سمعة
الشريف عند عبد العزيز وحرّضه عليه وتعهد له بتسليمه مكة وطلب منه أن
يوليه بلداناً سماها له ، لعل أبرزها الطائف .

ثم عاد المضايفي من الدرعية ، ولكنه لم يذهب الى الشريف غالب ليبلغه
جواب الإمام عبد العزيز ، وإنما ذهب الى بلدته (العبيلاء) ، ونصب فيها بيرقاً
ودعا الناس الى طاعته .

الاستيلاء على الطائف

يقول ابن بشر ، في أخبار سنة ١٢١٧ هـ . ان عثمان المضايفي نابذ الشريف غالب لنقضه الصلح الذي كان قائماً بينه وبين عبد العزيز ، وخرج من مكة ، وذهب الى الدرعية فبايع عبد العزيز على دين الله ورسوله والسمع والطاعة ، ثم عاد الى بلدته « العبيلاء » (القرية المعروفة بين تربة والطائف ، واجتمع عليه جنود من أهل الحجاز وغيرهم .

ثم سار الشريف غالب بالعساكر والجموع ونازله في العبيلاء ، ووقع القتال ، ولم يحصل الشريف غالب على طائل ، ورحل عنه ودخل الطائف .

ثم ان عثمان المضايفي استنجد من يليه من المسلمين ، من الحاضرة والبادية ، فسار اليه سالم بن شكبان بأهل بيشة وقراها ، ومصلط بن قطنان بأهل رنيه وقراها ومن كان عنده من سبيع ، وسار أيضاً حمد بن يحيى بأهل تربة ومعه البقوم ، وسار هادي بن قرملة ومعه جيش من قحطان ، وسار اليه غير ذلك من عتيبة وغيرهم ، فاجتمعت تلك الجموع عند عثمان ، فساروا الى الطائف ، وفيها الشريف غالب وقد تحصن فيها وتأهب واستعد لحربهم ، فنازلته تلك الجموع فيها ، فألقى الله في قلبه الرعب وانهزم الى مكة وترك الطائف ، فدخله عثمان ومن معه من الجموع ، وفتحه الله لهم عنوة بغير قتال ، وقتلوا من أهله في الأسواق والبيوت نحو مائتين ، وأخذوا من الأموال من البلد أثماناً وأمتاعاً وسلاحاً وقماشاً وشيئاً من الجواهر والسلع الثمينة ما لا يحيط به الحصر ولا

يدركه العد" ، وضبط عثمان البلد وسلمت له جميع نواحيه وبواديه ، وجمعوا الأخماس وبعثوها لعبد العزيز ، فقرر ولاية عثمان للطائف ، واستعمله أميراً عليها وعلى الحجاز .)

مناقشة رواية ابن بشر ومقارنتها بغيرها والزيادة عليها :

في رواية ابن بشر – كما يبدو لنا – مواطن ضعف ونقص ، فأما الضعف او الخطأ ففي قوله ان الاستيلاء على الطائف تمّ بدون قتال ، وأما النقص ففي قوله ان المضايفي استنجد بمن يليه من المسلمين ليحاربوا معه الشريف ..

ونبدأ من النقطة الثانية ، فمن غير المعقول أن يسير زعماء المناطق والعشائر الموالية لعبد العزيز الى قتال الشريف غالب لمجرد استنجاد المضايفي بهم . ولقد أحسن المؤرخ الفرنسي « مانجان » بقوله ان المضايفي ، لما عاد من الدرعية الى الحجاز ، كان يحمل معه رسالة من عبد العزيز الى الشريف غالب يخيّره فيها بين السلم والحرب ، ورسالة الى أمير بيشة أن يضع نفسه – في حال الحرب مع الشريف – تحت إمرة المضايفي ؛ وهكذا يفعل سائر الزعماء الموالين ..

لا يستبعد مانجان أن يكون المضايفي ذهب الى الدرعية بأمر من الشريف ، ولكنه كان يكتم في نفسه أمراً ، وقد أراد البقاء في الدرعية مدة من الزمان لاجئاً سياسياً ، ولكن عبد العزيز نصحه بالعودة الى الحجاز ، فعاد ، ولما وصل العبيلاء ، مكث فيها ولم يذهب الى الشريف غالب ليبلغه نتيجة مفاوضاته في الدرعية ، وإنما بعث اليه برسالة عبد العزيز مع رسول اختاره من رجاله الأمناء لهذه الغاية ، وقال له : أبلغ الشريف أن المضايفي لن يأتي لمقابلتك إلا إذا أعلنت طاعتك لعبد العزيز !

ولما سمع الشريف غالب كلمات المضايفي ، التي نقلها اليه رسوله ، وعرف تصميمه على عداوته واستعداده لمقاتلته ، غضب وثار ، وعزم على المسير اليه ، وسار اليه وقاتله في العبيلاء ، فلما عجز عنه عاد الى الطائف وتحصن فيها !

القتال في الطائف وهرب الشريف :

أبلغ المضايفي أنصارَ الدعوة في الحجاز وما جاورها رفضَ الشريف للصلح

وأمرَ عبد العزيز لهم بمحاربته،فجاؤوا اليه وساروا تحت قيادته لحرب الشريف في الطائف، وأغلب الظن أن ابن شكبان ورجاله هم وحدهم الذين وصلوا لنجدة المضايفي ، ومهما يكن الأمر فإن أهل الطائف حاربوا المضايفي وجماعته ثلاثة أيام ، ولما أدرك الشريف أنه غير قادر على المقاومة أحرق داره – كما يقول الجبرتي – وهرب إلى مكة .

ويزعم ابن دحلان ان الشريف لم يهرب من الطائف خوفاً على نفسه ، ولكنه خرج منها ليدافع عن مكة ، فقد بلغه ان ابن شكبان و مَن معه من العربان توجهوا اليها ، فأراد أن يحول دون ذلك لأن مكة أهم من الطائف ، ويزعم ابن دحلان أيضاً ان الشريف غالب – وقد رأى الخلل الذي وقع في صفوف عربانه وعساكره – عالجهم على القعود وحرّضهم على القتال وأعطى كل واحد (عشرة مشاخصة وتوجه إلى مكة على طريق المثناة ، ولما انفصل وغاب عن الطائف انفشل أهلها وذهلت عقولهم وتركوا الحصون والأسوار ، وخرج من الطائف رجل يسمى «دخيل الله بن جريب» فأسرع مُجداً في طلب الوهابيين واسترجاعهم بعد أن ولّوا مدبرين ، وأخبرهم بتوجه الشريف إلى مكة ، فرجعوا مقبلين ، وتقدمهم رجل يقال له « عبد الله البويخيت » ، وكان من كبارهم ، يمهد لهم الامور ويخبرهم بمن بقي في السور ، فدخلها مع دخيل .. وجاء إلى بيت ابراهيم الزرعة ، وكان من أعز أهل البلد ، فاتفق معه على مبلغ جزيل من المال يدفعه لسلامة أهل البلد ، وخرج البويخيت على أن يأتيهم بالأمان من عثمان وسالم بن شكبان ، فرماه بعض أهل الطائف برصاصة .. فكان فيها موته وهلاكه ، فلما علمت الوهابية بذلك حملوا على السور حملة واحدة ، ولم يوجد مَن له قدرة على قتالهم ومدافعتهم ، وكان جماعة من أهل الطائف خرجوا قبل ذلك هاربين فأدركتهم الخيل وقتلوهم وما سلِمَ منهم إلا القليل .)

مذبحة الطائف :

إذا صحّت رواية ابن دحلان ، كان مقتل البويخيت غدراً سبباً في إثارة

غضب الموحدين وانتقامهم ، ولكن شيئاً على كل حال لا يبرر كثرة الفظائع التي ارتكبت ضد أهل الطائف العزّل من السلاح، فقد استنكر أكثر المؤرخين هذه الأعمال .

وأما زعم ابن دحلان انهم قتلوا الأطفال الرضّع على صدور أمهاتهم .. ولم يبقوا حيّاً .. فمحض كذب وبهتان .

لقد قدّر ابن بشر قتلى الطائف ، في البيوت والأسواق، بمائتين، وقد يكون هذا الرقم صحيحاً او دون الحقيقة ، ولكن ابن بشر كان مطالباً بالتنبيه على الأخطاء التي وقعت في الطائف حتى يتعظ بها الناس ، وقد أدرك الإمام سعود ذلك ، فقال ، عند دخوله مكة ، انه جاء اليها ليشرف بنفسه على أمنها ، ويمنع أن يحدث فيها ما حدث في الطائف ، وفي هذا اعتراف بالأخطاء التي ارتكبت في الطائف واستنكار لها ، ولعل الإمام سعود مـا أسرع في إعطاء الأمان لأهل مكة إلا شفقة عليهم ومنعاً لتكرار مأساة الطائف في بلدتهم المقدسة .

الاستيلاء على مكة

بعد احتلال الطائف، وهزيمة الشريف غالب، أصبح الطريق إلى مكة ممهداً. فجمع سعود جموعه قرب (الزلفى) في موضع يعرف باسم (السبلة) وسار بها إلى الحجاز ، للاستيلاء على مكة ، فلما بلغ وادي العقيق نزل هناك .

رواية ابن بشر :

ويقول ابن بشر : (كان ذلك وقت الحج . وكانت الحجاج الشامية والمصرية والمغربية وإمام مسقط وغيرهم في مكة وهم في قوة هائلة وعدة ، فهموا بالخروج إلى سعود والمسير إلى قتاله ، ثم تخاذلوا وفسد أمرهم وانصرفوا إلى أوطانهم .

فألقي الله الرعب في قلب غالب وهو في مكة ، فلم يستقر فيها فانهزم إلى جده هو وأتباعه من العساكر، وحمل خزائنه وذخائره وبعض متاعه وشوكته.

ثم إن سعود والمسلمين رحلوا من العقيق ونزلوا المغاسل فأحرموا منها بعمرة ودخل سعود مكة واستولى عليها وأعطى أهلها الأمان وبذل فيها من الصدقات والعطاء لأهلها شيئاً كثيراً ، فلما فرغ سعود والمسلمون من الطواف والسعي ، فرق أهل النواحي يهدمون القباب التي بنيت على القبور ، والمشاهد الشركية — وكان في مكة من هذا النوع شيء كثير في أسفلها وأعلاها ووسطها وبيوتها — فأقام فيها أكثر من عشرين يوماً، ولبث المسلمون في تلك القباب بضعة عشر يوماً

يهدمون ، يباكرون إلى هدمها كل يوم ، وللواحد الأحد يتقربون ، حتى لم يبقَ في مكة شيء من تلك المشاهد والقباب إلا أعدموها وجعلوها تراباً .

وكان الشريف في هـذه المدة يراسل سعوداً ويخادعه ويطلب الصلح ويبذل المال ، وهو يريد أن يحصن جدة ويحمل ما فيها من السفن .

ثم إن سعوداً رحل من مكة ، واستعمل فيها أميراً عبد المعين بن مساعد الشريف ، ونازل جدة وحاصرها أياماً فوجدها محصنة بسور حصين وخندق دونه ، فرحل منها .. ورتب جنداً من المسلمين في قصر من قصور مكة ورجع قافلاً إلى وطنه .)

فتح مكة
في روايات الغربيين

رواية ابن بشر لدخول الوهابيين مكة ناقصة جداً ، فهو لا يشير إلى دفاع مكة الطويل، ولا يذكر شيئاً من الأخبار عما حدث خلال مقام سعود في مكة مع ان فتح مكة حدث جليل يستحق الكثير من العناية ..

لذلك أحببنا أن ننقل بعض ما رواه المؤلفون الغربيون عن فتح مكة ، ثم نذكر رواية المقامات فأقوال ابن دحلان ، فالجبرتي .

رواية بركهارت :

قال بركهارت :

(بعد احتلال الطائف ، تقدم سعود ورجاله نحو مكة ، واتخذوا معسكراً لجيشهم : (الحسينية) ، حيث كان أهل مكة الأغنياء يقضون فصل الصيف ، وهي على بعد ساعة ونصف من مكة ، ومن هناك أرسلوا رجالاً احتلوا «المعابدة» وقصر الشريف غالب ، ثم أخذوا يرسلون رجالاً لمناوشة أطراف مكة ، وقد قاومهم رجال غالب ، ولكن المكيين لقوا عناءً كبيراً ، لأن سعود — الذي كان استولى على عرفات — قطع المياه عن مكة ، وهكذا بقي المكيون محصورين يعانون شدة العطش وقلة المؤن ، وقيل إن بعض المكيين أكلوا القطط والكلاب..

وأخيراً رحل الشريف غالب إلى جدة ، مع جميع أفراد أسرته ، وأخذ

معه كل ما كان في قصره من أثاث وأمتعة ، ثم أحرق القصر ، حتى لا يسكنه خصمه ...

وبعد يوم واحد من رحيل غالب ، ذهب رؤساء الشعب المكي إلى سعود لتسليمه البلد وإعلان الطاعة والولاء ، فقبل سعود ذلك منهم ، ودخل مكة في نفس اليوم ...

وان أهل مكة ليذكرون بشعور الرضا والعرفان أن الوهابيين أحسنوا الدخول الى مكة، ولم يرتكبوا فيها أية قسوة أو هفوة، وقد افتتحت الحوانيت في مكة بناء على أمر سعود فصار الوهابيون يشترون منها حوائجهم ويدفعون أثمانها نقداً .

وقد ذكر سعود للعلماء الذين تحدث اليهم أنه كان قادراً على أخذ مكة واقتحامها بالقوة منذ زمن طويل ، ولكنه آثر الصبر والإنتظار حتى لا تقع على سكانها أمور يكرهونها، وأنه رأى في نومه النبي ﷺ فتوعده بالموت خلال ثلاثة أيام إن هو أخذ من أهل مكة حبة بر اغتصاباً [1] .

ونستطيع القول إن أهل مكة أصبحوا الآن « وهابيين » يؤدون الصلوات في مواعيدها في المساجد ، وقد خلعوا عنهم ثياب الحرير، وامتنعوا عن التدخين بل جمعوا أدوات التدخين ومواده على اختلافها وأخذوها إلى معسكر سعود حيث أُحرقت وأُتلفت ..

أقام سعود الشريف عبد المعين أميراً على مكة ، واختار شيخاً من الدرعية يدعى (ابن نامي) قاضياً لمكة ، وكان هذا القاضي نزيهاً عادلاً سريع الفصل في القضايا ، وعرف له المكيون فضله ، وقارنوا بينه وبين القاضي التركي ، الذي أرسلته اليهم استانبول ، وكان غارقاً في الرشوة .

أما الدعاء للسلطان العثماني من فوق منابر مكة ، فقد أُبطِلَ تماماً) .

---

(١) لم نجد هذه القصة إلا في كتاب بركهارت .

رواية كورانسيز :

ويقول كورانسيز :

(كانت سلطة عبد العزيز في ازدياد ، يوماً بعد يوم ، وقد زاد استيلاؤه على كنوز العراق في سمعة ثرائه .. وكان النــاس يستسلمون اليه لأنهم كانوا يخشون شدة انتقامه من أعدائه الذين يحاربونه !

كان يبـــدو ان أحداً لا يستطيع الوقوف في وجهه ، وكانت حالة من الذعر مسيطرة على الشرق العربي كله ، وفي هذه الفترة ، عزم عبد العزيز على أخذ مكة ..

... أفاد عبد العزيز من الخلاف القـــائم بين الشريف غالب وبين أخيه عبدالمعين، فعبدالمعين هو الأخ الأكبر وكان،لهذا السبب، أحق من غالب بمنصب الشرافة ، وكان مستعداً لمقـــاومة أخيه والسير مع عبد العزيز ، لذلك طلب عبد العزيز من الشريف غالب أن يترك منصب إمارة مكة لأخيه ، ولما رفض ، سارت جيوش عبد العزيز إلى مكة .

معركة مع عبد الله العظم ومفاوضته :

كان عبد الله باشا العظم ، والي دمشق، متجهاً نحو المدينة ، بقافلة من حجاج الشام،فلما وصل إلى (مزيريب) أوقفته جماعة مسلحة تتألف من (٤٠٠) وهابي، وطلبوا منه دفع مبلغ كبير من المال حتى يأذنوا له بمتــابعة طريقه ، فرفض ، وجرى بينهما قتال سقط فيه عدد من الوهابيين ، ثم تابع عبد الله مسيرته ، ولما وصل الحجاز، بعث كتاباً إلى سعود ، يقول فيه انه اضطر إلى المقاومة والقتال، لأن رجال سعود المسلحين اشتطوا كثيراً في مطالبهم ، ولم يكن مثل هذا يُصنع مع الحجاج من قبل ، وسأل سعود رأيه في هذه المسألة ؟

فأجابه سعود : الحق معك ! وأنا لم آتِ إلى هنا لأحارب السلطان . وأنت معذور في قتالك ، وأنا لا أريد أن أقاتلك ، وإنما جئت لمقاتلة الشريف غالب وحده ، وسأخرجه من مكة، وأجعل مكانه أخاه عبد المعين ، وأنت تستطيع البقاء في مكة ثلاثة أيام تتجهز خلالها لمغادرتها مصحوباً بالسلامة !

كان عبدالله باشا يصطحب معه الشيخ أدهم ، قاضي القدس ، الذي سافر إلى استانبول ، وطلب من مفتيها وأصحاب الشأن فيها أن يأذنوا له بسعى يقوم به للتقريب بين العثمانيين والوهابيين ، لأن التفاهم ممكن ، إذا تخلى كل من الجانبين عن تشدّده في بعض المسائل المختلف عليها ، فأذنوا له بالقيام بسعاه ووعدوه أن يتساهلوا في بعض الامور ، فسافر الشيخ أدهم إلى الشام ، ليتابع منها سفرته إلى الحجاز ونجد ، ولكنه خاف من تعريض حياته للخطر ، إذ بلغه تشدُّد الوهابيين في أمورهم وعدم استعدادهم لسماع ما ليس يعجبهم .. ولكن عبد الله باشا أكرهه على الذهاب اليهم .. ولا نعرف ماذا جرى له ، فقد احتجبت عنا أخباره !

في مكة ، لجأ الشريف غالب إلى عبد الله باشا ، ليقوم بمصالحته مع سعود ، فرفض سعود كل كلام في الصلح ، وهكذا غادر عبد الله باشا مكة إلى المدينة ، فهرب الشريف غالب ، ومعه باشا جدة ، إلى جدة .

سعود في مكة :

دخل سعود مكة ، وعاملَ سكانها برفق ، ولكنه قتل قاضيها العثماني «منيب أفندي» لأنه قاوم الوهابيين علناً ، وعاقب كذلك عشرين شيخاً عارضوه بشدة ، أما سائر المشايخ فقد أظهروا القبول والتسليم .

خرّب سعود الأضرحة [1] .. وخرب كذلك « الدكاكين » التي أقامها أهل مكة للبيع في موضع الطواف .. وأقام في قلعة مكة حامية وهابية ، وجعل عليها رجلاً من قِبَله ، كان حاكم مكة « الفعلي » ، أما عبد المعين فقد ولاّه سعود شرافة مكة ، ولكنه سلبه حقيقة السلطة ، بما جعل لأمير الحامية الوهابية من سلطان في مراقبة أعماله ..)

---

(١) لم يخرب سعود الأضرحة ، وإنما أمر بتهديم القباب والأبنية المشيدة عليها لما يقع بسببها من المحرمات ..

تقرير بريطاني سري عن احتلال مكة :

نشرت مؤسسة الدراسات الإسلامية في جامعة باريس عام ١٩٥٠ تقريراً بريطانياً سرياً عن احتلال مكة ، كتبه مستر جون باركر في يونيو عام ١٨٠٣ م في مدينة حلب وكان موصفاً كبيراً في السفارة البريطانية في استانبول .

هذه ترجمة التقرير ، في شيء قليل جداً من التصرف :

(وصلت حلب أخبار تدمير المواقع الأثرية المقدسة في مكة ، فأحدثت في نفوس الأهلين أثراً عميقاً من الحزن والأسف والرثاء لا يستطيع أحد وصفه .

وكانت الطريقة التي وصل بها هـذا الخبر إلى حلب ، لا تدع مجالاً للشك في صحته .

وذلك ان العادة جرت منذ القديم ، على أن يذهب (جوخدار) إلى الباب العالي في استانبول ، لإبلاغه وصول قافلة الحجاج بالسلامة إلى (مزيريب) في طريق عودتها ، وهي أقرب بلدة شامية إلى الحجاز ، تقع على بعد ثلاثة أيام من دمشق . وعند وصول الحجاج إلى مزيريب انفصل عنهم الجوخدار ، وقصد إلى استانبول ، ومر في طريقه بحلب وأذاع هذه الأخبار . وكان يحمل معه رسائل الى عدد من شخصيات البلد كتبها الحجاج في المزيريب بتاريخ ٢٧ و٢٨ مايس. ان هذه الرسائل تتحدث عن وصول سعود الوهابي على رأس عدد لا يحصى من أنصاره الى مسافة قريبة من مكة ، ولم يكن هنالك شك في نيته العدوانية ، بعد أن عرف أسلوب تصرفه في مشهد الإمام حسين ، ولذلك قام آمر القافلة عبد الله باشا ، حاكم دمشق ، بمفاوضته ، وقد نجح بعد متاعب في حمل الأمير الوهابي على الوعد بأن يؤجل الاستيلاء على مكة الى نهاية الحج ، وألا يتعرض بأذى للحجاج عند سفرهم .

ونجاح المفاوضات يعود أكثره الى أن عبد الله باشا ، كان في العام الماضي ، لأسباب (ومصلحة قدرها . .) اعتنق سراً عقائد الفرقة الجديدة الوهابية . وهذا العمل السياسي البارع ، ساعد على انقاذ عشرة آلاف مسلم ، ولولا ذلك لكانوا مضطرين

اما الى هجر عقائدهم الأساسية واما الى الموت،اذا ما تمسكوا بمعتقداتهم...

بعـــد اليوم الثالث من سفر الحجاج من مكة ، لحق بهم عدد من المتخلفين الذين شاهدوا دخول الوهابي إلى مكة ، بعد ذهاب قافلة الحجاج . ويقول هؤلاء أن سعود ورجاله حبسوا « منيب أفندي » وقتلوه ، غير مبالين بمكانته ، فقـد كان كبير قضاة مكة ، وهو منصب تقلده من الباب العالي ، ثم قتلوا عدداً من الموظفين الصغار ، وأمر سعود بهدم المباني الشركية ، وأن تُسوّى ، او تُهدَم ، كل الأماكن التي تخالف مبادىء الدعوة .

ويقــال إن شريف مكة استطاع الهرب ، قبيل دخول الوهابيين . ويقال أيضاً إن الوهابي سوف يذهب إلى المدينة ، حيث يوجد كثير من الأشياء الثمينة التي لا تقدّر بثمن ، قدمت منذ أزمان متطاولة إلى ضريح النبي .

ومع ذلك فإن المدينة ، وإن تكن أصغر من مكة ، إلا أنها تملك تحصينات حسنة ، والسكان ، الذين يعرفون الخطر الذي يتهددهم ، مصممون على الدفاع عن ضريح نبيهم ، ولكنهم في الوقت نفسه يقولون باستحـــالة استمرارهم في الحصار أكثر من ثلاثة أشهر ، إلا إذا تلقوا عوناً ، او قام هجوم آخر يشغل العدو عنهم .

لقـد قرأت في كتاب من مفتي دمشق إلى مفتي حلب أن (آدم أفندي) ، وهو من رجال الفقه الذين يعتمدهم الباب العالي،قد أُرسل أخيراً إلى مكة ليطلع على عقائد الوهابيين ومصادرهم ومشاريعهم .. وقد كان مع الذين سيعودون إلى استانبول من الحجاج، ولكنه لما علم بدخول الوهابيين الى مكة، دفعته حماسته، او الزهو ، الى مقابلة الأمير الوهابي ليعيده عن « بدعته »، فيما يزعم ، او ليحمله على تلطيف « قسوته » ضد أماكن العبادة المقدسة .

إن نتائج الحادث الذي يؤلف موضوع هذا التقرير خطيرة جداً . فالسلطان العثماني هو السلطان الوحيد الذي يلتمس منه جميع المسلمين الحماية وينادونه باسم « حامي المدينتين المقدستين : مكة والمدينة »، ولكنه حسب القانون الإسلامي

يفقد حقه بهذا الامتياز ، متى كان غير قادر على تقديم المساعدة لحماية الأماكن المقدسة وصيانتها من كل عدوان .

هنا.. بدأ الناس يقولون جهراً إن هذا الحادث يحررهم من واجبات الولاء ، وأخذ الاستياء يعمّ كل الطبقات، ويتحدث الشعب الآن بنبوءة قديمة .. ذكرتها الكتب ، وهي ان العثمانيين تنتهي دولتهم برجل اسمه (سليم) .

إن أهل هـــذه المنطقة بالإجماع متشبعون بهذه العواطف ، والواعون منهم مقتنعون بأنه لن يمر غير قليل حتى يقذف الوهابيون بجموعهم ... ضد دمشق وحلب !

ولكن هذه المخاوف ، في رأيي المتواضع ، مسرفة .. وستمر سنوات طويلة قبل أن يتمكن الوهابيون ، – الذين لا تمدهم دولة أوروبية بأسلحة حديثة – من الهجوم على مدن قوية مثل دمشق وحلب) .

وبعد أن يتحدث واضع التقرير عن نشوء الوهابية ومعتقداتها، ينهي تقريره بهذا السؤال :

(رؤساء الأتراك..أتراهم يصنعون شيئاً لإنقاذ مكةوحماية الأماكنالمقدسة، بعد كل هذا الذي حدث ؟

أم يعمدون إلى كَمّ أفواه الناس .. حتى لا تعمّ الفوضى ويشتد الاستياء ضدهم ؟

لو أن مثل هذا حدث قبل نصف قرن لاهتز له عرش السلطان .

أمـا اليوم ، فحماسة الأتراك في العاصمة استانبول ، لمسائل الدين ، هبطت حرارتها كثيراً .. وأرجح الظن أنهم لن يتخذوا حتى التدابير البسيطة إلا بعد مرور وقت طويل ، لأن البطء والكسل (فضيلة) عند هؤلاء الأتراك) .

تقرير سفير فرنسا في استانبول :

ويقول غاستونفييت سفير فرنسا فياستانبول،إن الدواوين الملكيةفيأوروبا كانت تتلقى معلوماتمن الشرق عن الخطر الوهابي على جزيزة العرب .

وفي عام (١٨٠٣) م . في شهر مارس ، أي قبيل استيلاء الوهابيين على مكة ، أرسل الجنرال برون سفير فرنسا في استانبول ، برقية إلى نابوليون ، يقول فيها :

(أرسل الباب العالي إلى القاهرة خمسين مدفع ميدان ومعها ذخيرتها : لكل مدفع ألف طلقة (قنبلة) . كما بعث إليها ثلاث وحدات من رجال المدفعية . ويقال إن هـــذا مخصص للدفاع عن مكة ضد الأمير الوهابي ، الذي يكتسح الجزيرة العربية جزءاً بعد آخر) .

دخول مكة كما يصفه المسلمون

رسالة الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب :

بسم الله الرحمن الرحيم ،

(.. أما بعد ، فأنا معشر غزو الموحدين ، لما منّ الله علينا وله الحمد بدخول مكة المشرفة نصف النهار يوم السبت ثامن شهر محرم الحرام سنة ١٢١٨ هـ . بعد أن طلب أشراف مكة وعلماؤها وكافة العامة من أمير الغزو سعود ، حماه الله ، الأمان وقد كانوا تواطأوا مع أمراء الحجيج وأمير مكة على قتاله ، أو الإقامة في الحرم ليصدوه عن البيت ، فلما زحفت أجناد الموحدين ألقى الله الرعب في قلوبهم فتفرقوا شذر مذر كل واحد يعـدّ الإياب غنيمة ، وبذل الأمير حينئذ الأمان لمن بالحرم الشريف ، ودخلنـــا شعارنا التلبية آمنين ، محلقين رؤوسنا ومقصرين ، غير خائفين من أحد من المخلوقين ، بل من مالك يوم الدين .

ومن حين دخل الجند الحرم وهم على كثرتهم ، مضبوطون متأدبون لم يعضدوا به شجرا ، ولم ينفروا صيداً ، ولم يريقوا دماً إلا دم الهدى أو ما أحلّ الله من بهيمة الانعام على الوجه المشروع .

ولما تمت عمرتنا جمعنا الناس ضحوة الأحد ، وعرض الأمير عافاه الله على العلماء ما نطلب من الناس ونقاتلهم عليه ، وهو : إخلاص التوحيد لله تعالى ، وحده ، وعرفهم أنه لم يكن بيننا وبينهم خلاف له وقع ، إلا في أمرين .

أحدهما : إخلاص التوحيد لله تعالى وحده ، ومعرفة أنواع العبادة ، وان الدعاء من جملتها ، وتحقيق معنى الشرك الذي قاتل الناس عليه نبينا محمد ﷺ ، واستمر دعاؤه برهة من الزمان بعد النبوة ، إلى ذلك التوحيد وترك الاشراك ، قبل أن تفرض عليه أركان الإسلام الأربعة .

الثاني : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الذي لم يبقَ عندهم إلا اسمه ، وانمحى أثره ورسمه .

فوافقونا على استحسان ما نحن عليه جملة وتفصيلا ، وبايعوا الأمير على الكتاب والسنة ، وقبل منهم وعفا عنهم كافة ، فلم يحصل على أحد منهم أدنى مشقة . ولم يزل يرفق بهم غاية الرفق لا سيما العلمـــاء ، ويقرر لهم ، حال اجتماعهم وحال انفرادهم لدينا ، أدلة ما نحن عليه ، ويطلب منهم المناصحة والمذاكرة وبيان الحق.

وعرفناهم بأن صرّح لهم الأمير حال اجتماعهم بأنـّا قابلون ما وضحوا برهانه من كتاب أو سنة أو أثر عن السلف الصالح ، كالخلفـــاء الراشدين المأمورين باتباعهم بقوله ﷺ : (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي) ، وعن الأئمة الأربعة المجتهدين ، ومن تلقى العلم عنهم إلى آخر القرن الثالث لقوله ﷺ : (خيركم قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم) .

وعرّفناهم أنـّا دائرون مع الحق أينما دار ، وتابعون للدليل الجلي الواضح ، ولا نبالي حينئذ بمخالفة ما سلف عليه من قبلنا .

فلم ينقموا علينا أمراً ، فألحينا عليهم في مسألة طلب الحاجات من الأموات ، ان بقي لديهم شبهة ، فذكر بعضهم شبهة أو شبهتين ، فرددناها بالدلائل القاطعة من الكتاب والسنة حتى أذعنوا ، ولم يبق عند أحدهم شك ولا ارتياب فيما قاتلنا الناس عليه أنه الحق الجلي الذي لا غبار عليه ، وحلفوا لنا الايمان المعقدة ، من دون استحلاف لهم ، على انشراح صدورهم وجزم ضمائرهم انه لم يبق لديهم شك في من قال : يا رسول الله أو قال: يا ابن عباس ، أو يا عبد القادر أو غيرهم من المخلوقين ، طالباً بذلك دفع شر أو جلب خير من كل ما لا يقدر عليه الا الله تعالى من شفاء المريض والنصر على العدو والحفظ من المكروه ، ونحو ذلك ، أنه

مشرك الشرك الأكبر الذي يهدر دمه ويبيح ماله ، وان كان يعتقد أن الفاعل المؤثر في تصريف الكون هو الله وحده ، لكنه قصد المخلوقين بالدعاء متشفعاً بهم ومتقرباً لهم لقضاء حاجة من الله بسترهم وبشفاعتهم له فيها أيام البرزخ ، وأن ما وضع من البناء على قبور الصالحين صارت في هذه الأزمان أصناماً تقصد لطلب الحاجات ويتضرع عندها ، أو يهتف بأهلها في الشدائد ، كما كانت تفعله الجاهلية الاولى .

وكان من جملتهم : مفتي الحنفية الشيخ عبد الملك القلعي ، وحسين المغربي مفتي المالكية ، وعقيل بن يحيى العلوي .

فبعد ذلك أزلنا جميع ما كان يعبد بالتعظيم ، والاعتقاد فيه ورجاء النفع ودفع الضرر بسببه ، من جميع البناء على القبور وغيرها ، حتى لم يبقَ في البقعة المطهرة طاغوت يُعبَد ، فالحمد لله على ذلك .

ثم رُفِعت المكوس والرسوم ، وكُسرت آلات التنباك ، ونودي بتحريمه ، وأُحرقت أماكن الحشاشين والمشهورين بالفجور ، ونودي بالمواظبة على الصلاة في الجماعات وعدم التفرق في ذلك ، بأن يجتمعوا في كل صلاة على إمام واحد ، يكون ذلك الإمام من أحد المقلدين للأربعة ، رضوان الله عليهم .

واجتمعت الكلمة حينئذ ، وعبد الله وحده ، وحصلت الالفة ، وسقطت الكلفة ، وأمر عليهم ، واستتبّ الأمر من دون سفك دم ، ولا هتك عِرض ولا مشقة على أحد ، والحمد لله رب العالمين .

ثم دفعت لهم الرسائل المؤلفة للشيخ محمد — رحمه الله — في التوحيد ، المتضمنة للبراهين وتقرير الأدلة على ذلك بالآيات المحكمات والأحاديث المتواترة ، مما يثلج الصدور . واختصر من ذلك رسالة مختصرة للعوام تنشر في مجالسهم ، وتدرس في محافلهم ، ويبين لهم العلماء معانيها ، ليعرفوا التوحيد فيتمسكوا بعروته الوثقى ، ويتضح لهم الشرك فينفروا عنه ، وهم على بصيرة آمنين .

وكان فيمن حضر مع علماء مكة وشاهد غالب ما صار : حسين بن محمد بن الحسين ، الابريقي الحضرمي ، ثم اللحياني ، ولم يزل يتردد علينا ، ويجتمع بسعود

وخاصته من أهل المعرفة ، ويسأل عن مسألة الشفاعة التي جرّد السيف بسببها مَن دون حياء ولا خجل ، لعدم سابقة جرم له ، فأخبرناه بأن مذهبنا في أصول الدين مذهب أهل السنّة والجماعة ، وطريقتنا طريقة السلف ، التي هي الطريقة الأسلم والأعلم والأحكم الخ ...

ونحن أيضاً في الفروع على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، ولا ننكر على من قلد أحد الأئمة الأربعة دون غيرهم ، لعدم ضبط مذاهب الغير ، كالرافضة والزيدية والإمامية [١] ونحوهم ، ولا نقرّهم ظاهراً على شيء من مذاهبهم الفاسدة [٢]) .

رواية ابن دحلان :

يقول أحمد بن زيني دحلان أن رجال نجد لم يكونوا يريدون الهجوم على مكة خلال موسم الحج ، حتى لا يشتبكوا في قتال مع الحاج الشامي والمصري ، فبقوا في الطائف حتى انقضى الحج وعاد الحجاج الى بلادهم ، فساروا بجيوشهم الى مكة ، واستنجد الشريف غالب بأمراء الحج لمساعدته في قتال الموحدين

---

(١) كتب ناشر الرسالة ، الشيخ محمد رشيد رضا : ان كلمة الرافضة ، التي وضعت لغلاة الشيعة ، تشمل الباطنية دون الزيدية ومعتدلي الامامية .

والظاهر أن صاحب هذه الرسالة ووالده لم يطلعا على كتب الزيدية في الفقه ، ولو اطلعا عليها لعلما أن فقههم مدون ، وكذلك الامامية ، وأن الفرق بينه وبين فقه الأربعة قليل ، قلما قال أحد مجتهديه قولاً انفرد به وخالف الاجماع قبله ، وكيف وهم يحتجون بالاجماع وبعمل السلف ، وكذا بأحاديث دواوين السنة المشهورة ، كالكتب الستة..

وقد كان مشايخنا يقولون – كما يقول مشايخ نجد – ان سبب حصر التقليد في فقه الأربعة ، دون سائر مجتهدي الأمة ، هو تدوين مذاهبهم دون غيرها .

وهذا غلط ، سببه عدم الاطلاع !

(٢) أي لا نقر بصفتنا حكام البلاد أصحاب المذاهب غير المضبوطة على أن يظهروا شيئاً من مذاهبهم الفاسدة بالاجماع كأقوال الباطنية بأن لأحكام العبادات معاني غير الظاهر الذي عليه العمل ، وبوجود إمام معصوم في كل عصر يجب اتباعه في كل ما يقول .. ومقابل قوله ظاهراً : انهم لا يحاسبون أحداً على ما يخفيه من أمثال هذه المسائل .

فرفضوا مدّعين أن المال ينقصهم ، فتعهد لهم بالمال فاعتذروا .. وقالوا نكاتب سعوداً لعله يلين ويهادن..وكاتبوا سعوداً فأجابهم (وأكثر من التهديدات وأظهر لهم أنه في غاية القوة ، ثم أعادوا المراسلة .. فأنذرهم بعدم البقاء في مكة فوق ثلاثة أيام ..) فسافر أمير الحج الشامي عبد الله باشا العظم ،وأمير الحج المصري عثمان بك فرجي ، ثم سافر شريف باشا والي جدة .. وبقي الشريف غالب وحيداً .. وأدرك عجزه عن المقاومة ، فهرب هو أيضاً الى جدة .

يجمع ماله ويحرق داره :

ويقول الجبرتي : ان الشريف غالب إنما استبقى أمراء الحج أياماً معدودة في مكة ليستطيع جمع أمواله ونقلها الى جدة ، قبل أن يفاجئه سعود ، وقد حقق غايته ، وأحرق داره في مكة بعد إخلائها ونزل الى جدة .

كتاب الاستسلام وطلب الأمان :

بقي الشريف عبد المعين بن مساعد في مكة ، بعد هرب أخيه ، فجمع وجهاء مكة لتذاكر الموقف ، فقرروا الاستسلام ، وهذا ما قاله ابن دحلان :

(عند ذلك أرسل الشريف عبد المعين بن مساعد كتاباً الى سعود مع القائد حامد بن سليم آغا ، وطلب منه أماناً لجيران بيت الله الحرام ، وأن لا يخفر لسكان مكة ذمام ، وأن يكون هو عامله فيها ، وأن أهل مكة تحت طاعته ، وأرسل أهل مكة رسلاً من أفاضل العلماء وأهل البيت النبوي – منهم محمد طاهر سنبل وعبد الحفيظ العجمي ومحمد بن محسن العطاس والسيد محمد ميرغني– واجتمعوا بسعود بوادي السيل ، على مرحلتين من مكة ، وطلبوا منه الأمان ، فأجابهم :

(إنما جئتكم لتعبدوا الله وحده وتهدموا الأصنام والطواغيت ولا تشركوا بالله الذي يحيي ويميت) .

فأجابه الشيخ طاهر بقوله : والله ما عبدنا غير الله .

فمدّ لهم يده وقال : عاهدتكم على دين الله ورسوله ، وتوالون من والاه وتعادون من عاداه ، والسمع والطاعة .

فعاهدوه على هذا المقال .. وأمر كاتبه أن يكتب كتاب الأمان ، ليحصل لأهل مكة الاطمئنان ، في كاغد لم يزد عن الخمس الأصابع ، وهـــذا ما هو مذكور فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من سعود بن عبد العزيز

الى كافة أهل مكة والعلماء والاغوات وقاضي السلطان ،

السلام على من اتبع الهدى ، أما بعـــد .. فأنتم في وجه الله ثم وجه أمير المؤمنين سعود بن عبـــد العزيز ، وأميركم عبد المعين بن مساعد ، فاستمعوا له وأطيعوا ما أطاع الله ، والسلام) .

وكان وصول هذا الكتاب يوم الجمعة ٧ محرم ١٢١٨ هـ. فصعد به المنبر السيد حسين مفتي المالكية بعد صلاة الجمعة وقرأه .

صفة دخول سعود الى مكة :

في ٨ محرم وصل سعود مكة ودخل مُحرِماً فطاف وسعى ونحر الإبل ، ثم صعد بستان الشريف الذي في المحصب .

وفي اليوم الثاني نادى مناديه بأن سكان البلد الحرام يجتمعون في المسجد غداً ضحوة النهار ، فاجتمعت النـــاس على صفاتها ، وحضر الشريف عبد المعين ومَن بمكة من الأشراف والقاضي ومفتي مكة الشيخ عبدالله القلعي وبقية المفاتي العلماء ، وما زالت الناس في اجتماع وائتلاف ، وسعود في المطاف ، ثم أقبل وصعد بأعلى درج الصفا ، والناس ينظرون له ويسمعون قوله ، فأخذ المفتي عن يمينه ، والقاضي عن شماله ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

(الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ونصر عبـــده وأعزّ جنده ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، والحمد لله الذي صدقنا وعده ..

ثم قال :

يا أهل مكة ، أنتم جيران بيته ، آمنون بأمنه وسكن حرمه ، وأنتم في خير

بقعة ، اعلموا ان مكة حرام ما فيها ، لا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ولا يعضد شجرها ، وإنما أحلت ساعة من نهار .

وإنا كنا من أضعف العرب ، ولما أراد الله ظهور هـذا الدين دعونا اليه وكلٌّ يهزأ بنا ويقاتلنا عليه وينهب مواشينا ونشتريها منهم ، ولم نزل ندعو الى الإسلام وجميع من تراه عيونكم ومن تسمعون به من القبائل إنمـا أسلموا بهذا السيف — ورفع سيفه تجاه البيت الحرام حتى رآه الخاص والعام — وقد كنت في هـذا العام غازياً نحو العراق ، فلما سمعت ما وقع من المسلمين بغزوة الطائف، وأقبلوا عليكم يغزونكم خفتُ عليكم من العربان والبادية، فاحمدوا الله الذي هداكم للاسلام وأنقذكم من الشرك ، وأنا أدعوكم أن تعبدوا الله وحده وتقلعوا عن الشرك الذي كنتم عليه ، وأطلب منكم أن تبايعوني على دين الله ورسوله وتوالون من والاه وتعادون من عاداه في السراء والضراء والسمع والطاعة) .

ثم جلس ، ومدَّ يده ، فأول من تقدم لمبايعته الشريف عبد المعين، ثم المفتي فالقاضي فبقية الناس ، فلما تمّت المبايعة ركب فرسه وصعد إلى المحسب ، وقال قبل ركوبه :

يا أهل مكة، انتظروني بعد صلاة العصر بالمسجد الحرام، بين الركن والمقام، لأبين لكم الدين وشرائط الإسلام .

فلما كان العصر اجتمعوا،فجاء وصعد المقام الذي على ظهر زمزم،والمفاتي معه..

وهنـا يذكر ابن دحلان — وهو خصم — كلاماً غير لائق ، خلاصته ان ما قاله سعود يعرفه حتى جهـلاء أهل مكة ، وان سعوداً طلب من أهل مكة في نهاية كلامه أن يطلعوا للقبب ويهدموها ويطرحوا الأصنام ويرموهـا حتى لا يكون معبود غير الله .

فقالوا : سمعاً وطاعة ، فـما أصبح الصباح إلا وهم سارحون بالمساحي لهدم القبب ، فبادر الوهابيون ، ومعهم كثير من الناس ، لهدم القبب .. فهدموا ما في المعلى من القبب ...

وفي اليوم السادس من أيام إقامته نادى مناديه بإبطال تكرار صلاة الجماعة

في المسجد الحرام، فكان يصلي الصبح الشافعي، والظهر المالكي، والعصر الحنبلي، والمغرب الحنفي .

ثم طلب قبائل العرب التي حول مكة، فبايعوه وأخذ منهم شيئاً من المال. ووضع في قلعة مكة مائتين من بيشة، وجعل أميراً عليهم فهيد بن شكبان. ومدة إقامته بمكة أربعة عشر يوماً .

رواية الجبرتي :

في صفر سنة ١٢١٨ هـ . حضر (إلى القاهرة) الشريف عبد الله بن سرور ، وصحبته بعض أقاربه من شرفاء مكة وأتباعهم نحو ستين نفراً ، وأخبروا أنهم خرجوا من مكة مع الحجاج ، وأن عبد العزيز الوهابي دخل إلى مكة من غير حرب ، وولى الشريف عبد المعين أميراً على مكة والشيخ عقيل قاضياً ، وأنه هدم زمزم والقباب التي حول الكعبة والأبنية التي أعلى من الكعبة ، وذلك بعد أن عقد مجلساً بالحرم وباحثهم على ما الناس عليه من البدع والمحرمات المخالفة للكتاب والسنة ، وأخبروا أن الشريف غالب وشريف باشا ذهبا إلى جدة وتحصنا بها وأنهم فارقوا الحجاج في الجديدة .

... وحضر صحبة الحجاج كثير من أهل مكة هروباً من الوهابي ، ولغط الناس في خبر الوهابي واختلفوا فيه ، فمنهم من يجعله خارجياً ... وهم المكيون ومن تابعهم وصدّق أقوالهم ... ومنهم من يقول بخلاف ذلك ، لخلو غرضه .

وأرسل إليّ شيخ الركب المغربي كتاباً،ومعه أوراق تتضمن دعوته وعقيدته وصورتها ...

الدعوة الاسلامية السلفية :

وقد نقل الجبرتي في تاريخه نص رسالة أمر الإمام سعود بتوزيعها وتعميمها ، وهي واحدة من رسائل كثيرة كتبها الإمام سعود ورؤساء الدعوة وبينوا فيها

العقيدة الإسلامية التي يدينون بها والتي دعا اليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وهذا نص الرسالة كما وردت في تاريخ الجبرتي :

بسم الله الرحمن الرحيم

(وبه نستعين، الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل الله فلا هادي له . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمداً وعبده ورسوله . من يُطِع الله ورسوله فقد رشد، ومن يَعْصِ الله ورسوله فقد غوى ولا يضر إلا نفسه ولن يضر الله شيئا ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد ، فقد قال الله تعالى : ﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ .

فأخبر سبحانه أنه أكمل الدين وأتمه على لسان رسوله ﷺ ، وأمرنا بلزوم ما أنزل إلينا من ربنا وترك البدع والتفرق والاختلاف .

وقال تعالى : ﴿ اتبعوا ما أُنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء ، قليلا ما تذكرون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ .

والرسول ﷺ قد أخبرنا بأن أُمته تأخذ مأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع وثبت في الصحيحين وغيرهما عنه ﷺ أنه قال (لتتبعن سنن من

كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه ، قالوا : يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن) ؟!

وأخبر في الحديث الآخر أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقه كلها في النار إلا واحدة ، قالوا : من هي يا رسول الله ؟ قال : من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي !

إذا عرف هذا فمعلوم ما قد عمت به البلوى من حوادث الأمور التي أعظمها الإشراك بالله، والتوجه إلى الموتى، وسؤالهم النصر على الأعداء، وقضاء الحاجات وتفريج الكربات ، التي لا يقدر عليها إلا رب الأرض والسموات !

وكذلك التقرب اليهم بالنذور ، وذبح القربان ، والاستغاثة بهم في كشف الشدائد وجلب الفوائد ، إلى غير ذلك من أنواع العبادة التي لا تصلح إلا لله . وصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله كصرف جميعها لأنه سبحانه وتعالى أغنى الأغنياء عن الشرك ولا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً ، كما قال الله تعالى : ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين . ألا لله الدين الخالص . والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون . إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾ .

فأخبر سبحانه أنه لا يرضى من الدين إلا ما كان خالصاً لوجهه ، وأخبر أن المشركين يدعون الملائكة والأنبياء الصالحين ليقربوهم إلى الله زلفى ويشفعوا لهم عنده ، وأخبر أنه لا يهدي من هو كاذب كفار .

وقال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السموات ، ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ .

فأخبر أنه من جعل بينه وبين الله وسايط يسألهم الشفاعة ، فقد عبدهم وأشرك بهم ، وذلك أن الشفاعة كلها لله ، كما قال تعالى : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فيومئذ لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً ﴾ ،

وهو سبحانه وتعالى لا يرضى إلا التوحيد ، كما قال تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾ فالشفاعة حق ولا تطلب في دار الدنيا إلا من الله ، كما قال تعالى : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ﴾ فإن فعلت ذلك فإنك إذن من الظالمين .

فاذا كان الرسول ﷺ ، وهو سيد الشفعاء وصاحب المقام المحمود ، وآدم فمن دونه تحت لوائه ، لا يشفع إلا بإذن الله ، لا يشفع ابتداءً ، بل يأتي فيخرُّ لله ساجداً فيحمده بمحامد يعلمه إياها ، ثم يقال : إرفع رأسك وسلْ تُعطَ واشفع تُشفع ! ثم يحدُّ له حداً فيدخلهم الجنة !

فكيف بغيره من الأنبياء والأولياء ؟

وهذا الذي ذكرناه لا يخالف فيه أحد من علماء المسلمين بل قد أجمع عليه السلف الصالح من الأصحاب والتابعين والأئمة الأربعة وغيرهم ممن سلك سبيلهم ودرج على منهاجهم .

وأما ما حدث من سؤال الأنبياء والأولياء من الشفاعة بعد موتهم وتعظيم قبورهم ببناء القباب عليها وإسراجها والصلاة عندها واتخاذها أعياداً وجعل السدنة والنذور لها ، فكل ذلك من حوادث الامور ، التي أخبر بها النبي ﷺ امته وحذَّر منها ، كما في الحديث عنه ﷺ أنه قال : (لا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان) . وهو ﷺ حمى ضباب التوحيد أعظم حماية وسدَّ كل طريق يؤدي الى الشرك ، فنهى أن يجصص القبر وأن يبنى عليه ، كما ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر ، وثبت فيه أيضاً أنه بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأمره لا يدع قبراً مشرفاً إلا سواه ولا تمثالاً إلا طمسه . ولهذا قال غير واحد من العلماء : يجب هدم القباب المبنية على القبور لأنها أسست على معصية الرسول ﷺ .

فهذا هو الذي أوجب الإختلاف بيننا وبين الناس ، حتى آل بهم الأمر الى أن كفرونا وقاتلونا واستحلوا دماءنا وأموالنا ، حتى نصرنا الله عليهم وظفرنا

بهم ، وهو الذي ندعو الناس اليه ونقاتلهم عليه ، بعد ما نقيم الحجة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع السلف الصالح من الأمة ، ممتثلين لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ ، فمن لم يجب الدعوة بالحجة والبيان قاتلناه بالسيف والسنان ، كما قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم النـــاس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ﴾ .

وندعو الناس إلى إقامة الصلوات في الجماعات على الوجه المشروع وإيتـــاء الزكاة وصيام شهر رمضان وحج بيت الله الحرام ، ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، كما قال تعـــالى : ﴿ الذين إن مكّنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ .

فهذا هو الذي نعتقده وندين الله به ، فمن عمل بذلك فهو أخونا المسلم له مـــا لنا وعليه ما علينا .

ونعتقد أيضاً أن أمة محمد ﷺ المتبعين للسنة لا تجتمع على ضلالة ، وأنه لا تزال طائفة من أمته على الحق منصورة ، لا يضيرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك .)

رأي الجبرتي :

ويقول الجبرتي ، بعد إيراده لنص الرسالة ، ما يلي :

أقول : إن كان كذلك ، فهذا ما ندين الله به نحن أيضاً ! وهو خلاصة لباب التوحيد ، وما علينا من المارقين والمتعصبين ؟

وقـــد بسط الكلام في ذلك ابن القيم في كتابه (إغاثة اللهفان) ، والحافظ المقريزي في (تجريد التوحيد) ، والإمام اليبوسي في شرح الكبرى ، وشرح الحكم لابن عبـــاد ، وكتاب جمع الفضائل وقمع الرذائل وكتاب مصايد الشيطان ، وغير ذلك .

حصار جدة ، واسترداد مكة

ترك سعود مكة وسار الى جدة ، لمنازلتها والاستيلاء عليها ، والخلاص من الشريف غالب وخطره ، ولكنه وجد نفسه أمام مدينة محصنة « بسور متين وخندق دونه » — كما يقول ابن بشر — فرجع عنها ، وعاد الى نجد .

لا يذكر ابن بشر المدة التي أقامها سعود في حصار جدة ، ويقول (ده غوري) ان جدة لم يضرها هذا الحصار لأن البحر مفتوح أمامها ، يمدّها بما تريد ، فكانت قادرة على الصبر طويلاً .

ويقول الجبرتي إن حصار جدة استمر تسعة أيام وقد قطع سعود عنها الماء.. وان هجانة وردوا (من ناحية ينبع وأخبروا أن الوهابيين جلوا عن جدة ومكة بسبب أنه وصلتهم أخبار بأن العجم زحفوا على قاعدة بلادهم الدرعية وملكوا بعضها ..) !!

ومما لا شك فيه أن (الحظ) خدم الشريف غالب كثيراً ، فقد حصنت جدة لدفع خطر بونابرت عنها ، فاذا التحصينات تستخدم في دفع هجوم لم يكن منتظراً . فقد نقل ده غوري عن المستشرق « سنوك هورغرونه » [1] أن الباب العالي أرسل الى مكة في آخر سنة ١٧٩٨ م (١٢١٢ ﻫ) فرماناً يأمر بإقامة

---

(١) انظر كتاب غوري .

تحصينات في الديار المقدسة لمواجهة غزو يحتمل أن يقوم به الافرنسيون، وهكذا أصلحت أسوار جدة بسرعة ، ودرب الأهلون كل ليلة على الاعمـال الحربية ، واستعد الناس لدفع بونابرت عنهم .

وبهذا يتبين لنا أن قول ابن بشر إن الشريف كان يراسل سعوداً – بعـد استيلائه على مكة – (ويخادعه ويطلب الصلح ويبذل المال ، وهو يريد أن يحصن جدة ، ويحمل ما فيها في السفن) ادعاء غير صحيح تماماً ، لأن الشريف ما ذهب الى جدة ليحصنها ، خلال أيام قليلة .. وإنما ذهب اليها لأنهـا محصنه ، وتستطيع أن تحميه بسهولة، ولكننا لا نستبعد أنه كان يفكر في الهرب بأمواله بالبحر ، متى اضطر الى ذلك ..

بالقتال رفع الحصار !

ويقول (ابن دحلان) إن جنود سعود أحاطوا بجـدة ، فرمى عليهم الشريف غالب بالمدافع والقلل ، فقتل كثيراً منهم ولم يقدروا على تملك جدة ، فارتحلوا بعد ثمانية أيام ورجعوا الى بلادهم .

بالمال رفع الحصار !

ويقول (بركارت) إن الحصار استمر (١١) يوماً وإن الشريف تهيأ للهرب بطريق البحر ، ففوجىء برحيل سعود ، وقيل أيضاً إنه بذل مالاً لسعود ليقبل ببقائه في جدة (قيل إنه دفع له خمسين الف ريال) ، وهذا ما ذهب اليه أيضاً مؤلف (التاج المكلل) ، ولعله نقله عن بركارت .

بالمرض رفع الحصار !

ويقول كورانسيز : حاصر الوهابيون جدة ، وكانت أسلحتهم بسيطة ، وهي رماح ، وبنادق لا يحسنون كلهم استعمالها ، فلم يستطيعوا اقتحام أسوار المدينة المحصنة المنيعة ، وزاد في صعوبة الأمر أن المرض أخذ يتفشى بين الجنود الوهابيين ، فقرر سعود رفع الحصار والعودة .

ويؤيد المؤرخ الافرنسي (مانجان) ما قـاله كورانسيز عن انتشار المرض بين جنود سعود ، وان سعود نفسه أصابه المرض أيضاً ، وهو : الزحار « الديزنتاريا » .

وروى بعضهم عن لسان سعود أنه قال :

« إني أدع جدة ، لأنني لا أستطيع الصبر على حرّها أكثر مما صبرت » !

الشريف غالب يسترد مكة من الموحدين

يقول ابن بشر في أخبار سنة ١٢١٨ هـ . ما يأتي :

(.. وفيها رحل الشريف غالب بعسكره من جدة الى مكة ، ونزل أهل القصور الذين رتبهم سعود فيها ، كما تقـــدم ، فأخرجهم منها بالأمن واستولى على مكة .)

هذه هي رواية ابن بشر عن استرداد مكة وهي تدهش بإيجازها وغموضها ، مع ان الحادثة جليلة الشأن ، وقد كان ابن دحلان أكثر عناية بأخبارها ، فنوّه بخطورتها وسمّاها « غزوة الفتح » ، وهو اسم يبدو لنا مضحكاً حين نعلم ان جنود الترك كانوا وراء هذا الفتح ، ولكنه بيّن لنا ، على كل حال ، ان الحامية السعودية لم تستسلم دون قتال .

يقول ابن دحلان ان الشريف غـالب توجه من جدة الى مكة لإخراج من فيها من جماعة سعود وأبي نقطة ، وان والي جدة التركي شريف باشا كان يصحبه ، وكان معهما (كثير من العساكر والجنود وثلاثة مدافع ، منها مدفع كبير أهداه له إمـام مسقط) ، فنزل أولاً بالزاهر ، ثم أرسل العساكر والعبيد وأحاطوا بالقلعة التي بجياد ، وفيها من خلفهم سعود ، وترسوا البيوت التي تليها وحصروهم أشد الحصار .

ودخل الشريف مكة بعد الاشراق ولم ينازعه الشريف عبدالمعين في ما يروم .

ثم رتب بعض العسكر وأمرهم أن يحيطوا بالبستان الذي فيه من خلفهم أبو نقطة ، وأثار الحرب عليهم وركب عليهم المدفع ، وصنع لغماً تحت الأرض ،

فلما أثاروه رفع البرج الى الجو بمن فيه من الجند،ومع ذلك ما برحوا عن القتال، فطلب مدفعاً كبيراً من جدة ، لا يمكن سيره بدون خمسين بعيراً ، فلما وصل رموا به جدار البستان ، فصار في كل رمية يطرح جانباً من البنيان ، حتى وقع منه شيء كثير ، فطلبوا الأمان فأعطاهم الأمان ، واستأجر لهم جمالاً يتوجهون عليها الى بلادهم [١] .

وأما الذين في القلعة فما فتر العسكر عن قتالهم ، وكان يخرج جماعة منهم بالليل ويحرقون بعض العشش ويعودون الى القلعة ، ونزل جماعة منهم يوماً في ضحوة النهار ونهبوا أغناماً فتفازعت العسكر عليهم فرجعوا الى القلعة ، فوضع الشريف لهم حرساً لئلا يخرج أحد منهم من القلعة .

وبعد ثلاث أو أربع ليال هربوا من القلعة في جنح الليل .

وما طلب الذين كانوا في البستان الأمان إلا بعد علمهم بخروج الذين كانوا في القلعة ، وكانت مدة الحصار للجميع ٢٥ يوماً .

تلك رواية ابن دحلان ، ولم يغفل الجبرتي ، في تاريخه ، قصة عودة الشريف غالب الى مكة ، ولكنه لخص القصة بكلمة غريبة جداً، مع شدة تحرّيه المحق، وما ندري كيف تورّط فيها ، قال :

(.. رجع الشريف غالب الى مكة .. ورجع كل شيء الى حاله الأول ، وردّ المكوس والمظالم .)

وهذا الكلام قد يوهم ان المكوس والمظالم جرت في فترة النفوذ السعودي — أيام عبد المعين — مع ان المستشرق بركارت ، الذي كان مقيماً في مكة قريباً من هذا الوقت، شهد شهادة حق، وهي ان الوهابيين أحسنوا الدخول الى مكة ولم يرتكبوا فيها أية مظلمة [٢] .

---

(١) يقول النعمي في تاريخه ان عدد حامية عسير في مكة كان ٤٠٠ .

(٢) يذكر ابن بشر حادثة استرداد الشريف لمكة بعد غزوة سعود للعراق في ولايته ، مع انها تمت في ولاية عبد العزيز ، وكان يجب تقديمها ..

جبل شمر

في أول القرن الثالث عشر (عام ١٢٠١ هـ .) ، أمر عبد العزيز عامله على القصيم ، حجيلان بن حمـــد ، أن يغزو بأهل القصيم وغيرهم جبل شمر ، فغزاه وقاتل أهله حتى أذعنوا وبايعوا لعبد العزيز ، ودخلوا في طاعته .

كان أمراء حايل ، في تلك الأيام من آل علي ، فلم ينتزع عبد العزيز الإمارة منهم واستبقاها فيهم ، وعند وفاته كان أميره على جبل شمر : محمد بن عبد المحسن ابن فائز بن علي [١] .

أما الجوف — وهي اليوم جزء من امارة حايل — فلم يتم اخضاعها إلا عام

---

(١) بقي أمير حايل هذا محتفظاً بامارته طول ولاية عبد العزيز ، ثم سعود الكبير ، ثم خلال ولاية عبد الله بن سعود ، وبقي على رأس امارته بعد مصرع عبد الله وتدمير الدرعية ، وفي سنة ١٢٣٤ هـ . ، بعد استيلاء المصريين على نجد ، وثب أحد قواد محمد علي ، الذي نزل مع عسكره في حائل ، على الأمير محمد المذكور وقتله .

ولما استعاد تركي البلاد من الترك والمصريين ، اختار أميراً للجبل أخاً لأميرها القتيل ، وهو : صالح بن عبد المحسن .

ولما تولى فيصل الإمارة ، عزل صالح عن امارة حايل واستعمل مكانه : (عبد الله بن علي بن رشيد) ، وبذلك انتقلت امارة الجبل إلى آل رشيد ، وبقيت فيهم حتى عام التحاقها بالمملكة ، في عهد الملك عبد العزيز .

١٢٠٨ هـ . ويذكر ابن بشر في أخبار هذه السنة أن عبد العزيز أمر أهل الوشم والقصيم وجبل شمر أن ينفروا غزاة مع أمرائهم ، وأمرهم أن يسيروا إلى (دومة الجندل) ، المعروفة بجوف آل عمرو في الشمال ، فسار الجميع ونازلوا أهل تلك الناحية وأخذوا منها ثلاث بلدان ، ثم حاصروا الباقين .. فلم يزالوا محاصرين لهم حتى بايعوا على دين الله ورسوله والسمع والطاعة »[1] .

---

(١) يقول ابن غنام إن قرية بني سراح ، من قرى الجوف بقيت ممتنعة ، فأعطى أمير الغزو محمد بن معيقل شيئاً من الأموال التي جمعها إلى (آل درع) وكانوا مقاومين لابن سرح .

الزبارة والبحرين

يقول ابن بشر في أخبار سنة ١٢١٦ هـ . : (في هذه السنة .. سار سلطان ابن أحمد ، صاحب مسقط ، المعروفة في عمان ، في كثير من المراكب والسفن ، ونازل أهل البحرين وأخذه من أيدي آل خليفة واستولى عليه . ثم إن آل خليفة ساروا إلى عبد العزيز واستنصروه ، فأمدهم بجيش كثيف من المسلمين ، فساروا إلى البحرين فضاربوهم وقاتلوهم قتالاً شديداً وأخذوه من يد سلطان المذكور ، وقتل من قومه ما ينيف على ألفي رجل) .

ويعود ابن بشر فيذكر لنا ، في أخبار سنة ١٢١٨ هـ . ، وهي سنة وفاة عبد العزيز : أن أميره على الزبارة والبحرين ، هو : سليمان بن خليفة .

فهل دخلت البحرين حقاً تحت سلطان عبد العزيز ، كما يقول ابن بشر ؟

ما نظن ذلك ، وأقرب إلى الحقيقة أن نعتبر أمير البحرين ، حليفاً موالياً للدرعية .

يقول حافظ وهبة : (في سنة ١٧٩٩ م . هاجم سلطان مسقط جزيرة البحرين وتمكن من الاستيلاء عليها سنة ١٨٠١ م . = ١٢١٦ هـ. ولم يفد عرب البحرين استنجادهم بفارس أو تركيا ، لأنه كان لدى الدولتين من المشاغل ما حال دون التدخل في حوادث البحرين .

وفي نفس السنة تمكن آل خليفة ، بمعاونة النجديين الذين انتشرت حركتهم وامتد سلطانهم إلى الأحساء ، من التغلب على قوات إمام مسقط واسترداد البحرين .

وفي سنة ١٨١٠ م. — ١٢٢٥ هـ. احتل النجديون البحرين والزبارة ، وعيّن إمام نجد عبد الله بن عفيصان وكيلاً عليها وعلى القطيف وقطر ، ولكن شيوخ البحرين استمروا على إدارة الأحكام ، واكتفى مندوب نجـد باستلام الجزية وإرسالها الى مولاه في نجد) [1] .

معنى ذلك : أن البحرين لم تدخل تحت سلطان نجـد إلا في عهد سعود سنة ١٢٢٥ هـ. ومع ذلك كان ارتباطها بالدرعية قاصراً على دفع مبلغ من المـال ، وفي ذلك معنى من معاني الخضوع أو الموالاة ، ولكنه ليس الارتباط الكامل ، كارتباط الأحساء مثلاً .

غزو بادية قطر :

في سنة ١٢٠٢ هـ. غزا سليمان بن عفيصان بجمع الموحدين (آل أبي رميح) في قطر ، فقتل منهم نحو خمسين رجلاً وأخـذ ما عندهم من الأسلحة والأمتعة والركاب والأغنام [2] .

وفي سنة ١٢٠٧ هـ. غزا ابراهيم بن عفيصان بأهل الخرج والفرع وجماعة من البدو أطراف قطر وأخذ أغناماً وركاباً وعاد .

وفي سنة ١٢٠٧ هـ. غزا ابراهيم بن عفيصان بادية قطر وأخـذ منهم آبالاً وأغناماً وأمتعة ، وعاد الى الأحساء فباعها فيها [3] .

---

(١) انظر كتابه : جزيرة العرب في القرن العشرين .
(٢) ابن غنام وابن بشر .
(٣) ابن غنام .

عسير

يذكر ابن بشر ، بين أمراء عبد العزيز ، اسم أميره على تهامة وما يليها من اليمن : عبد الوهاب ، المعروف بكنيته « أبو نقطة » . ولكنك لا تجد في كتابه حتى سنة ١٢١٨ — وهي سنة وفاة عبدالعزيز — أية إشارة الى عبدالوهاب هذا، ثم تفاجأ بسيره ، خلال ولاية سعود ، الى جدة لمحاربتها ، ويعرّفه لنا ابن بشر حينئذ بأنه (أمير ألمع وعسير ونواحي تهامة .)

فمن هو عبد الوهاب هذا ، ومتى انضمت بلاده الى الدعوة ؟

يقول (بلايفر) في كتابه « العربية السعيدة » : ان جد عبد الوهاب كان يكنى بأبي نقطة ، لنقطة كانت على عينه ، أي أنه كان أعور ، فاشتهر بها هو وذريته .

كان عبد الوهاب في حرب موصولة مع الشريف حمود (أبو مسمار) أمير أبي عريش ، الذي كانت بلاده تمتد ، على ساحل اليمن ، من القنفدة الى بيت الفقيه ، وقد استطاع آخر الأمر أن يتغلب عليه ، فهرب حمود الى صنعاء .

كان إمام اليمن ، يومئذ ، شيخاً ضعيفاً ، وكان له ولد شاب اسمه (أحمد)، فساعده حمود على إقصاء والده عن الحكم ، والحلول محله ، وصار يحكم اليمن من وراء أحمد هذا ، ثم تحركت فيه شهوة الثأر ، فحارب عبد الوهاب ، بمؤازرة

إمام اليمن الجديد أحمد ، وقام بعمل بطولي خارق ، فاقتحم بنفسه خيمة عبد الوهاب وقتله .

ويقول هاشم النعمي في « تاريخ عسير » : إن إقليم عسير كان يعرف بخلاف جرش، وكانت عسير، منذ اعتناقها الدين الإسلامي،تابعة لمكة،حتى إذا ضعفت الخلافة في آخر العهد العباسي ، صارت تتبع صاحب النفوذ الأقوى من حكام الأقاليم المجاورة ، كالأيوبيين والمماليك في مصر ، والرسوليين في اليمن ، وأمراء مكة من الأشراف فالأتراك العثمانيين، ولما ظهرت الدعوة السلفية في نجد وشعّت أنوارها على جبال السراة ، وفدَ على الدرعية محمد بن عامر أبو نقطة [١] ، عام ١٢١٥ هـ . واعتنق الدعوة لاقتناعه بسلامتها وصحتها ، (وبالتالي طمعاً في نيل السلطة والزعامة بين قبائله عن طريق حمايتها) ، وقد تحققت أُمنيته ! ذلك أن عبد العزيز (أسند اليه حماية الدعوة في هذه الربوع ونشرها بين السكان، واشترط عليه محاربة شريف أبي عريش ، الذي كان مناصباً العداء للدعوة .. وجهز معه جيشاً كثيفاً بقيادة أمير الدواسر) . وقد استطاع محمد ، بمعونة هذا الجيش ، تثبيت إمارته على عسير السراة وعسير تهامة ، ثم مات عام ١٢١٧ هـ . فخلفه أخوه عبد الوهاب .

قاتل عبد الوهاب الأمير حمود وهزمه ، فأعلن حمود دخوله في الدعوة ، فأبقاه عبد الوهاب أميراً على أبي عريش [٢] ، ولكنه ما لبث أن نقض العهد وقتل عبدالوهاب، فقام ابن عم عبد الوهاب وخَلَفه (طامي بن شعيب) بمحاربة حمود واستعاد منه البلاد وضمها إلى الدولة السعودية .

---

(١) وهو من فخذ « المتحمي » من قبيلة ربيعة .

(٢) انظر تاريخ عسير ، للنعمي ، وبلايفر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عُمان

يذكر ابن بشر بين امراء عبد العزيز ، عند وفاته ، أميره على عُمان : الشيخ صقر بن راشد رئيس رأس الخيمة .

ومن أعجب الامور أن ابن بشر لم يحدثنا قط ، خلال حوليات عبد العزيز كلها ، عن عمان ولا عن رأس الخيمة ، ولا عن أميرها .. وإنما طلع علينا باسم صقر .. أميراً على عمان لعبد العزيز، من دون أن يبين لنا متى كانت هذه الامارة ومتى كانت طاعة عمان للدرعية .

لذلك وجب علينا أن نسدّ هـذه الثغرة الواسعة في تاريخ ابن بشر ، ونحب أن نقول منذ الآن أن العشائر التي انضمت الى الدعوة ، في عهـد عبد العزيز ، لم تكن تابعة كلها لعمان ، فرأس الخيمة نفسها ، مثلاً، كانت مشيخة مستقلة ، والشيخ صقر بن راشد ، الذي جعله ابن بشر أميراً على عمان ، كان رئيساً على القواسم وحدهم ، دون عمان .

رواية اللمع :

ويقول مؤلف لمع الشهاب ان عبد العزيز ، بعد استيلائه على الأحساء ، أمر ابراهيم بن عفيصان أن يغزو عمان الصير ، فغزاهم وأخذ منهم إبلاً كثيرة ، فلما رأى بنو ياس قوة آل سعود (أرسلوا الى الدرعية رسلاً ليعاهدوا على تبعية الدين ، وأن يسوقوا الزكاة كل عام ، فعاهدوا وأرسل معهم عبد العزيز عالمـــاً

يعلمهم امور دينهم .. فسمع نعيم ، أهل البريمي بذلك ، فبعثوا اناساً منهم الى عبد العزيز ، يلتمسون البيعة والطاعـــة ، فقبل منهم وأرسل معهم من يعلمهم أمر الدين) .

ويقول المؤلف بعـــد ذلك ، ان عبد العزيز حرّض جماعة نعيم على الشيخ صقر ، فإما أن يدخل في الطاعة وإما أن يحاربوه ، فلما امتنع أمدهم عبدالعزيز بطائفة كبيرة من المقاتلة بقيادة مطلق المطيري ، فضيّقوا على رأس الخيمة ، حتى اضطر شيخها صقر بن راشد الى إعلان طاعته وولائه لعبد العزيز ، وفعل مثل ذلك كبار أهل القواسم .

وأصبح أهل القواسم من أحسن النـــاس ديناً وخلقاً ، حتى أن فريقاً منهم كانوا يترددون الى البحرين فأعجب بعض أهلها بدينهم وآدابهم وأصبحوا محبين للدعوة التي شعّت أنوارها من الدرعية .

رواية العرض :

وجاء في كتاب (عرض الحكومة السعودية) ان ابراهيم بن عفيصان كان نشطاً في شبه جزيرة قطر خلال العامين ١٢٠٨ و ١٢٠٩ هـ. وان أهل عمان طلبوا في تلك الفترة من الإمام عبد العزيز (أن يضم بلادهم الى حركة الدعوة الجديدة، ورداً على ذلك ، أرسلت الحكومة السعودية ابن عفيصان ليكون ممثلاً لها في عمـــان ومقره في البريمي ، فتسلم مهامه كأول أمير سعودي هناك في سنة ١٢١٠ هـ. — ١٧٩٥ م. وقـــد خلدت رحلته البرية عبر الظفرة الى مقرّ منصبه الجديد باسم جزاير ابن عفيصان ، الذي يطلق على موضع في سبخة مطي على الطريق ، وفي أثنـــاء إقامته في البريمي أنشأ قصراً أسماه : قصر الصبارة ، في منتصف الطريق بين بلدة البريمي وحماسا .

معاهدة مع القواسم :

وفي سنة ١٢١٤ هـ . « ١٧٩٩ » م . عقدت الحكومة السعودية معاهدة مع القواسم ، وهم زعماء كانوا إذ ذاك يتمتعون بأقوى نفوذ على الساحل الجنوبي

الشرقي للخليج الفارسي ، ونتيجة لهذه المعاهدة كسبت الدعوة إلى التوحيد ، كما كسب آل سعود ، أنصاراً جدداً كثيرين على الساحل وفي الداخل .

وفي هـذا الوقت بعثت الحكومة السعودية بسالم بن بلال الحرق إلى البريمي أميراً عليها ، فجددت قبائل نعيم والظواهر وبني قتب وبني ياس وغيرها في الظاهرة مبايعتها للدولة السعودية ، وجمع الأمير الجديد الزكاة منها .. ورغب حاكم مسقط في زحزحة السعوديين عن مكانهم في البريمي فعجز فعقد هدنة معهم وانسحب إلى الجبال ..

وجاء في سجلات الحكومة البريطانية ان النفوذ السعودي في هذه الفترة كان سائداً في جميع ربوع الساحل من نهر البصرة إلى دبا ، وهي الحـد الفاصل بين أراضي مسقط وأراضي القواسم .

ألحّ كل من الحكومتين العثمانيه والفارسية على حاكم مسقط في مهـاجمة السعوديين ، وقبل اتخاذ أي إجراء غادر الحاكم مسقط في سنة ١٢١٧ هـ . أوائل ١٨٠٣ م . ليحج إلى مكة ، وفي ذلك الوقت كان السعوديون يزحفون غرباً عبر جزيرة العرب لقتال شريف مكة غالب بن مساعد،وكان من أكبر أعداء الدعوة وبحث حاكم مسقط مع الشريف في إمكان حشد قواهم ضد السعوديين ، غير أنه لم يستطع أن يعرض مساعدة كافية لمنعهم من ا حتلال مكة عقب انتهاء موسم الحج مباشرة،وقد أدت هذه التجربة بحاكم مسقط إلى تقدير بأس الدولة السعودية فتعهد بعد عودته لبلاده بأن يدفع اتاوة سنوية إلى الحكومة السعودية مقـابل وقاية أراضيه ، وقد تداعى هـذا الترتيب الموقت في وجه الشعور العدائي بين الجناحين المتقابلين ونشبت الحرب بينهما بعد ذلك بوقت قصير .

وزحف سالم الحرق ، أمير البريمي السعودي ، إلى الباطنة ، وكان بلا شك يحتل المنطقة بأسرها ، لو لم تثنه عن ذلك وفاة الإمام عبد العزيز في شهر رجب ١٢١٨ هـ . نوفمبر ١٨٠٣ م .

ويقول هوغارث ان عبد العزيز (حصل بواسطة قوات مسلحة أو مبعوثين على ولاء كل شبه الجزيرة ، باستثناء القسم الجنوبي الغربي) .

رواية المنتخبات :

وقد وجدنا في منتخبات حكومة بومباي ، المنشورة باللغة الانكليزية ، كلاماً عن هذه الفترة التي يشير اليها العرض أكثر وضوحاً ، إذ جاء فيها ان عبد العزيز كان يهدد عام ١٢١٤ — ١٢١٥ هـ. باكتساح عمان ، لتظاهر إمامها بالولاء للشريف غالب ، وقد ذهب إمام مسقط — وهو في نفس الوقت إمام عمان — إلى رأس الخيمة واجتمع بالشيخ صقر وعقد معه معاهدة الغرض منها الوقوف في وجه أي هجوم وهابي .

وفي سنة ١٨٠٢ م . وصل الوهابيون إلى مشارف عمان ، وكانوا يطلبون في طريقهم من البدو الانضمام اليهم فيقبلون على ذلك ، فامتد النفوذ الوهابي ، اسما على كل الساحل من البصرة إلى دبي ، بين مسقط وأرض القواسم ، ولو استطاع الوهابيون الاستقرار هناك وتقوية مراكزهم لانطلقوا إلى جميع الجهات براً وبحراً .

عجز إمام مسقط عن وقف المد الوهابي ، فعقد مع الدرعية معاهدة لمدة ثلاث سنوات ، ولكن الأمير الوهابي لم يلتزم بهذا الصلح ، وهاجم عمان برا وبحرا واستطاعت فرقة وهابية أن تصل إلى مقربة من مقر إمام مسقط الصيفي . ويقول الكابيتين ستون : إن الوهابيين لو قدر لهم الاستيلاء على عمان لأخضعوا البلاد العربية كلها لسلطانهم ..

الكويت

يذكر ابن بشر غزوتين للكويت وقعتا في عهد عبد العزيز :

أولاهما سنة ١٢٠٨ هـ . حين غزا ابراهيم بن عفيصان أهل الكويت ، وأعدّ لهم كميناً وقتل منهم ثلاثين رجلاً .

والثانية سنة ١٢١٢ هـ . حين غزا منـــاع ابارجلين الزعبي بجيش من أهل الأحساء وقصد الكويت وأغار على سوارح البلد فأخذها ، فخرج اليه أهل البلد ووقع بينهم قتال ، سقط فيه من أهل الكويت عشرون قتيلاً [١] .

هــذا كل ما نجده في ابن بشر ، عن امور الحرب والسلم بين نجد والكويت ، وان الإنسان ليتعجب من بقــاء الكويت في تلك الفترة ، على صغر رقعتها وقلة عددها ، خارجة عن سلطان الدرعية ، فما هو السر ؟

يقول مؤلف التاج المكلل ان أهل الكويت، بعد غارة جنود عبد العزيز على مشهد الحسين، خافوا سطوة عبد العزيز فبذلوا له الخدم الوافرة والتحف السنية، فكفّ عنهم .

---

(١) في تاريخ الكويت السياسي : (ثم ان الكويتيين جمعوا شملهم وقرروا القيـــام بحملة تأديبية على أطراف نجد ، فجهزوا سرية كبيرة وأسندوا قيادتها الى مشاري بن عبد الله الحسين.. إلا أن هذه السرية لم تنجح ، فعادت الى الكويت ..) .

ويقول « دليل الخليج الفارسي »: إن الممثلين البريطانيين في الكويت أرسلوا الهدايا الى عبد العزيز ، وإن عبد العزيز كان يحمي البريد البريطاني في مروره عبر الأراضي النجدية الى البـلاد الاوربية ، ولكن هؤلاء الممثلين ساعدوا ، في نفس الوقت ، سكان الكويت على دفع الهجوم على بلادهم .

ونقل مؤلف تاريخ « العربية الشرقية »[1] عن بريدجس قوله: (ان الوهابيين هاجموا الكويت بخمسمائة مقاتل ، وإن شيخ الكويت عبد الله الصباح دفعهم عن مدينته بشجاعة وقوة، وإن طلقة واحدة من مدفع استعمله شيخ الكويت كانت كافية لردّ المهاجمين وإنزال الهزيمة بهم) .

ويعود المؤلف فينقل لنا عن « رينو » ، الضابط في البحرية البريطانية ، أنه أنزل من مدرعة بريطانية مدفعين الى بر الكويت ، وأن جنود المصنع البريطاني في الكويت اشتركوا في دفع المهاجمين أيضاً .

---

(١) انظر كتاب (History of Eestern Arabia) تأليف أحمد مصطفى أبو حاكمة.

غزوات عبد العزيز ضد العربان

غزا عبد العزيز ، بنفسه او بولده سعود ، البدو غزوات كثيرة ، كما غزاهم باسمه أخوه عبد الله بن محمد بن سعود ، ففي سنة ١١٧٩ هـ. غزا عبدالله (شلية) من (سبيع) ، وهم بالعرمة ، وأخذ إبلهم وخيلهم وغنمهم وأمتعتهم .

وفي العام ١١٨١ هـ. غزا رجال الدرعية ، وأميرهم عبد العزيز ، فريقاً من عربان اليمن ، على المربع ، وأخذ إبلا لهم .

وفي سنة ١١٨٢ سار عبد العزيز الى سبيع ، وكانوا على الحائر ، فقاتلهم فانهزموا الى (قصر الحائر) واحتموا به ، فاكتفى بأخذ ما استطاع أخذه من الإبل والخيل والأمتعة وعاد الى الدرعية .

وفي هذه السنة أيضاً غزا سعود بن عبد العزيز آل مرة ، وكانوا على ماء (قنا) ومعهم غيرهم ، ولم يكد القتال ينشب بين الفريقين حتى تلاحقت الامداد على بني مرة فاضطر سعود الى الانسحاب بعد أن استشهد عشرة من رجاله .

ويقول فيلبي : (في سنة ١٧٦٨ م. عرف سعود لأول مرة في حياته القيادة المستقلة في حملتين ، فسارت الاولى منها سيراً حسناً ضد الزلفى .. وسارت الثانية ضد آل مرة ، وقد كانت في البداية حسنة ، ولكنها انتهت بتقهقر جيش سعود ، عندما تقاطرت النجدات لمساعدة خصومه ، ومُني جيش سعود ببعض

الاصابات ، منها موت ناصر بن عثمان بن معمر ، الذي كان سيصبح زعيماً للعيينة ..) .

وفي سنة ١١٨٤ هـ. غزا عبد العزيز المحرة من آل ظفير وأخذ منهم إبلاً ، ثم غزا سبيع في الحائر ، وشرع في قطع نخيلهم ، فلما طال الحصار عليهم طلبوا الدخول في الدين القويم وأعلنوا طاعتهم وولاءهم وبايعوا على الاسلام .

وفي سنة ١١٨٥ غزا سعود آل ظفير ، وكانوا في أرض (غيانة) ، فقتل كثير منهم .

وفي سنة ١١٩٥ غزا سعود قبائل الظفير ومعهم غيرهم من عنزه وكانوا على (مبايض) فهزمهم وولوا هاربين (واستأصل سعود أكثر أموالهم وحازها ، فالأغنام نحو ١٧ ألفاً والإبل خمسة آلاف، ومن الخيل خمسة عشر فرساً ، وحاز جميع ما في الحلة من الأثاث والأمتعة ، وقتل منهم قتلى كثيرة من الفرسان والرجالة ..)[١] .

وفي سنة ١١٩٧ غزا سعود فرقة الصهبة من مطير وقتل عدة من شجعانهم واستولى على أموالهم .

وفي سنة ١١٩٩ غزا سعود سبيع واستخلص منهم إبلاً كانت عندهم لأهل الحريق .. ثم غزا فرقان اليمن النازلين في الرويضة ، ولكن السهول أمدوهم فلما رأى سعود كثرتهم رجع عنهم ..

وفي سنة ١٢٠٥ غزا سعود فريقاً من مطير وقتل منهم حوالي خمسين وأخذ إبلهم وأغنامهم .

وفي سنة ١٢٠٦ غزا سعود مطير أيضاً وأخذ منهم ثلاثة آلاف من الإبل وثلاثين من الخيل وقتل عدداً من رجالهم، ثم غزا هادي بن قرملة مطير كذلك واستولى على ثلاثة آلاف من إبلها .

---

(١) ابن بشر .

وفي سنة ١٢٠٩ غزا سعود فرقـــة من آل ظفير تدعى القواسم وغنم منهم ١٥٠٠ من الإبل .

وفي سنة ١٢١٢ غزا سعود عرباناً كانوا مجتمعين على الابيض، بأعداد كبيرة وخيل كثيرة ، وكان فيهم بدو من شمر ، ورئيسهم مطلق الجربا ، الفارس الشجاع ، ومعه رجال من الظفير والبعيج والزقاريط ، (فحصل بينهم قتـال شديد وطرد خيل ، ثم حمل عليهم المسلحون فدهموهم في منازلهم وبيوتهم فقتل عدة رجال من فرسان شمر والظفير وغيرهم ، وقتل ذلك اليوم مطلق الجربا ، وكان على جواد سابق ، وهو يقلبه يمنة المسلمين ويسرتهم فعثرت بـه جواده في نعجة وأدركه رئيس السهول فقتله، وغنم المسلمون أكثر محلتهم وإبلهم وأمتاعهم، وقتل من المسلمين عدة رجال .. منهم برّاك بن عبد المحسن) [١] .

غزو الشرارات في الشام :

وذكر ابن بشر ، في أخبار سنة ١٢١٢ ، ما يأتي :

(وفيها غزا حجيلان بن حمـد ، أمير ناحية القصيم ، بجيش من أهل القصيم وغيرهم ، وقصدوا أرض الشام ، وأغـاروا على بوادي الشرارات ، فانهزموا ، فقتل منهم نحو مائة وعشرين رجلاً ، وأخــذ من الإبل نحو خمسة آلاف بعير وأغناماً كثيرة وأكثر حللهم وأمتعتهم وأزوادهم ، وعُزلت الأخمـاس وأخذها عمال عبد العزيز ، وقسم باقيها في ذلك الجيش غنيمة ، للراجل سهم وللفـارس سهمان .) .

---

(١) ابن بشر .

مصرع عبد العزيز

في أواخر شهر رجب سنة ١٢١٨ هـ . ، بينما كان الإمام عبد العزيز يؤدي صلاة العصر في مسجد الطريف بالدرعية ، فاجأه قاتل أثيم بطعنة خنجر ، كانت فيها منيته ، فمات شهيدا .

ويقول ابن بشر ان القاتل وثب على الإمام من الصف الثالث ، وعبد العزيز في السجود (فطعنه في خاصرته ، أسفل البطن بخنجر معه قد أخفاه وأعده لذلك .. فاضطرب أهل المسجد ، وماج بعضهم في بعض ، ولم يكونوا يدرون ما الأمر ، فمنهم المنهزم ، ومنهم الواقف ، ومنهم الكار إلى جهة العدو العادي.

وكان لما طعن عبد العزيز ، أهوى إلى أخيه عبد الله ، وهو إلى جانبه وبرك عليه ليطعنه ، فنهض عليه وتصارعا وجرح عبد الله جرحاً شديدا ، ثم إن عبد الله صرعه وضربه بالسيف ، وتكاثر عليه الناس وقتلوه ، وقد تبين لهم وجه الأمر .

ثم حمل الإمام إلى قصره ، وقد غاب ذهنه وقرب نزعه ، لأن الطعنة قد هوت إلى جوفه ، فلم يلبث أن توفى ، بعد أن صعدوا به إلى القصر ، رحمه الله تعالى وعفا عنه .

واشتد الأمر بالمسلمين وبهتوا .

وكان ابنه سعود في نخله المعروف بمشيرفة في الدرعية ، فلما بلغه الخبر أقبل

مسرعاً ، واجتمع الناس عنده ، وقام فيهم ووعظهم موعظة بليغة ، وعزّاهم فقام الناس وبايعوه ، خاصتهم وعامتهم ، وعزوه بأبيه) .

من هو القاتل :

يقول ابن بشر ان القاتل .. درويش جاء إلى الدرعية (وادعى أنه مهاجر وأظهر التنسك والطاعة ، وتعلم شيئاً من القرآن ، فأكرمه عبد العزيز وأعطاه وكساه) .

ويقول مؤلف اللمع إن هذا الرجل جاء من بغداد مع ركب من أهل الدرعية فقدم على عبد العزيز ، وقال :

« أنا رجل من بغداد ، سمعت بدينك من عشر سنوات ، ولكن لم أتمكن من الوصول اليك .. والآن — والحمد لله — قد بلغت مرادي ، فأنا أعاهدك على هذا الدين ، وليس لي بعد ذلك رجوع إلى أهلي وعيالي ، بل داركم هذه دار هجرة ومقام المؤمنين ، وأنتم أعز عليّ من جميع قومي وعشيرتي » .

وكان رجلاً فصيحاً ، فقبل ذلك منه عبد العزيز ، وقرّبه اليه ، حيث أنه رأى منه الملازمة على صلاة الجماعة والتجنب عن بعض الأمور .. المراد أن عبد العزيز أحبه أتم محبة ،وكان إذا دخل المسجد للصلاة يجعله إلى جنبه ويقول: هذا من الطائعين المخلصين » ..

اسم القاتل ، وبلده ، ومحرضه :

يبدأ ابن بشر بالقول ان القاتل كردي (من أهل العمادية ، بلد الأكراد المعروف عند الموصل ، اسمه « عثمان » ، أقبل من موطنه لهذا المقصد محتسباً .)

ثم يعود فيتشكك في صحة روايته الاولى ، فيقول : (وقيل ان هذا الدرويش ، الذي قتل عبد العزيز ، من أهل بلد الحسين ، رافضي خبيث ، خرج من وطنه لهذا القصد ، بعد ما قتلهم سعود فيها ، وأخذ أموالهم ، فخرج ليثأر ، وكان قصده قتل سعود ، فلم يقدر عليه ، فقتل عبد العزيز .

وهذا ، والله أعلم ، أحرى بالصواب ، لأن الأكراد ليسوا بأهل رفض ، ولا في قلوبهم غلّ على المسلمين .)

والواقع ان المؤرخين اختلفوا في اسم القاتل وفي بلده وفي دافعه الى القتل!..
ولعل القاتل تسمى، في الدرعية، باسم « عثمان » ، ليبعد الشبهة عن شيعيته، ولذلك جاء في (دوحة الوزراء) ان هذا الرجل « يقال له » : ملاّ عثمان ..
وفي (اللمع) ان اسمه الحقيقي : « علي » ، وفي رواية (التاج المكلل) ان اسمه : « عبد القادر » .

جنسيته :

يقول ابن بشر في روايتيه ان القاتل عراقي .
وفي دوحة الوزراء أنه أفغاني الأصل كان يقيم في بغداد .
وفي التاج المكلل أنه فارسي الأصل من جيلان .
وفي لمع الشهاب أنه عربي من بغداد ، واسمه الكامل : الحاج علي البغدادي .

المحرّض :

في التاج المكلل ان الذي حرّض على القتل ودفع القاتل اليه هو ملك العجم، لأن ابن سعود انتزع القطيف والبحرين من ملكه ، ثم خرب مشهد الحسين ، (ولما لم يكن له طاقة في محاربته والتوصل اليه ، عمد الى الإيقاع به بالحيلة ، فأنفذ اليه عبد القادر المذكور ، فأتى الى الدرعية وتظاهر بالدين والعبادة .)

قد تبدو هذه الرواية ضعيفة، ولكننا وجدنا في تاريخ مانجان — وهو مؤرخ موثوق — قصة تؤيدها ، قال : (قُتل عبد العزيز في ١٨ رجب سنة ١٢١٨ هـ . وقد وجدوا في عمامة قاتله ورقة مغفلة من الخاتم ، كتب عليها بالفارسية هذه الكلمات :

إن ربك ودينك يوجبان عليك قتل عبد العزيز ،
فإذا استطعتَ الهرب نلتَ مكافأة عظيمة ،
وإذا وقعتَ ، فاعلم أن الجنة قد فتحت لك أبوابها)

وهذه القصة — إذا صحّت — قد تدلُّ على اشتراك بعض الفرس ، سواء من فارس أم من العراق، في المؤامرة ، وان المباشر للقتل فارسي، بدليل مخاطبتهم له بلغته ، والله أعلم .

ويقول مؤلف (لمع الشهاب) ان والي بغـــداد علي باشا ، هو الذي دبّر المؤامرة ، ويعطينا التفاصيل الآتية :

(إن علي باشا – الذي تولى وزارة بغداد بعد سليمان باشا – كان دائم الحقد على آل سعود ، وعلى كل من هو متمسك بدعوة محمد بن عبد الوهاب .

وكانت له همم عليّة وقدرة جليّة في إرسال العساكر عليهم ، لكن شغله عنهم مخاصمته مع العجم ، حيث ألقى حرباً على الشاه « زاده محمد علي ميرزا » والي كرمنشاه .

والحاصل : ان علي باشا مرّ يوماً على جسر بغداد ، فقال لبعض ندمائه :

(لو يحصل عنـدي من يبذل نفسه ويسير الى الدرعية ، فيقتل عبد العزيز غيلة ، لأعطيته الآن ألف ، وإذا بلغني فعله بموجب ما أريد منه ، قررت لعياله وعيال عياله وظائف من الديوان لا تنقطع أصلاً ، وكتبت كتاباً تذكر فيه اللعنة على من يخالف ذلك من وزراء بغداد بعدي .)

قال الراوي : فلما كان الغد ، أتى رجل بيده رقعة ، فوقف مقـابل طارمة الباشا ، على ما يقف أهل الشكوى ، فالتفت « علي باشا » وقال : إيتوني بما في يد هذا الرجل .

فأتوه بالرقعة ، وإذا مكتوب فيها :

(من الفقير الحقير علي ، الى جناب ولي نعمته الوزير المعظم علي باشا .

أما بعد .. فقد سمعت انك تريد من يكفيك شر عبد العزيز النجدي بقتله ، فهذا أنا أفعل ذلك ، بحول الله تعالى .)

فأمر علي باشا بإحضاره لديه ، وقال له : أنت علي ؟

قال : نعم .

قال : أتوفي بما قلت ؟

قال : نعم .

فأمر له بألف ذهب ، وقال : هذه توضع بيد من تأمنه من الناس المعروفين

في بغداد ، فإذا بلغنا صنعك فهي لك، تعطى لعيالك، ولهم أيضاً وظيفة جارية تكفيهم من جميع الوجوه ، الى مدة بقاء الدولة العثمانية !

فسار الرجل إلى بيته وودّع عياله، وأخذ له بعض المتاع فأحقبه على ظهره، ثم أتى قبيل العصر إلى علي باشا واستأذن الدخول عليه فأذن له فدخل ، وقال:

ها أنا سائر على بركات الله تعالى ، وأنت اصنع .. الذي وعدت به !

فنادى الباشا أحد خدامه ليأتيه بحصان أو بغل.. فقال: إني لا أريد شيئاً، أمشي مع القوافل برسم الحاج الفقير المضطر ، حتى أصل الدرعية ..

.. فأمر علي باشا من ساعته بألف ذهب ، وضعت بيد من هو ائتمنه ، وأمر أيضاً بقدر من الطعام والدراهم سلمت إلى عياله .. ثم سار .. وكان مسيره يوم الأحد ٧ صفر (١٢١٩) فانحدر إلى البصرة ، حتى وصل إلى الدرعية .) [١]

.. وتقرّب من الإمام عبد العزيز وكان يصلي في المسجد قريباً منه ، وبقي كذلك أكثر من عام يتظاهر بالتقوى والانصراف عن الدنيا وأمورها .

(.. وفي يوم الجمعة غرة رجب من العام ١٢٢٠ أخفى الحاج (علي) خنجره تحت ثيابه وصمم على قتل عبد العزيز في وسط الصلاة ، ففعل ذلك ، فخرّ عبد العزيز ميتاً .)

فنهض اليه رجال عبد العزيز وقطعوه إرباً إرباً .

وبعد شهر كامل (بلغ الخبر إلى بغداد وسمع به علي باشا وسُرّ به غاية السرور ، ولما تحقق أن القاتل هو الحاج (علي) البغدادي .. أرسل خلف أولاده وأكرمهم ودفع لهم الألف ذهب .. ثم أجرى لهم كل شهر كذا .. من الدراهم) .

---

(١) توفي الامام عبد العزيز سنة ١٢١٨ مما يدل على ضعف رواية لمع الشهاب .. وإن كان الخطأ في التاريخ لا يعني بطلان الرواية كلها .



الملحق

رسائل عبد العزيز



رسالة عبد العزيز الى الفرس والترك

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى من يراه من أهل بلدان العجم والروم .

أما بعد ، فإنا نحمد اليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وهو للحمد أهل ، ونسأله أن يصلي ويسلم على حبيبه من خلقه وخليله من عبيده وخيرته من بريته محمد عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى التحيات وعلى إخوانه من المرسلين وعلى آله وأصحابه صلاة وسلاماً دائمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

ثم نخبركم أن (محمد خلف النواب) وفد[1] علينا مع الحاج وأقام عندنا مدة طويلة وأشرف على ما نحن عليه من الدين ومـا ندعو اليه الناس ونقاتلهم عليه وما نأمرهم به ومـا ننهاهم عنه ، وحقائق ما عندنا يخبركم بها أخونا محمد من الرأس ..

ونحن نذكر لكم على سبيل الإجمال ..

أما الذي نحن عليه ، وهو الذي ندعو اليه من خالفنا : أنا نعتقد أن العبادة حق لله على عبيده ، وليس لأحد من عبيده في ذلك شيء ، لا ملك مقرب ولا نبي

---

(١) في الأصل (ألفا أو ألفى) وهي عامية نجدية معناها جاء أو وفد ، أبدلناها بالكلمة الفصيحة .

مرسل ، فلا يجوز لأحد أن يدعو غير الله لجلب نفع أو دفع ضرر ، وإن كان نبياً أو رسولاً أو ملكاً أو ولياً ، وذلك أن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز : ﴿ وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ ، وقال على لسان نبيه ﷺ : ﴿ قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً . قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً ﴾ . وقال عز من قائل : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حُشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ ، وقال عز من قائل : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي اليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾، وقال جلّ ثناؤه وتقدست أسماؤه : ﴿ له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ . وقال : ﴿ ومَن يدعُ مع الله إلهاً آخر لا برهان له به ، فإنما حسابه عند ربه ، إنه لا يفلح الكافرون ﴾ .

ولا يجوز لأحد أن يتوكل على غير الله ولا يستعيذ بغير الله ولا ينذر لغير الله تقرباً اليه بذلك ولا يذبح لغير الله ، كما قال تعالى : ﴿ فصلّ لربك وانحر ﴾ ، وقال : ﴿ قل إن صلاتي ونُسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرتُ وأنا أول المسلمين ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

فإن قال قائل: أتوسل بالصالحين وأدعوهم أريد شفاعتهم عند الله، وقد يحتج على ذلك بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة ﴾ ، قيل له : **الوسيلة المأمور بها هي الأعمال الصالحة** ، وبذلك فسّرها جميع المفسرين من الصحابة فمن بعدهم أو يتوسل إلى الله بعمله الصالح ، كما قال عز وجل إخباراً عن المؤمنين : ﴿ ربنا إننا آمنّا فاغفر لنا ذنوبنا وقِنا عذاب النار ﴾ . وقال عنهم في آخر السورة : ﴿ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمِنوا بربكم فآمنّا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفّرْ عنا سيئاتنا وتوفّنا مع الأبرار ﴾ ، وكما في حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة في الغار فتوسلوا

إلى الله بصالح أعمالهم ففرّج الله عنهم . وأمـــا دعوة غير الله والإلتجاء اليهم والاستغاثة بهم لكشف الشدائد او جلب الفوائد فهو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه وهو الذي أرسل الله رسله وأنزل كتبه بالنهي عنه ، وإن كان الداعي غير الله إنما يريد شفاعتهم عند الله ، وذلك لأن الكفار مشركي العرب وغيرهم ، إنما أرادوا ذلك كما قال تعـالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرّهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عنـــد الله ﴾ ، وقال في الآية الاخرى : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء مـا نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، إن الله لا يهـدي من هو كاذب كفّار ﴾ ولم يقولوا إنها تخلق وترزق وتحيي وتميت وإنمـــا كانوا يعبدون آلهتهم ويعبدون تماثيلهم ليقرّبوهم إلى الله ويشفعوا لهم عنـده فبعث الله رسله وأنزل كتبه ينهى أن يدعى أحد غيره ولا من دونه لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة وهذا هو دين جميع الرسل لم يختلفوا فيه كما اختلفت شرائعهم في غيره . قال الله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين مـــا تدعوهم اليه ﴾ ، وهو معنى لا إله إلا الله ، فإن الإله هو المعبود بحق او باطل فمن عبَد الله وحده لا شريك له وأخلص الدعوة كلهـا لله وأخلص التوكل على الله وأخلص الذبح لله وأخلص النذر لله ، فقد وحّد الله بالعبـادة وجعل الله إلهه دون ما سواه ومن أشرك مع الله إلهاً غيره في الدعوة او في الاستغاثة او في التوكل او في الذبح او في النذر فقد اتخذ مع الله إلهاً آخر وعبَد معه غيره وهو أعظم الذنوب إثماً عند الله ، كما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قلت : يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قـال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك الحديث ، وقال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ، وقال : ﴿ ومن يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار ﴾ ، وهـذا هو سبب عداوة الناس لنا وبغضهم إيانا لما أخلصنا العبادة لله وحده ونهينا عن دعوة غير الله ولوازمها من البـدع المضلة والمنكرات المغوية ،

فلأجل ذلك رمونا بالعظائم وحاربونا ونقلونا عنـد السلاطين والحكام وأجلبوا علينا بخيل الشيطان ورجله فنصرنا الله عليهم وأورثنا أرضهم وديارهم وأموالهم وذلك سنة الله وعادته مع المرسلين وأتباعهم إلى يوم القيامة . قال تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾، وقال سبحانه : ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ ، وقال عن موسى صلاة الله وسلامه عليه أنه قال لقومه : ﴿ إستعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عبـاده والعاقبة للمتقين ﴾ ، وقال تعـالى : ﴿ ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننجي المؤمنين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ .

ونأمر رعايانا باتباع كتاب الله وسنة رسوله وإقام الصلاة في أوقاتها والمحافظة عليهـا وإيتاء الزكاة وصوم شهر رمضان وحج البيت من استطاع اليه سبيلاً ونأمر بجميع مـا أمر الله به ورسوله من العدل وإنصاف الضعيف من القوي ، ووفاء المكاييل والموازين ، واقامة حدود الله على الشريف والوضيـع ، وننهى عن جميع ما نهى عنه الله ورسوله من البدع والمنكرات ، مثل الزنا والسرقة وأكل أموال الناس بالباطل ، وأكل الربا وأكل مال اليتيم ، وظلم الناس بعضهم بعضاً ، ونقاتل لقبول فرائض الله التي أجمعت عليها الأمة ، فمن فعل ما فرض الله عليه فهو أخونا المسلم وإن لم يعرفنا ونعرفه . ونحن نعلم أنه يأتيكم أعداء لنا يكذبون علينا عندكم ويرموننا عندكم بالعظائم حتى يقولوا انهم يسبون النبي ﷺ ويكفرون الناس بالعموم ، وإنا نقول ان الناس من نحو ستمائة سنة ليسوا على شي ، وانهم كفار ، وإن من لم يهاجر الينا فهو كافر وأضعاف أضعاف ذلك من الزور الذي يعلم العاقل أنه من الظلم والعدوان والبهتان، ولكن لنا في رسول الله أسوة ، فإن أعداءه قـالوا انه يشتم عيسى وأمه وسموه بالصابىء والساحر والمجنون . ونحن لا نكفر الا من عرف التوحيد وسبه وسماه دين الخوارج ، وعرف الشرك وأحبه وأحب أهله ودعا اليه وحضّ الناس عليه بعد ما قامت عليه الحجة وإن لم يفعل الشرك أو فعل الشرك وسماه التوسل بالصالحين بعد ما عرف ان الله حرمه ، أو كره بعض ما أنزل الله ، كما قال الله تعالى : ﴿ ذلك

بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ﴾ ، أو استهزأوا بالدين أو القرآن ، كما قال تعالى : ﴿ قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ، لا تعتذروا ، قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ . قال العلماء في هذه الآية : الاستهزاء بالله كفر مستقل بالإجماع ، والاستهزاء بالرسول كفر مستقل بالإجماع .

وهذه الأنواع التي ذكرنا أننا نكفر من فعلها قد أجمع العلماء كلهم من جميع أهل المذاهب على كفر من فعلها،وهذه كتب أهل العلم من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم موجودة ، ولله الحمد والمنة وصلى الله على نبينا محمد وصحبه وسلم) .

رسالة عبد العزيز الى أهل المخلاف السليماني

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى من يراه من أهل المخلاف السليماني، وفقنا الله وإياهم إلى سبيل الحق والهداية ، وجنبنا وإياهم طريق الشرك والغواية ، وأرشدنا وإياهم إلى اقتفاء آثار أهل العناية .

أما بعد ، فالموجب لهذه الرسالة أن (الشريف أحمد) قدم علينا فرأى ما نحن عليه وتحقق صحة ذلك لديه ، فبعد ذلك التمس منا أن نكتب ما يزول به الإشتباه لتعرفوا دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه .

فاعلموا ، رحمكم الله تعالى ، أن الله أرسل محمداً ﷺ على فترة من الرسل ، فهدى الله به إلى الدين الكامل والشرع التام ، وأعظم ذلك وأكبره وزبدته إخلاص العبادة لله لا شريك له ، والنهي عن الشرك ، وذلك هو الذي خلق الله الخلق لأجله ودلّ الكتاب على فضله، كما قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أُمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ .

وإخلاص الدين هو صرف جميع أنواع العبادة لله تعالى وحده لا شريك له ، وذلك بأن لا يدعى إلا الله ولا يستغاث إلا بالله ولا يذبح إلا لله ولا يخشى ولا يرجى سواه ، ولا يرهب ولا يرغب إلا فيما لديه ، ولا يتوكل في جميع الأمور إلا

عليه، وأن كل ما هنالك لله تعالى ، لا يصلح منه شيء لملك مقرب ولا نبي مرسل ولا غيرهما . وهذا هو بعينه توحيد الألوهية الذي أسس الإسلام عليه ، وانفرد به المسلم عن الكافر ، وهو معنى شهادة أن لا إله إلا الله .

فلما منّ الله علينا بمعرفة ذلك وعرفنا أنه دين الرسل اتبعناه ودعونا الناس اليه ، وإلا فنحن قبل ذلك على ما عليه غالب الناس من الشرك بالله من عبادة أهل القبور والإستغاثة بهم والتقرب الى الله بالذبح لهم وطلب الحاجات منهم مع مـا ينضم الى ذلك من فعل الفواحش والمنكرات وارتكاب الأمور المحرمات وترك الصلوات وترك شعائر الإسلام حتى أظهر الله الحق بعد خفائه وأحيا أثره بعد عفائه على يد شيخ الإسلام فهدى الله تعالى به من شاء من الأنام (وهو الشيخ محمـد بن عبد الوهاب) أحسن الله له في آخرته المآب ، فأبرز لنا ما هو الحق والصواب من كتاب الله المجيد ، الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) فبين لنا أن الذي نحن عليه ، وهو دين غالب الناس من الاعتقادات في الصالحين وغيرهم ودعوتهم والتقرب بالذبح لهم والنذر لهم والإستغاثة بهم في الشدائد وطلب الحاجات منهم ، انه الشرك الأكبر الذي نهى الله عنه وتهدد بالوعيد الشديد عليه وأخبر في كتابه انه لا يغفره إلا بالتوبة منه قال الله تعـالى : ﴿ ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر مـا دون ذلك لمن يشاء ﴾، وقال تعالى : ﴿ ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيمة يكفرون بشركم ولا ينبئك مثل خبير ﴾ ، والآيات في ان دعوة غير الله تعالى الشرك الأكبر كثيرة واضحة شهيرة .

فحين كشف لنا الأمر وعرفنا مـا نحن عليه من الشرك والكفر بالنصوص القاطعة والأدلة الساطعة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وكلام الأئمة الأعلام الذين أجمعت الأمة على درايتهم ، عرفنا ان ما نحن عليه وما كنا ندين به أولاً انه الشرك الأكبر الذي نهى الله عنه وحذر ، وان الله إنما أمرنا أن ندعوه وحده لا شريك له ، وذلك كما قال تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله

من لا يستجيب له إلى يوم القيمة وهم عن دعائهم غافلون، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ .

إذا عرفتم هذا فاعلموا رحمكم الله تعالى ان الذي ندين الله به هو إخلاص العبادة لله وحده ونفي الشرك واقام الصلاة في الجماعة وغير ذلك من أركان الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يخفى على ذوي البصائر والافهام والمتدبرين من الأنام إن هـذا هو الدين الذي جاءنا به الرسول ﷺ ، قال جل جلاله : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ فمن قبل ولزم العمل به فهو حظه في الدنيا والآخرة ونعم الحظ دين الإسلام، ومن أبى واستكبر فلم يقبل هدى الله لما تبين له نوره وسناه نهيناه عن ذلك وقاتلناه ، قال الله تعالى : ﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ وصلى الله على محمد .

رسالة عبد العزيز الى القاسمي

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى جناب **أحمد بن علي القاسمي**، هداه الله لما يحبه ويرضاه... أما بعد فقد وصل الينا كتابك وفهمنا ما تضمّنه من خطابك وما ذكرت من أنه قد بلغكم ان جماعة من أصحابنا صاروا ينقمون على من هو متمسك بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ممن مذهبه مذهب أهل البيت الشريف (فليكن) لديك معلوماً أن المتمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما عليه أهل البيت الشريف فهو الذي لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ولكن الشأن في تحقيق الدعوى بالعمل وهذه الأمة افترقت على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة. قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: « من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي » وجميع أهل البدع والضلال من هذه الأمة يدعون هذه الدعوى كل طائفة تزعم انها هي الناجية، فالخوارج والرافضة الذين حرقهم علي ابن أبي طالب بالنار، وكذلك الجهمية والقدرية واضرابهم كل فرقة من هذه الفرق تدعي انها هي الناجية وانهم المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فصار في هذا تصديق لقوله ﷺ: « ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ».

وأما ما ذكرت من أن مذهب أهل البيت أقوى المذاهب وأولاها بالاتباع فليس لأهل البيت مذهب إلا اتباع الكتاب والسنة كما صحّ عن علي بن أبي طالب

رضي الله عنه أنه قيل له : هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء ؟ فقال : لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهم يؤتيه الله عبداً في كتابه وما في هذه الصحيفة . — الحديث وهو مخرج في الصحيحين — وأهل البيت رضي الله عنهم كذبت عليهم الرافضة ونسبت اليهم ما لم يقولوه ، فصارت الروافض ينتسبون اليهم ، وأهل البيت براء منهم ، فإياك أن تكون أنت وأصحابك منهم ، فإن أصل دين رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام هو توحيد الله بجميع أنواع العبادة لا يدعى إلا هو ، ولا ينذر إلا له ، ولا يذبح إلا له ، ولا يخاف خوف السر إلا منه ، ولا يتوكل إلا عليه ، كما دل على ذلك الكتاب العزيز ، فقال تعالى : ﴿ وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من من قبلك من رسول إلا نوحي اليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾. فهذا التوحيد هو أصل دين أهل البيت عليهم السلام ، من لم يأتِ به فالنبي ﷺ وأهل بيته براء منه ، قال الله تعالى : ﴿ وأذانٌ من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ﴾ . ومن مذهب أهل البيت إقامة الفرائض كالصلاة والزكاة والصيام والحج. ومن مذهب أهل البيت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإزالة المحرمات . ومن مذهب أهل البيت محبة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ، وأفضل السابقين الأولين الخلفاء الراشدون كما ثبت ذلك عن علي من رواية ابنه محمد بن الحنفية وغيره من الصحابة أنه قال : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر . والأدلة الدالة على فضيلة الخلفاء الراشدين أكثر من أن تحصر ، فإذا كان مذهب أهل البيت ما أشرنا اليه وأنتم تدّعون أنكم متمسكون بما عليه أهل البيت مع كونكم على خلاف ما هم عليه بل أنتم مخالفون لأهل البيت وأهل البيت براء مما أنتم عليه ، فكيف يدّعي اتباع أهل البيت من يدعو الموتى ، ويستجير بهم في قضاء حاجاته ، وتفريج كرباته ، والشرك ظاهر في بلدهم ، فيبنون القباب على الأضرحة ويدعونهم مع

الله ، والشرك بالله هو أصل دينهم ، مع ما يتبع ذلك من ترك الفرائض واقتراف المحرمات التي نهى الله عنهـا في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ ، وسب أفاضل الصحابة كأبي بكر وعمر وغيرهما من الصحابة .

وأما قولك ان أناساً من أصحابنا ينقمون عليكم في تعظيم النبي المختار ﷺ ، فنقول بل الله سبحانه افترض على الناس محبة النبي ﷺ وتوقيره وأن يكون أحب اليهم من أنفسهم وأولادهم والنـاس أجمعين ، ولكن لم يأمرنا بالغلو فيه ، وإطرائه ، بل هو ﷺ نهى عن ذلك فيما ثبت عنه في الصحيح أنه قـال : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنمـا أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » . وفي الحديث الآخر أنه قال وهو في السياق : « لعنـة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »، يحذر ما صنعوا . قالت عائشة رضي الله عنها : **ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن خشي أن يتخذ مسجداً** ، وفي الحديث الآخر عنه ﷺ أنه قال : « لا تتخذوا قبري عيداً وصلوا عليّ فإن صلاتكم **تبلغني حيث كنتم** » وثبت عن علي بن الحسين أنه رأى رجلاً يأتي الي فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدعو ، فنهاه عن ذلك واحتج عليه بالحديث .

وأما قولك ان المراد بقوله :« لا تتخذوا قبري عيداً » تكرار الزيارة المرة بعـد المرة والفينة بعد الفينة وان الزيارة لا تكون مثل العيد مرتين فقط بل تكون متتابعة ومكررة فلا يكون الاعتقاد منكم غير هـذا . فهذا دليل على جهلك بمذهب اهل البيت وبما شرعه الله تعالى ورسوله ﷺ فإن أهل البيت فسروا الحديث بأن المراد اعتياد اتيانه والدعاء عنده كما تقدم ذلك عن زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنه ، وهذا هو الذي استمر عليه عمل السلف وأهل البيت فإنهم كانوا اذا دخلوا مسجد رسول الله ﷺ سلموا عليه وعلى صاحبيه ولم يقفوا عند النبي ﷺ لأجل الدعاء هناك ولم يتمسحوا به، بل اذا أراد أحدهم الدعاء هناك انصرف عن القبر واستقبل القبلة ودعا ..

وأما قولك : وأوجب الصلاة عليه وعلى آله في الصلاة ، فالذي عليه أكثر العلماء ان الصلاة عليه ﷺ وعلى آله في **الصلاة** لا تجب ، وأوجبها بعض العلماء

مستدلاً بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ وليس في الآية دليل على أن الصلاة عليه فرض لا تصح الصلاة الا بها . وأما الصلاة على آله فلم نعلم أحداً من العلماء أوجبها وقال ان من ترك الصلاة على الآل بطلت صلاته ، بل هذا خلاف ما عليه أهل العلم أو أكثرهم .

وأما قولك ولا يحسن الاعتراض من أحد على أحد في مذهبه وكل مجتهد مصيب على الأصح من الأقوال .. فهذا في الفروع لا في الاصول ، فإن الخوارج والجهمية والقدرية وغيرهم من فرق الضلالة يدّعون أنهم مصيبون، بل المشركون وغيرهم من اليهود والنصارى يدّعون ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾ .

وأما ما ذكرت من كثرة جنودكم وأموالكم فلسنا نقاتل الناس بكثرة ولا قوة، وإنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ووعد من قام به النصر على من عاداه ، فقال تعالى : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ، الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ وصلى الله على محمد وآله وصحبه .

رسالة عبد العزيز الى ياقوت

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن سعود إلى الأخ **ياقوت** سلمه الله من الآفات ، واستعمله بالباقيات الصالحات .

وبعد ، الخط وصل وصلك الله إلى رضوانه وسرّ الخاطر ما ذكرت من حالك والله المحمود على ذلك ، فأنت اعزم وتوكل على الله ، فإن النفوس لها إقبال وإدبار فأنت خذ بإقبالها واستعن بالله ، قال جل جلاله : ﴿ ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ﴾ ، ويذكر لنا أن **أحمد بن الشريف عباس** ، إمام صنعاء ، متوجه لهذا الدين وعارفه ومحبه ، وكذلك يذكر ناساً من طلبة العلم عرفوا التوحيد وشهدوا به وأنكروا الشرك بالله ، فالمأمول فيك تلطف للناس ، وتدعوهم إلى الله ، وتذكر قوله سبحانه : ﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾ ، وفي الحديث عن الصادق الصدوق ﷺ حين أعطى علياً رضي الله عنه الراية يوم فتح خيبر قال : « انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم » ، وأساس الإسلام ورأسه توحيد الله بالعبادة ، والعبادة فعل العبد وإلا أفعاله تعالى كل معترف له بها : الخلق والرزق والإحياء والإماتة والتدبير ، حتى ان الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يخلصون لله الدين في حال الشدائد ، مثل ما قال

سبحانه وتعالى : ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجّاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾، والشرك اليوم تغلب على غالب الناس وصار الدعوة والذبح والنـــذر لغير الله ، وغير ذلك من العبادات والتوكل والخوف والرجاء صرف لغير الله ، فلما أنكر عليهم الشيخ عفا الله عنه الشرك بدّعوه وخرّجوه ورموه بالعظائم ، وهو كما قال محمد بن إسماعيل الصنعاني :

وليس له ذنب سوى أنه أتى بتحكيم قول الله في الحلّ والعقد

وفي البيت الآخر :

وما كل قول بالقبول مقابل وما كل قول واجب الطرد والردّ
سوى ما أتى عن ربنا ورسوله فذلك قول جل يا ذا عن الردّ
وأما أقاويل الرجال فإنهـا تدور على حسب الأدلة في النقد

فيكون عندكم معلوماً أن جميع الفرائض وجميع المحرمات مـا اختلفنا نحن والناس في شيء من ذلك ! الاختلاف وقع بيننا وبين الناس عند حق الله تعالى : كون العبادة له وحده لا شريك له ، وحق الرسول ﷺ التصديق والطاعة في جميع ما يأمر به وجميع ما ينهى عنه ، ويكفيك مـا ذكر الله في آخر سورة الكهف : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ ، وكذلك الآية التي كتب بها ﷺ لعظيم الروم هرقل حيث قال : « أما بعد ، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الاريسيين »،و﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴾ إلى قوله : ﴿ فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون ﴾ ، ولكن مثل ما قال الجني [1] فيه ﷺ :

وإن قال في يوم مقـالة غائب فتصديقها في ضحوة اليوم أو غد

---

(١) هو جني سمع ينشد أبيـاتاً في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقصته مشهورة في (السير) .

قال ﷺ : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا : اليهود والنصارى يا رسول الله ؟ قال : فمن ؟ وفي الحديث الثاني أخبر ﷺ « إن اليهود افترقت على احدى وسبعين فرقة والنصارى افترقت على اثنتين وسبعين فرقة وتفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة » قيل: يا رسول الله من الواحدة ؟ قال: «من كان على مثل ما أنا عليه الآن وأصحابي » وفي الحديث الآخر قال ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تعبد فئام **من أمتي الأوثان وحتي يلحق حي من أمتي بالمشركين** » والعادة ملاكة تقلب الشين زيناً ولم تعاد الرسل بشيء قط أعظم من العبادة قال الله تعالى عن المشركين: ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ والآية الأخرى ﴿ وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فهم على آثارهم يهرعون ﴾ وأنا أعزم عليك وألزم عليك **أن تتلطف لعلماء أهل صنعاء وتقرأ عليهم هذا الكتاب.**

رسالة عبدالعزيز الى السيد علي

بسم الله الرحمن الرحيم

التحية والإكرام يهدى إلى سيد الأنام محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام ثم ينتهي إلى جناب ... اكرمه الله بما أكرم به عباده الصالحين .

أما بعد ، فألفى علينا سعيد بن ثنيان وحكى لنا عنك من حسن السمت والسيرة ما سر الخاطر ونسأل الله العظيم أن يجعلنا وإياك من أئمة المتقين ويذكر انك حريص على معرفة حالنا وما نحن عليه، فنخبرك بصورة الحال: أنا والناس فيما مضى على دين واحد ندعو الله وندعو غيره وننذر له وننذر لغيره ونذبح له ونذبح لغيره ونتوكل عليه ونتوكل على غيره ونخاف منـــه ونخاف غيره ونقر بالشرائع من صلاة وزكاة وصوم وحج والذي يعمل بهذا عندنا القليل مع الاقرار ونقر بالمحرمات من أنواع الربا والزنا وشرب الخمر وما يشبه هـــذا من أنواع المحرمات ولا ينكرها خاص على عام .

وبيّن الله لنا التوحيد في آخر هذا الزمان على يدي ابن عبد الوهاب وقمنا معه وقام علينا الناس بالعدوان والانكار لما خالف دين الآباء والأجداد وقال الناس مثل ما قال الذين من قبلهم (إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) وقالوا : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ وقام على الناس بالأدلة من الكتاب والسنة واجماع صالح سلف الأمة الذين قال فيهم صلاة الله وسلامه عليه «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ

وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة» وفي الحديث الثاني قال ﷺ : «تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك» وفي الحديث الثالث : «كل ما ليس عليه أمرنا فهو رد» والأحاديث في هـذا النوع ما يمكن حصرها ، ونذكر هذا على سبيل التنبيه .

فنقول الحلال ما حلل ﷺ والحرام ما حرم وقال الله جل جلاله : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ فأول ما دعا اليه الرسول ﷺ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ومعنى لا إله إلا الله نفي الالهية عمـا سوى الحق جل جلاله وإثباتها له وحده لا شريك له والالهية فعل العبد ، وأما أفعاله جل جلاله فلا وقع فيها نزاع عند الكافر ولا عند المسلم ، قال الله لنبيـه : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴾ وبالاجماع ان السؤال للكفار ، وفي الآية الأخرى ﴿ ويعبدون من دون الله مـا لا ينفعهم ولا يضرهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ ، ويكفيك أول الزمر تنزيل بين فيها دين الإسلام من دين الكفار في آيتين، قال: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص﴾هذا دين الإسلام الذي دعت اليه الرسل جميعاً من أولهم نوح إلى آخرهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم ، وقال تعالى : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾ فصرحت الآية أن غاية الكفار ومطلبهم القربة والشفاعة بهذا الدعاء ، فالمأمول فيك ما تغتر بأكثر الناس فإن نبيك ﷺ أخبر في الأحاديث الصحاح أن دينـه سيتغير وتفعل أُمته كما فعل بنو اسرائيل وانها ستفترق كما افترق من قبلها من الأمم ، قال صلاة الله وسلامه عليه : «لتأخذن أُمتي مأخذ الأمم قبلها شبراً بشبر أو ذراعاً بذراع، لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» ، قالوا : يا رسول الله

اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن ؟ » ، وقال ﷺ : « لتأخذ أمتي بما أخذت الأمم قبلها شبراً شبراً وذراعاً بذراع،حتى لو أن منهم من أتى أمه علانية لكان من أمتي من يأتي أمه علانية » ، وقال : « افترقت اليهود عن واحدة وسبعين فرقة ، والنصارى عن اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتي عن ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة » ، قالوا : ومن هي يا رسول الله ؟ قال : « من كان على مثل ما أنا عليه اليوم أنا وأصحابي » ، والأحاديث في هذا ما تحصى ولكن الغرض التنبيه .

وأما الآيات فقال جلّ جلاله : ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلّوك عن سبيل الله ﴾، وقال: ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾، وقال : ﴿ وقليل ما هم ، وقليل من عبادي الشكور ﴾، وفي الحديث : ان بعث الجنة من الألف واحد . فالمأمول فيك تجمع علماء صنعاء وتؤمنهم وتعرض عليهم الكتاب وتسألهم بالذي أنزل الفرقان على محمد عن جميع ما ذكرنا في الورقة ، وأرجو أن الحق يبيّن لك من الباطل . والوجه الثاني : إن جاز عندك توجه الينا اثنين او ثلاثة من طلبة العلم الذين عليهم الاعتماد عندكم فلا نعافها منك فلك عندي وقارهم وإكرامهم وتوصيلهم اليك إن شاء الله.ويا (علي)، يا ولدي، اذكرك الله والذي بعد الموت من الخير والشر ، فإن الدنيا زائلة وزائل ما فيها من الخير والشر ، والآخرة باقية وباقٍ ما فيها من الخير والشر، ودين جدك صلاة الله وسلامه عليه فيه خير الدنيا والآخرة ، قال جل جلاله في أهل طاعته : ﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ﴾ .

وأنا أصف لك شيئاً من الحال ، فان مبتدأ الأمر رجل « حادقينه » الناس و «معادينه»، واليوم دولته ما تقصر عن الف مبندق[1] وعشرة آلاف فارس،

وكل من تبين على هذا الحق بعداوة كسره الله وأزال دولته وأرى فيه العجائب ، ويكون عندك معلوماً أن الشرائع والمحرمات ما وقع بيننا وبين

---

(١) أي حامل السلاح .

الناس فيها اختلاف ، الذي عندنا زين عندهم زين والذي عندنا شين عندهم شين ، إلا أنـّا فضلناهم بفعل الزين وغصب الرعـايا عليه وترك الشين وتقويم الحدود والتأديب على من فعله ، وغالب عدواننا ما يفعلون الزين الذي مـــا ينكر ولا ينكرون الشين الذي ينكر ، فالأصل الذي اختلفنا فيه التوحيـد والشرك ، فنقول مثل ما قال جل جلاله : ﴿ وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ له دعوة الحق ﴾ الآية ، وفي الآية الاخرى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرّة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنـــده إلا لمن أذن له ﴾ ، فصرحت الآية مثل ما صرحت آية الكرسي أن الشفاعة ما تكون إلا من بعـد الإذن . في الحديث ، قيل : يا رسول الله مَن أسعد النـاس بشفاعتك ؟ قال : من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص ، وقال جل جلاله : ﴿ يا أيها النـاس ضُرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ فلا تغتر بالناس ، قال جل جلاله : ﴿ يا أيهـا الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله ﴾ فهذه حال العلماء والعباد فما ظنك في غيرهم ؟ والمأمول فيك الجواب ﴿ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ ، وصلى الله على محمـــد وآله وصحبه وسلم .

رسالة عبد العزيز
الى العلماء في المشرق والمغرب

بسم الله الرحمن الرحمن

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وصلى الله وسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

من عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى من يراه من العلماء والقضاة في الحرمين والشام ومصر والعراق وسائر علماء المشرق والمغرب [1] .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد ، فإن الله عز وجل شأنه ، وتعالى سلطانه ، لم يخلق الخلق عبثاً ، ولا تركهم سدى ، وإنما خلقهم لعبادته ، فأمرهم بطاعته ، وحذرهم مخالفته ، وأخبرهم تعالى أن الجزاء واقع لا محالة ، إما في ناره بعدله ، أو في جنته بفضله ورحمته ، قد أخبر عز وجل بذلك في كل كتاب أنزله ، وعلى لسان كل رسول أرسله ، كما نطقت بذلك الآيات القرآنية ، وأخبرتنا به الأحاديث النبوية ، قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ وقال : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ﴾ وقال سبحانه : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ فالعبادة

---

(١) أخذنا هذه الرسالة عن كتاب « الدرر السنية والتحف الوهابية » جمع ابن سحمان .

اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال مختصة بجلالته وعظمته فهي الغاية المحبوبة له تعالى شأنه والمرضية له ، وبها أرسل جميع الرسل ، كما قال نوح لقومه (اعبدوا الله مـــا لكم من إله غيره) وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم من الرسل ، كل قال لقومه (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) وذلك أن الإله يطلق على كل معبود بحق أو بباطل والإله الحق هو : (الله) ، قال تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ وقال تعالى : ﴿ ومـــا أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي اليه أنه لا إله الا أنا فاعبدون ﴾ .

معنى كلمة التوحيد :

فنحن لما علمنا وفهمنا من كلام الله وسنة رسوله ، وكلام الأئمة الأعلام رضي الله عنهم كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم من أئمة السلف أن (لا إله إلا الله) معناها يخصها ، وهي ترك كل معبود مع الله ، وإخلاص الإلهية له تعـــالى وحده ، وأن العبادة بأفعالهم مما أمرهم به في كتابه وعلى لسان رسوله إذا جعلت لغيره تعـــالى صار ذلك الغير إلهاً مع الله وإن لم يعتقد الفاعل ذلك . فالمشرك مشرك شاء أم أبى ، وليست خاصة بالإيمان بأفعاله تعـــالى وتقدس ، كخلقه السموات والأرض ، والليل والنهار ، ورزق العباد وتدبير أمورهم ، لأن هـــذا يسمى (توحيد الربوبية) الذي أقرّ به الكفار الأولون في سورة يونس والزمر والزخرف وغيرهـــا ، وأن معناها لغة : الذل والخضوع ، وشرعاً : ما أمر به من غير اطراد عرفي ، ولا اقتضاء عقلي ، من أفعال العبـــاد وأقوالهم المختصة بجلال الله وعظمته ، كدعائه تعالى بما لا يقدر عليه إلا هو من جلب نفع او دفع ضر ، او رجائه فيه والتوكل عليه ، وذبح النسك والنذر لجلب خير او دفع ضر لا يقدر عليه إلا الله ، والإنابة والخضوع ، كل ذلك مختص بجلال الله كالسجود والتسبيح والتهليل ، فكل ذلك مما قدمناه هو معنى قوله (لا إله إلا الله) ، ولا يغني أحد التوحيدين عن الآخر ، بل صحة أحدهما مرتبطة بوجود الآخر ، فلما فهمنا ذلك وعلمنا به قام علينا أهل الأهواء فخرّجونا وبدّعونا ، وجعلوا اليهود

والنصارى أخفّ شراً منا ومن أتباعنا ، ولم ننازع العدو في سائر المعـــاصي بأنواعها ، ولا المسائل الاجتهادية ، فلم يجرِ الاختلاف بيننا وبينهم في ذلك ، بل في العبادة بأنواعها والشرك بأنواعه .

الشفاعة والوساطة وحق الله وحق رسوله وأوليائه :

فنحن نقول : ليس للخلق من دون الله من ولي ولا نصير . وسائر الشفعاء محمد ﷺ سيدهم وأفضلهم فمن دونه ، لا يشفعون لأحد إلا بإذنه ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه. أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء. ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾ . وإذا كان كذلك فحقيقة الشفاعة كلها لله ، فلا تسأل في هذه الدار إلا منه سبحانه وتعالى ، وأن يشفع فيه[1] نبيه ﷺ ، فجميع الأنبياء والأولياء لا يجعلون وسائل ولا وسائط بين الله وبين الخلق في جلب الخير او دفع الشر ، ولا يجعل لهم من حقه شيء ، لأن حقه تعالى وتقدس غير جنس حقهم ، فإن حقه عبادته بأنواعها بما شرع في كتابه ، وعلى لسان رسوله . وحق أنبيائه عليهم السلام الإيمان بهم وبما جاؤوا به ، وموالاتهم وتوقيرهم ، واتباع النور الذي أنزل معهم ، ومحبتهم على النفس والمال والبنين والناس أجمعين ، وعلامة الصدق في ذلك اتباع هديهم والإيمان بما جاؤوا به من عند ربهم . قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونِ يحببكم الله ﴾ والإيمان بمعجزاتهم ، وأنهم بلّغوا رسالات ربهم ، وأدّوا الأمـــانة ، ونصحوا الأمة ، وأن محمداً ﷺ خاتمهم وأفضلهم ، وإثبات شفاعتهم التي أثبتها الله في كتابه ، وهي من بعد إذنه لمن رضي عنه من أهل التوحيد . وأما المقام المحمود الذي ذكره الله في كتابه وعظم شأنه فهو لنبينا محمد ﷺ .

وكذلك حق أوليائه محبتهم والترضي عنهم والإيمان بكراماتهم ، لا دعاؤهم ليجلبوا لمن دعاهم خيراً لا يقدر على جلبه إلا الله تعالى ، أو ليدفعوا عنهم سوءاً لا يقدر على دفعه إلا هو عز وجل، لأن ذلك عبادة مختصة بجلاله تعالى وتقدس.

---

(١) أي في السائل .

هذا إذا تحققت الولاية أو رجيت لشخص معين كظهور اتباع سنة وعمل بتقوى في جميع أحواله ، وإلا فقد صار الولي في هذا الزمان من أطال سبحته ، ووسع كمه ، وأسبل إزاره ، ومد يده للتقبيل ، ولبس شكلاً مخصوصاً ، وجمع الطبول والبيارق ، وأكل أموال عباد الله ظلماً وادعاء ، ورغب عن سنة المصطفى وأحكام شرعه .

خصوم الوهابية بدأوهم بالقتال :

فنحن إنما ندعو إلى العمل بالقرآن العظيم ، والذكر الحكيم ، الذي فيه الكفاية لمن اعتبر وتدبّر ، وبعين بصيرته نظر وفكّر ، فإنه حجة الله وعهده ، ووعده ووعيده ، وأمانه وقدره ، ومن اتبعه عاملاً بما فيه جدّ جدُّه ، وعلا مجده ، وأنار رشده ، وأبان سعده . والتوحيد ليس هو محل الاجتهاد ، فلا تقليد فيه ولا عناد ، ولا نكفر إلا من أنكر أمرنا هذا ونهينا ، فلم يحكم بما أنزل الله في التوحيد ، بل يحكم بضده الذي هو الشرك الأكبر الذي لا يغفر ، كما سنذكر أنواعه ، فجعله ديناً وسماه الوسيلة عناداً وبغياً ، ووالى أهله وظاهرهم علينا ، ولم يقوم أركان الدين ممتنعاً أن دعوناه ، وأمروهم أن يبدأوا بقتالنا ليرجعونا عن دين الله الذي وصفنا إلى ما هم فيه وكانوا عليه من الشرك بالله ، والعمل بسائر ما لا يرضي رب العباد﴿ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره المشركون﴾ وما حجتهم علينا الا أن المدعو يكون شفيعاً ووسيلة . ونحن نقول : هؤلاء الداعون الهاتفون بذكره ، المعتقدون في الاحياء الغائبين المدعوين والأموات يطلبون كشف شدتهم ، وتفريج كربتهم ، وإبراء مريضهم ، ومعافاة سقيمهم ، وتكثير رزقهم ، وإيجاده من العدم ، ونصرهم على عدوهم براً وبحراً ، لم يكفهم الاقتصار على مسألة الشفاعة والوسيلة ، وهما من أعظم المخاصمة الجارية علينا ممن قاتلنا وبدعنا وجعل اليهود والنصارى أخف شراً منا ومن أتباعنا . . .

وحقيقة قولنا : إن الشفاعة ــ وإن كانت حقاً في الآخرة ــ فلها أنواع مذكورة في محلها ، ووجب على كل مسلم الإيمان بشفاعته ﷺ ، بل وغيره من الشفعاء ، فهي ثابتة بالوصف لا بالشخص ، ما عدا الشفاعة العظمى فإنها لأهل الموقف عامة ،

وليس منها مــا يقصدون فالوصف من مات لا يشرك بالله شيئاً كما في البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « لكل نبي دعوة مستجابة ، وإني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي ، وهي نائلة منكم ان شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً »[1] — وحديث أنس بن مالك الذي في الشفاعة بطوله وحديث الذراع الذي رواه أبو هريرة المتفق عليه — وإذا كانت بالوصف فرجاؤها من الله ودعاؤه أن يشفع فيه نبيه هو المطلوب .

ارادة الله في التكوين وارادته في التكليف ، والشفاعة لله وباذنه ومنه تطلب :

فالمتعين على كل مسلم صرف همته وعزائم أمره إلى ربه تبارك وتعالى بالإقبال اليه والاتكال عليه والقيام بحق العبودية لله عز وجل ، فإذا مات موحداً تشفع الله فيه نبيه ، بخلاف من أهمل ذلك وتركه ، وارتكب ضده من الإقبال إلى غير الله بالتوكل عليه ورجائه فيما لا يمكن وجوده إلا من عند الله ، والإلتجاء إلى ذلك الغير ، مقبلاً على شفاعته ، متوكلاً عليها طالباً لها من النبي ﷺ أو غيره ، راغباً اليه فيها ، تاركاً ما هو المطلوب المتعين عليه ، المخلوق لأجله ، فإن هــذا بعينه فعل المشركين واعتقادهم ، ولا نشأت فتنة في الوجود إلا بهذا الاعتقاد ، فصار شقياً بالإرادة الكونية والعاقبة الغوية ، لأن الإرادة الدينية أصل في إيجـــاد المخلوقات ،والإرادة الكونية أصل . . .[2] فمن كتبت عليه الشقاوة فلا يسير إلا لها ولا يعمل إلا بها . قال تعالى : ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾ فهذه هي الإرادة الكونية ، وهي لا تعارض الإرادة الدينية التي هي

---

(١) الحديث متفق عليه وجملة (فهي نائلة) الخ .. زيادة انفرد بها مسلم .

(٢) في هامش الأصل ما نصه : أقول : في هذا الكلام شيء ساقط وخلل ، والذي يوضح المراد في هذين الأصلين قول شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله حيث قال : « الارادة في كتاب الله نوعان إرادة تتعلق بالأمر وإرادة تتعلق بالخلق فالارادة المتعلقة بالأمر أن يريد من العبد فعل ما أمره وأما إرادة الخلق فأن يريد ما يفعله هو. فإرادة الأمر هي المتضمنة للمحبة والرضا وهي الارادة الدينية . والارادة المتعلقة بالخلق هي المشيئة وهي الارادة الكونية القدرية . ذكره شيخ الاسلام في المنهاج .

الأصل في إيجاد المخلوقات [1] مع بقائه مختاراً مدركاً للأشياء . ومن كان هذا وصفه فلا ينالها ، لأن الله تعالى ليس له شريك في الملك كما أنه ليس له شريك في استحقاق العبادة ، بل هو المختص بها ، ولا تليق إلا بجلاله وعظمته ، فلا إله إلا هو وحده لا شريك له. ولهذا حسم جل وعلا مادة الشفاعة عن كل أحد بغير إذن الإله وحده ،فلا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، لا ملك ولا نبي ولا غيرهما ، لأن من شفع عند غيره بغير اذنه فهو شريك له في حصول ذلك المطلوب لتأثيره فيه بشفاعته ، ولا سيما إن كانت من غير اذنه . فجعله يفعل ما طلب منه ، والله تعالى لا شريك له بوجه من الوجوه ، وكل من أعان غيره على أمر فقد شفعه فيه ، والله تعالى وتر لا يشفعه أحد بوجه من الوجوه ولهذا قال عز من قائل : ﴿ قل لله الشفاعة جميعاً ﴾ وقال : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ وطلبها من غير الله في هذه الدار زعم بعدم تعليقها بالإذن من الله والرضا عن المشفوع له . وقال تعالى: ﴿ ما لكم من دونه من وليٍ ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾، وقال تعالى : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه وليٌ ولا شفيع لعلهم يتقون ﴾ ، والعبرة في القرآن بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، مع ملاحظته وعدم الاقتصار عليه .

الدعاء مشروع للموتى وللنبي – لا دعاؤهم :

وأما دعاء الله عز وجل للغير فقد مضت السنة أن الحي يطلب منه سائر ما يقدر عليه ،ودعوة المسلمين بعضهم لبعض مستحبة قد وردت بها الآثار الصحيحة : في مسلم وغيره ، فإن كانت للميت فهي آكد . وكان النبي ﷺ يقف على القبر

---

(١) كرر قوله انالارادة الدينيةهيالأصل في وجود المخلوقات والمتبادر ان الارادة الكونية هي في الايجاد والتكوين . وإنما المراد بالارادة الدينية التكليف . ولعله يقصد العلة الغائية لخلق المكلفين أخذاً من قوله تعالى (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) – كتبه مصححه .

بعد الدفن فيقول : « إسألوا له التثبيت فإنه الآن ُيسأل » فالميت أحوج بعـــد الدفن إلى الدعاء فإذا قام المسلمون على جنازته دعوا له لا به ، وشفعوا له بالصلاة عليه لا استشفعوا به ، فبدّل أهل الشرك والبدع قولاً غير الذي قيل لهم، بدلوا الدعاء له بدعائه نائياً عنهم كان او قريباً ، والاستغاثة به والهتف باسمه عنـــد حلول الشدة . وتركوا مَن بيـــده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه . وقصدوها بالزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ إحساناً إلى الميت وتذكيراً بالآخرة فبدلوا ذلك بسؤال الميت نفسه وتخصيص تلك البقعـــة بالدعاء الذي هو مخ العبادة ، وحضور القلب وخشوعه عندها أعظم منه في الصلاة والمساجد ووقت الإحسان .

وإذا شرع الدعــاء لسائر المؤمنين فالنبي ﷺ أحق الناس بأن يصلى ويسلم عليه ويدعى له بالوسيلة كما في الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قــال : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ فإنه من صلى عليّ مرة واحدة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا ينبغي أن تكون إلا لعبد من عبـــاد الله وأرجو أن أكون ذلك العبد ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلـّت له شفاعتي يوم القيامة » .

واستشفاع العبد في الدنيا إنمــا هو فعل السبب لحصول شفاعته له يوم القيامة كما وعد فيما جاء به قولاً وعملاً واعتقاداً [1] وإنمـــا سئلت له الوسيلة مع تحققها تنويهاً بقدره ، ورفعاً لذكره ، ويعود ثواب ذلك الينا . فهذا هو الدعاء المأثور ، وهو فـــارق بين الدعاء الذي أحبه والذي نهى عنه ، ولم يذكر أحد من الأئمة الأربعة ولا من غيرهم من أئمة السلف فيما نعلمه أن النبي ﷺ يسأل بعـد الموت الاستغفار ولا غيره .

قـــال الإمام مالك رحمه الله فيما ذكره اسماعيل بن إسحق في المبسوط عنه

---

(١) المفهوم من العبارة ان سبب حصول الشفاعة في الآخرة هو اتباع النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من الأقوال والأفعال والعقائد لا طلبها باللسان منه فإن هذه بدعة غير مشروعة .

والقاضي عياض في الشفاء والمشارق وغيرهما من أصحاب مالك عنه: لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ ويدعو له ولكن يسلم ويمضي . وقال أيضاً في المبسوط عن مالك : لا بأس لمن قدم من السفر أو خرج اليه أن يقف عند قبر النبي ﷺ ويصلي ويسلم عليه ويدعو له ولأبي بكر وعمر ، فقيل له: إن ناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه وهم يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر يأتون عند القبر فيسلمون عليه ويدعون ساعة ، فقال : لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه في بلدنا لا من الصحابة ولا غيرهم ولا يصلح آخر هـذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك يكررون المجيء إلى القبر ، بل كانوا يكرهونه إلا لمن جاء من سفر أو أراده [١] . انتهى .

ما يفعل عند قبره ﷺ والمأثور منه :

النهي عن اتخاذ قبره ﷺ عيداً ، وحديث شد الرحال :

وتلاوة الآية في قوله : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم ﴾ الآية ... والاستغفار بحضرة القبر وإن قال به جماعة من متأخري الفقهاء كلهم لم يقولوا يدعى صاحب القبر يدعى الله ، بل المحفوظ عنهم أن الميت والغـائب لا يسأل منه شيء لا استغفار ولا غيره . واستغفارهم الله لا الرسول ﷺ ، وحياته في قبره برزخية ولا تقتضي دعاءه ، وأصحابه أعلم بهـا منا ولم يأتِ أحدهم إلى القبر فيسأله ويستغيث به ، وقد ثبت النهي عنه عليه الصلاة والسلام أن يتخذ قبره عيداً ، قال أبو يعلى الموصلي في مسنده ، عن علي بن الحسين رضي الله عنهما ، قـال : أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جـدي رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ ، قال : « لا تتخذوا قبري عيداً ولا بيوتكم قبوراً ، وإن تسليمكم يبلغني أينما كنتم » ، رواه أبو عبد الله محمـد بن عبد الواحد المقدسي في مختاراته ، وروى سعيد بن منصور في السنن ، عن أبي سعيد مولى المهدي ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تتخذوا قبري عيـداً ولا بيوتكم قبوراً وصلـّوا عليّ حيثما كنتم

---

(١) روي هذا عن ابن عمر ولم يكن يفعل كثيراً ، كتبه مصححه .

فإن صلاتكم تبلغني » روى هذا الحيث أبو داود عن أبي هريرة ورواه سعيد بن منصور في سننه من حديث أبي سعيد مولى المهدي ورواه أيضاً من حديث الحسن ابن الحسن بن علي رضي الله عنه ، وهذان الحديثان وان كانا مرسلين فهما يقويهما حديث أبي هريرة المرفوع وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لا تشدوا الرحال إلى مسجد من المساجد إلا لثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدي هـذا » وهو حديث ثابت باتفاق أهل العلم يتلقى بالقبول عنهم [1] وهو ان كان معنـــاه لا تشدوا الرحال إلى مسجد من المساجد إلا الى الثلاثة التي قد ذكرت فالسفر الى هذه المساجد الثلاثة إنما هو للصلاة فيها والدعاء والذكر، وقراءة القرآن ، والاعتكاف الذي هو من الأعمال الصالحة .

ما يفعل عند قبره ﷺ والمأثور منه :

وما سوى هـذه المساجد لا يشرع السفر اليه بإتفاق أهل العلم حتى مسجد (قبا) يستحب قصده من المكان القريب كالمدينة، ولا يشرع شد الرحل اليه من بعيد ، ولذلك كان النبي ﷺ يأتي اليه كل سبت ماشياً وراكباً ، وكان ابن عمر يفعله كما في الصحيح. فإن كان قبا أسس على التقوى فمسجده ﷺ أعظم في تأسيسه على التقوى ، لذلك قال : «مسجدي هذا».. فكلا المسجدين أسس على التقوى ، ولكن اختص مسجده بأنه أكمل في هذا الوصف من غيره فكان يقوم في مسجده يوم الجمعـة ، ويأتي مسجد قبا يوم السبت ، وإذا كان السفر إلى مسجد غير الثلاثة ممتنعاً شرعاً مع أن قصده لأهل مصره يجب تارة [2] ويستحب اخرى ، وكان في قصد المساجد من الفضل ما لا يحصى، فالسفر الى مجرد القبور أولى بالمنع. ولا يغتر بكثرة العادات الفاسدة التي أحدثها الملوك وأشباههم والأحاديث التي رواها

---

(١) رواه الجماعة كلهم ولفظه المشهور « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى » وفي لفظ مسلم « لا تشدوا » بالجمع والخطاب .

(٢) كذا بالأصل ولعل في العبارة سقط .

الدارقطني في زيارة قبره عليه الصلاة والسلام كلهـــا مكذوبة موضوعة باتفاق غالب أهل المعرفة، منهم ابن الصلاح، وابن الجوزي ، وابن عبد البر، وأبو القاسم السهيلي ، وشيخه ابن العربي المالكي ، والشيخ تقي الدين وغيرهم ، ولم يجعلها في درجة الضعيف الا القليل ، وكذلك تفرد بها الدارقطني عن بقية أهل السنن، والأئمة كلهم يرون بخلافه . وأجلّ حديث روي في هذا الباب حديث أبي بكر البزاز ، ومحمد بن عساكر، حكاه أهل المعرفة بمصطلح الحديث كالقشيري والشيخ تقي الدين وغيرهما ، وإنما رخص ﷺ في زيارة القبور مطلقاً بعـد أن نهى عنها كما ثبت في الصحيح، لكن بلا شد رحل وسفر اليها للأحاديث الواردة في النهي عن ذلك كما تقدم .

زيارة قبره ﷺ والنهي عن اتخاذ القبور مساجد :

وإذا جـــاء السفر [١] المشروع لقصد مسجد النبي ﷺ للصلاة فيه دخلت زيارة القبر تبعاً لأنها غير مقصودة استقلالاً ، وحينئذ فالزيارة مشروعة مجمع على استحبابها بشرط عدم فعل محذور عند القبر كما تقـــدم عن مالك ، وما حكاه الغزالي رحمه الله ومن وافقه من متأخري الفقهاء من زيارة القبر [٢] فمرادهم السفر المجرد عن فعل العبادة من الصلاة والدعاء عنده ، بل يصلي ويسلم عليه ويسأل له الوسيلة ، ثم يسلم على أبي بكر ، ثم عمر ، ولا يقصد الصلاة عند القبر للعنه ﷺ المتخذين قبور أنبيائهم مساجد ، واللعنـة في كلام الله وكلام رسوله لا تجامع إلا الحرمة والإثم لا مجرد الكراهة ، لقوله : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبَـــد . اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، وقال ابن حجر رحمه الله في (الإمـــداد الموسوم بشرح الإرشاد) : ينوي الزائر المتقرب السفر إلى مسجده ﷺ وشد الرحل اليه لتكون زيارة القبر تابعة . انتهى .

واتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد هو الموقع لكثير من الأمم إمـا في

---

(١) استعمل جاء بمعنى كان او وجد إن لم يكن محرفاً عن جاز .

(٢) لعل أصله من السفر لأجل زيارة القبر .

الشرك الأكبر ، أو فيما دونه من الشرك ، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين كوُدّ وسُواع ويغوث وتماثيل طلاسم الكواكب ونحو ذلك يزعمون أنها تخاطبهم وتشفع لهم . والشرك بقبر النبي ﷺ أو الرجل المعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر [1] ، ولهذا تجد أهل الشرك كثيراً ما يتضرعون ويخشعون عندها ما لا يخشعون لله في الصلاة ، ويعبدون أصحابها بدعائهم ورجائهم ، والاستغاثة بهم ، وسؤال النصر على الأعداء ، وتكثير الرزق ، وإيجاده ، والعافية ، وقضاء الديون ، ويبذلون لهم النذور لجلب ما أملوه ، أو دفع ما خافوه ، مع اتخاذهم أعياداً ، والطواف بقبورهم ، وتقبيلها واستلامها وتعفير الخدود على تربتها ، وغير ذلك من أنواع العبادات ، والطلبات التي كان عليها عباد الأوثان يسألون أوثانهم ليشفعوا لهم عند مليكهم . فهؤلاء يسأل كل منهم حاجته وتفريج كربته ، ويهتفون عند الشدائد باسمه كما يهتف المضطر بالفرد الصمد ، ويعتقدون أن زيارته موجبة للغفران ، والنجاة من النيران ، وانها تجب ما قبلها من الآثام ، بل قد وجد هذا الاعتقاد في الأشجار والغيران ، ويهتفون باسمها واسم من ينسبون اليه من المعتقدين بما لا يقدر عليه إلا رب العالمين ، وأكثر ما يكون ذلك عند الشدائد .

عبادة القبور بالدعاء وغيره .

مراتب دعاء غير الله تقرباً اليه وكونها شركاً .

والله تعالى عز شأنه فسر هذا الدعاء في مواضع أخر بأنه عبادة محضة كقوله: ﴿ وقيل لهم أينما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ﴾ وقوله : ﴿ انكم تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ والأنبياء والملائكة والصالحون كل معبود من هؤلاء داخل في عموم قوله سبحانه : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ كما هو سبب النزول وقوله

---

(١) ان أصنام قوم نوح تماثيل لرجال صالحين اتخذوها ذكرى لهم ثم عظموها تعظيم العبادة كما رواه البخاري عن ابن عباس وكتبه مصححه .

عز شأنه : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ فدعاؤهم آلهتهم هو عبادتهم لها ، ولأنهم كانوا إذا جاءتهم الشدائد دعوا الله وحده وتركوها ،ومع هذا فهم يسألونها بعض حوائجهم بواسطة قربهم من الله ويطلبونها منهم بشفاعتهم لهم . فأمر الله العباد بإخلاص تلك العبادة له وحده ، فلا يدعونهم ولا يسألونهم الشفاعة ، فإن ذلك دين المشركين . قال الله تعالى فيهم : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ﴾ وقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ﴾ الآية .

وإنما ذكر الله تعالى ذلك عنهم لأنهم يدعون الملائكة والأنبياء ويصورون صوراً ليشفعوا لهم فيما دعوهم فيه وذلك بطرق مختلفة ، ففرقة قالت ليس لنا أهلية مباشرة دعاء الله ورجائه بلا واسطة تقربنا اليه وتشفع لنا لعظمته وفرقة قالت الأنبياء والملائكة ذوو وجاهة عند الله ومنزلة عنده ، فاتخذوا صورهم من أجل حبهم لهم ليقربوهم إلى الله زلفى وفرقة جعلتهم قبلة في دعائهم وعبادتهم وفرقة اعتقدت أن لكل صورة مصورة على صورة الملائكة والأنبياء وكيلا موكلا بأمر الله ، فمن أقبل على دعائه ورجائه وتبتل اليه قضى ذلك الوكيل ما طلب منه بأمر الله وإلا أصابته نكبة بأمره تعالى . فالمشرك انما يدعو غير الله بما لا يقدر عليه الا هو تعالى ويلتجىء اليه فيه ويرجوه منه بما يحصل له في زعمه من النفع ، وهو لا يكون إلا فيمن وجدت فيه خصلة من أربع : اما أن يكون مالكاً لما يريد منه داعيه ،فإن لم يكن مالكاً كان معيناً ،فإن لم يكن كان ظهيراً ، فإن لم يكن كان شفيعاً ،فنفى الله سبحانه وتعالى هذه المراتب الأربع عن غيره ، والشركة والمظاهرة والشفاعة التي لأجلها وقعت العداوة والمخاصمة بالآية المتقدمة وبقوله : ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ﴾ الآية وقوله : ﴿قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ﴾ وقوله : ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ وقوله : ﴿لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار﴾ وقوله : ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾ وقوله : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ وقوله :

﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ﴾ فأثبت سبحانه ما لا نصيب فيه لمشرك البتة وهي الشفاعة بإذنه لمن رضي عنه وهو سبحانه يعلم السر وأخفى، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ولهذا لما قالت الصحابة رضي الله عنهم : أربّنا قريب فنناجيه ،أم بعيد فنناديه ؟ أنزل الله سبحانه ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ﴾ .

حقيقة التوحيد :

الشرك يقتضي الايمان بالله وعبادته :

الموحد من اجتمع قلبه ولسانه على الله مخلصاً له تعالى الالوهية المقتضية لعبادته في محبته وخوفه ورجائه ودعائه والاستعانة به والتوكل عليه وحصر الدعاء بما لا يقدر على جلبه أو دفعه الا الله وحده والموالاة في ذلك والمعاداة فيه وأمثال هذا ناظراً الى حق الخالق والمخلوق من الأنبياء والأولياء مميزاً بين الحقين، وذلك واجب في علم القلب وشهادته وذكره ومعرفته ومحبته وموالاته وطاعته ، وهذا من تحقيق لا اله إلا الله لأن معنى الإله عند الأولين ما تألهه القلوب بالمحبة التي كحب الله والتعظيم والإجلال والخضوع فالرجاء بها هو مختص من عند الله [1] وذبح النسك له قال تعالى: ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، تالله ان كنا لفي ضلال مبين ، اذ نسويكم برب العالمين) وهم ما سووهم به لا في الصفات ولا في الذات ولا في الأفعال كما حكى الله عنهم في الآيات ، والشاهد الله بأنه لا إله إلا هو ، وقائلها نافياً قلبه ولسانه لالوهية كل ما سواه من الخلق، ومثبتاً به الالوهية لمستحقها وهو الله المعبود بالحق ، فيكون معرضاً عن ألوهية جميع المخلوقات لا يتألهم بما لا يقدر عليه إلا الله ، مقبلاً على عبادة رب الأرض والسموات ، وذلك يتضمن اجتماع القلب في عبادته ومعاملته

---

(١) كذا في الأصل ولعله سقط منه شيء بل ذلك حتم .

على الله ، ومفارقته في ذلك كل مـــا سواه ، فيكون مفرقاً في عمله وقصده وشهادته وارادته ومعرفته ومحبته بين الخالق والمخلوق بحيث يكون عالماً بالله ذاكراً له عارفاً به ، وأنه تعالى مباين لخلقه ، منفرد عنهم بعبادته [1] وأفعاله وصفاته . فيكون محباً فيه مستعيناً به لا بغيره، متوكلا عليه لا على غيره. وهذا المقام هو المعنى في ذلك ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وهي من خصائص الالوهية التي يشهد له بها تعالى عباده المؤمنون كما أن رحمته لعبيده ، وهدايته إياهم وخلقه السموات والأرض وما بينهما وما فيهما من خصائص الربوبية التي يشترك في معرفتها المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، حتى ابليس عليه اللعنة معترف بهـا في قوله تعالى : ﴿ رب انظرني إلى يوم يبعثون ﴾ وقوله : ﴿ بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ﴾ وأمثال هذا الخطاب الذي يعرف بأنه ربه وخالقه ومليكه وأن ملكوت كل شيء في يده تعالى وتقدس، وإنما كفر بعناده وتكبره عن الحق وطعنه فيه وزعمه أنه فيما ادعاه وقاله محق. وكذلك المشركون الأولون يعرفون ربوبيته تعالى وهم له بها يعترفون، قال تعالى: ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ، ، سيقولون لله ﴾ وقال : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ﴾ وقال تعالى : ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ فمن دعـا غيره تعالى لم يكن مخلصاً وقال تعالى : ﴿ من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ، سيقولون الله ﴾ وقال تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ؟ ، قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين، قال هل يسمعونكم اذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ؟، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ والآيات في هذا الباب كثيرة جداً .

وروى الإمام أحمـــد في مسنده والترمذي من حديث حصين بن المنذر أن رسول الله ﷺ قال : « يا حصين كم تعبـد ؟ قال : ستة في الأرض وواحداً في

---

(١) أي بكون العبادة تكون له وحده ، ويجوز أن تكون أصل الكلمة بذاته .

السماء ، قال : فمن ذا الذي تعبد لرغبتك ؟ قال : الذي في السماء . فقال له رسول الله ﷺ : « أسلم حتى أعلمك كلمات ينفعك الله بهن » ، فأسلم ، فقال : قل : « اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي » فمجرد معرفتهم بربوبيته تعالى واعترافهم بها لم تنفعهم ولم تدخلهم في الإسلام مع جعلهم مع الله آلهة أخرى يدعونها ويرجونها لتقربهم إلى الله زلفى وتشفع لهم عنده ، فبذلك كانوا مشركين في عبادته ومعاملته . ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم : لا شريك لك ، الا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك و « الدعاء مخ العبادة » كما ان الإله اسم المعبود . وروى النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الدعاء هو العبادة — وفي رواية — مخ العبادة » ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ﴾ الآية ، رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح ، ورواه أيضاً النسائي وابن ماجه والحاكم والإمام أحمد وابن أبي شيبة بهذا اللفظ ، وهذه الصيغة تفيد قصر الدعاء على العبادة فلا يخرج عنها لأنها من الصفات اللازمة التي ليس لها مفهوم يخالف الظاهر كقوله تعالى : ﴿ ومَن يدْعُ مع الله إلهاً آخر لا برهان له به ﴾ إذ كل مدعو فهو آلهة قصد الداعي أن مدعوه إلهاً أم لا ، اتخذه المشركون الأولون أم لا ، وليس ثمة دعاء إله آخر له برهان .

الشرك باتخاذ الأولياء والشفعاء :

وقد وصف الله سبحانه وتعالى دين المشركين بقوله : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ الآية ، فبيّن في هذه الآية انما قصدهم الشفاعة . وفي صحيح البخاري ومسلم ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : سألت رسول الله ﷺ : أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل مع الله نداً وهو خلقك » ، قال : قلت ثم أي ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يُطعَم معك » ، قال : قلت ثم أي ؟ قال : « أن تزاني حليلة جارك » فأنزل الله تصديقها : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ الآية ، فبيّن النبي ﷺ أن أعظم الذنب الشرك بالله الذي هو جعل الأنداد واتخاذهم من خلقه ليقرّبوهم اليه . وفي صحيح مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن

رسول الله ﷺ قال : « إن الله يرضى لكم ثلاثاً : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا ، وأن تناصحوا من ولاّه الله أمركم [١] » ، فدين الله وسط بين الغالي والجافي عنه .

الشرك الأصغر والأكبر :

والشرك : شركان ، أكبر : وله أنواع ومنه الذي تقدم بيانه آنفاً ، وشرك أصغر : كالرياء والسمعة ، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه » ، ومنه الحلف بغير الله لما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ : « من حلف بغير الله فقد أشرك » ، أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم وصححه ابن حبان . وقال ﷺ : « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفاً فليحلف بالله او ليصمت » أخرجه الشيخان ، وروى الإمام أحمد وأبو داود من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ أنه قال له رجل : ما شاء الله وشئت ، قال : « أجعلتني لله نداً ؟ قل ما شاء الله وحده » ، والشرك الأصغر لا يخرج عن الملة وتجب التوبة منه ومن كل ذنب .

التوسل الصحيح :

فلم يبقَ إلا التوسل بالأعمال الصالحة كتوسل المؤمنين بإيمانهم في قوله : ﴿ ربنا

---

(١) الذي في صحيح مسلم : « إن الله يرضى لكم ثلاثاً ، ويكره لكم ثلاثاً ، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، ويكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » . قال النووي في شرحه : إن الثلاثة المرضية ، إحداها : أن يعبدوه ، الثانية : أن لا يشركوا به شيئاً ، الثالثة: أن يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا ، اهـ. وأورد الحديث السيوطي في الجامع الصغير وذكر الثلاثة المرضية بلفظ المؤلف فيكون قوله صلى الله عليه وسلم : « أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً » هو الاولى ، والثالثة : وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » وعزاه الى الامام أحمد ومسلم ، فالمؤلف اختار لفظ الامام أحمد ، وفاته عزو الحديث اليه او سقط من الناسخ .

إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان... ﴾ وكتوسل أصحاب الصخرة المنطبقة عليهم وهم ثلاثة نفر توسلوا إلى الله بأعمالهم الصالحة — الحديث في صحيح البخاري — لأنه وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله، وكسؤال الله بأسمائه الحسنى، قال تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ وكالأدعية المأثورة في السنن : « اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنّان المنّان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام » ، وأمثال ذلك وهـــذا معنى قوله تعالى : ﴿ يا أيهـا الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة ﴾ لأنها القرب التي يتقرب بهـــا إلى الله وتقرب فاعلها منه ، وهي الأعمال الصالحة ، لما روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : «قال الله تعالى: من عادى ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه ، وما زال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بهـا ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه » الحديث ، ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا أهمّه أمر فزع إلى الصلاة فإنها أعظم القرب إلى الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ وليست الوسيلة بمخلوق يبتغى ليحصل واسطة بين الله وبين خلقه ، يشفع لهم ويتقربون اليه ، لأن هذا عين ما نهى الله عنه في الآيات ، وأنزل بقبحه الكتب ، وأرسل الرسل ، وهو ما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ إجعل لنـا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ لأن قصدهم أن يتقربوا به .

الاقسام على الله بالمخلوقين :

وأما الإقسام على الله بمخلوق ، فهو منهي عنه باتفاق العلماء ، وهل هو منهي عنه نهي تنزيه او تحريم ؟ على قولين (أصحهما) أنه كراهة تحريم، واختاره العز ابن عبد السلام في فتاويه ، قال بشر بن الوليد : سمعت أبا يوسف يقول : قـال أبو حنيفـــة رحمه الله : لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به ، وأكره أن تقول بمعاقد العز من عرشك ، او بحق خلقك، وهو قول لأبي يوسف ، قال أبو يوسف:

بمعاقد العز من عرشك هو الله فلا أكره هذا، وأكره بحق فلان، او بحق أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت والمشعر الحرام ، قال القدوري رحمه الله : المسألة بحق المخلوق لا تجوز لهذا فلا يقول : أسألك بفلان وملائكتك وأنبيائك ونحو ذلك، لأنه لا حق للمخلوق على الخالق . انتهى — وأما قوله : « وبحق السائلين عليك» ففيه عطية العوفي [1] وفيه ضعف ، ومع صحته فمعناه بأعمالهم [2] لأن حقه تعالى عليهم طاعته ، وحقهم عليه الثواب والإجابة ، وهو تعالى وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ، وإذا والى العبد ربه وحده أقام الله له ولياً من الشفعاء،وهي الموالاة بينه وبين عباده المؤمنين فصاروا أولياءه في الله بخلاف من اتخذ مخلوقاً من دون الله او معه ، فهذا نوع ، وذاك نوع آخر ، كما أن الشفاعة الشركية الباطلة نوع ، وشفاعة الحق الثابتة التي إنما تنال بالتوحيد نوع آخر .

حديث الأعمى بالتوسل بالنبي ﷺ :

ما ورد من التوسل بالنبي ﷺ لا يقاس عليه :

ومما استدل علينا الخصم ويزعم أن دعوة غير الله وسيلة قوله : « اللهم إني أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد ﷺ نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى ، اللهم شفعه فيّ » رواه الترمذي والحاكم وابن ماجه عن عمران بن حصين ، فجوابه من وجوه :

الأول : أنه في غير محل النزاع ، إذ هو ليس سؤال النبي ﷺ نفسه ، وإنما هو سؤال الله وحده أن يشفع فيه نبيه ، وعمل الخصم الإختراعي منكر، ورواية

---

(١) قوله ففيه الخ : أي في الحديث الذي وردت فيه هذه الجملة من تلقين النبي صلى الله عليه وسلم ، والمتبادر من معناها انها سؤال لله تعالى بوعده للسائلين أن يستجيب دعاءهم بمثل قوله : (ادعوني أستجب لكم) وليست توسلاً بأشخاص السائلين وهم جماهير البشر من جميع الملل والنحل .

(٢) أي ومع تقدير صحة الحديث فمعناه صحة السؤال بأعمالهم ، والظاهر المتبادر ما قلناه وهو قوله : وحقهم عليه الثواب والاجابة .

الحديث بحرمته ، فأين هـــذا من عمارة القبور ، وإلقاء الستور عليها وتسريجها وهذه كلها كبائر ، كما قال أهل العلم ، حتى ابن حجر الهيتمي وغيره : أن حدها [١] كل ما اتبع بلعنة او غضب او نار ، والأحاديث في تحريم عمارة القبور كثيرة في الصحيحين وغيرهما ، ويضاف إلى عمارتها دعـاء أصحابها ورجاؤهم ، والإلتجاء اليهم ، والنذر لهم ، وكتب الرقاع لها ، وخطابهم يا سيدي يا مولاي إفعل كذا وكذا ، وبهذا عبدت اللات والعزى ، والويل كل الويل عنـدهم لمن عاب وأنكر عليهم . ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور وما أمر ونهى ، وما كان عليه أصحابه ، وبين ما عليه الناس اليوم ، رأى أحدهما مضاداً للآخر مناقضاً له . وإذا كان سبب قول الله عز وجل ﴿ فلا تجعـلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ مجيء حبر من اليهود إلى رسول الله ﷺ والمسلمين ، وقوله : نعم القوم أنتم لولا أنكم تجعلون لله أنداداً فتقولون : ما شاء الله وشاء فلان ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنه قد قال حقاً » وأنزل الله : ﴿ فلا تجعـلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ . وممن أخرج الحديث جلال الدين السيوطي في الدر المنثور في تفسيره [٢] هؤلاء يحب أحدهم معتقده أكثر من حب الله ، وإن زعم أنـه لا يحبه كحبه ، فشواهد الحال تشهد عليه بذلك ، فإنه يعظم القبر أعظم من بيت الله ، ويحلف بالله كاذباً ، ولا يحلف بمعتقده . فلا جامع بين مـا استولوا به علينا وبين ما نهيناهم عنه .

الثاني : أن الحديث دليل لنـا أنه لا يدعى غير الله عز وجل ، فإن مسألة « اللهم إني أتوجه اليك » فسأل الله عز وجل أن يشفعه فيه واسطة (؟) « يا حبيبنا يا محمد إنا نتوسل بك إلى ربك فاشفع لنـا » (؟) فهذا خطاب لحاضر كقولنا في صلاتنا : السلام عليك أيهـا النبي ورحمة الله وبركاته ، وكاستحضار الإنسان محبه او مبغضه في قلبه فيخاطبه بما يهواه لسانه ، ومعناه : أتوجه اليك

---

(١) أي الكبيرة .

(٢) كذا . ولعل الأصل : في تفسيره لهذه الآية ، وهو قد ذكره بالمعنى .

بدعاء نبيك وشفاعته التي معناها في هذه الدار الدعاء، ولهذا قال في تمام الحديث : « اللهم شفعه فيّ » أي استجب دعاءه ، وهذا متفق على جوازه ، إذ الحي يطلب منه سائر ما يقدر عليه ، وأما الغائب والميت فلا يستغاث به ، ولا يطلب منه ما لا يقدر عليه ، قال تعالى : ﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾ إنما غايته طلب الدعاء من الحي ، وقبول شفاعته عند الله عز وجل ، وهو ﷺ انتقل من هذه الدار إلى دار القرار بنص الكتاب والسنة ، وإجماع الأمة ، ولهذا استسقى أصحابه بعمه العباس بن عبد المطلب ، وأن يدعو لهم في الاستسقاء عام القحط ، أخرجه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، ولم يأتوا إلى قبره ولا وقفوا عنده مع أنه ﷺ حياته في قبره برزخية . والدعاء عبادة مبناها على التوقيف والإتباع . ولو كان هذا من العبادات لسنة الرسول ، لكان أصحابه أعلم بذلك وأتبع ، ولهذا لم يفعله أحد من الصحابة ولا التابعين مع شدة احتياجهم ، وكثرة مدلهماتهم ، وهم أعلم بمعاني كتاب الله وسنة رسوله وأحرص اتباعاً لملته من غيرهم ، بل كانوا ينهون عنه وعن الوقوف عند القبر للدعاء عنده ، وهم من خير القرون التي قد نص عليها النبي ﷺ في قوله : « خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » ، قال عمران : لا أدري أذكر اثنتين أو ثلاثاً بعد قرنه ، أخرجه البخاري في صحيحه .

الثالث : أنهم زعموا أنه دليل للوسيلة إلى الله بغير محمد ﷺ وخرجوا عن محل النزاع إلى شيء آخر ، وهو التوسل بغير رسول الله ﷺ فلا دليل فيه أصلاً ، لأنهم صرحوا بأنه لا يقاس مع فارق . فلا يجوز لنا أن نقول : اللهم إنا نسألك ونتوجه اليك برسولك نوح ، يا رسول الله يا نوح ، ولا لنا أن نقول : إنا نسألك ونتوجه اليك بخليلك إبراهيم ، ولا بكليمك موسى ، ولا بروحك عيسى ، مع أن الجامع في نوح عليه السلام الرسالة ، وفي إبراهيم عليه السلام الخلة مع الرسالة ، وفي موسى عليه السلام الكلام مع الرسالة ، وفي عيسى روح الله وكلمته مع الرسالة ، فليس لنا أن نقول هذا لأنه لم يرد ولا حاجة لنا إلى فعل شيء لم يرد . والقياس إنما يباح عند من يقول به للحاجة في حكم لا يوجد فيه نص ، فإذا وجد النص

فلا يحل القياس عند من يقول به، ولا حاجة لنا إلى قول مخترع يجرّ إلى الشرك، خصوصاً مع ما ورد فيه، وأنه في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل، وأن هذه الأمة افترقت على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، فالناجية من اتبع ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه .

الرابع : إن الوسيلة ليست هي أن ينادي العبد غير الله، ويطلب حاجته التي لا يقدر على وجودها إلا الرب تبارك وتعالى ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، كذلك من سرق التابوت والمعلق عليه من بيض النعام أو غيره .

حديث نداء من انفلتت دابته يحبسها من سمعه :

ادعاء الاجماع على بدع القبوريين :

التوسل الى الله بشيء من مخلوقاته :

ومما استدلّ به علينا في جواز دعوة غير الله في المهات قوله ﷺ في الحديث الذي رواه ابن مسعود : « إذا انفلتت دابة أحدكم في أرض فلاة فليناد : يا عباد الله احبسوها » وفي رواية « إذا أعيت فليناد : يا عباد الله أعينوا » وهذا من جملة الجهل والضلال، وإخراج المعاني عن مقاصدها من وجوه :

الأول : أن هذه ليست بوسيلة أصلاً إذ معنى الوسيلة ما يتقرب به من الأعمال إلى الله عز وجل وهذا ليس بقربة .

الثاني : أن الحديثين غير صحيحين، أما الأول فرواه الطبراني في الكبير بسند منقطع عن عقبة رضي الله عنه، وحديث انفلات الدابة عزاه النووي رحمه الله لابن السني، وفي اسناده معروف بن حسان قال ابن عدي : هو منكر الحديث ولا دليل في هذين الحديثين مع ضعفهما ولا في الحديث المتقدم قبلهما على دعاء أصحاب القبور كعبد القادر الجيلاني من قطر شاسع، بل ولا من عند قبره، ولا ينادى غيره، لا الأنبياء، ولا الأولياء، إنما غايته أن الله عز وجل

جعل من عباده من لا يعلمهم إلا هو سبحانه[1] ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ وإذا نادى شخصاً باسمه معيناً فقد كذب على رسول الله ﷺ ونادى من لا يؤمر بندائه ، وليس معنى الحديث في كل حركة وسكون وقيام وقعود ، وإنما أبيح له ذلك إن أراد عوناً على حمل متاعه أو انفلتت دابته ، وهذا مع تقدير صحة الحديث .

الثالث : أن الله تعالى قال : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ بعد أن أكمله بفضله ورحمته ، فلا يحل أن تخترع فيه ما ليس منه ، ونقيس ما لا يقاس عليه .

الرابع : أن الحديث الصحيح إذا شذ عن قواعد الشرع لا يعمل به ، فإنهم قالوا : إن الحديث الصحيح الذي يعمل به إذا رواه العدل الضابط عن مثله من غير شذوذ ولا علة ، فكيف العمل بالحديث المتكلم فيه بما لا يدل عليه دلالة مطابقة ولا تضمن ولا التزام ؟ فهذا هو البهتان .

الخامس : أنهم زعموا موافقتهم بذكر من يعتقدونه ونسبوا الأفعال اليهم وكل أحد يذكر ما وقع له من الاستغاثة بفلان أو إنجاده ، وكشف شدته ، فإذا قال أحد سبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ، سبحانك هذا بهتان عظيم ، قاموا عليه وخرجوه وبدعوه وقالوا معلوم أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فإذا قال نعم ، ولكن ليس لأحد منهم ملكوت خردلة والله يقول : ﴿ ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ فإن منهم من يدعي العلم والإنصاف وهو واسع الصدر يقول : هذه الآية نزلت في عبادة الأصنام فإذا قيل له الأصنام ود وسواع ويغوث ويعوق أسماء رجال صالحين ، وهذه الخرق على التوابيت ودعوة الأموات هي فعل عباد الأصنام ، وقد قرر أهل العلم أن العام لا يقصر على السبب مثلاً أن نستحل أن لا

---

(١) كذا . والمتبادر ان النداء لمن عساه يوجد من الناس في الفلاة ولم يره وهو معتاد .

تؤدي الأمانة ، فإذا قيل أن أدوا الأمانة فإن الله يقول : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ فلا يقال هذه نزلت في مفتاح باب الكعبة فلا يحتج بها عامة . كذلك لا يقال هذه نزلت في عباد الأصنام ، ونفعل فعلهم ونقول : لسنا مشركين . وفي الأحاديث القدسية عن خير البرية ﷺ قال الله عز وجل : ﴿ أنا والجن والإنس في نبأ عظيم : أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر غيري ﴾ أخرجه الحاكم والترمذي والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي الدرداء رضي الله عنه — أجاب بأن الأمة مطبقة على هذا ، والامة لا تجتمع على ضلالة ، فيلزمه تضليل الامة وتسفيه الآباء ، جوابه أما إن الامة مطبقة على هذا فكذب عليها ، هذه كتب الحديث والتفسير ، فيها : لا يجوز أن يدعى غير الله عز وجل بما لا يقدر عليه إلا هو تعالى ولا يباح ، بل الآيات البينات والأحاديث ، وأقوال العلماء ، ترشد أن هذا شرك محقق والله تعالى يقول لرسوله ﷺ : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً ﴾ ويقول : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ﴾ والاحاديث ونصوص العلماء لا تخالف الكتاب .

السادس : أنه قد اختلفوا في التوسل اليه بشيء من مخلوقاته تعالى وتقدس هل هو مكروه أو حرام ، والأشهر : الحرمة ، كما قال به أبو محمد العزبن عبدالسلام في فتاويه أنه لا يجوز التوسل اليه بشيء من مخلوقاته لا الأنبياء ولا غيرهم ، وتوقف في حق نبينا محمد ﷺ هل فيه الحرمة أو الكراهة ، وتقدم قول أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله .

السابع : أنهم يشترون أولادهم ممن يعتقدونه ، ويجعلون زوايا لمن يعتقدونه ويجعلون فيها الطبول والبيارق والمزاهر ومطارق الحديد يضربون بها أنفسهم ، وفيها جماعة ينسبون إلى ذلك المعتقد كالعلوانية ، والقادرية ، والرفاعية ، وهي أسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، ويعبدون أنفسهم لهم كعبد فلان وفلان والله قد سمانا المسلمين قال الله تعالى : ﴿ هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ في الكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل ، وفي هذا القرآن ، فاستبدلوا الذي أدنى بالذي هو خير . وإذا مرض هـذا المشتري من المعتقد نذر أهله له النذور ، ولم يزل يستغيث بأن

يشفي سقمه ، ويكشف شدته، وهذا الأمر سرى في العلماء والجهال ، وفي مكة أكثر منهم ، قد غلبت عليهم العوائد ، وسلبت عقولهم عن تفهم المراد والمقاصد من الكتاب والسنة ، وكلام الأئمة ، لم يجدوا هــذا في كتاب فروع أحد منهم ولا أصوله ، صانهم الله عن هذه الوصمة ، فما استدلوا به مما تقدم لا يكون دليلاً على التوسل بالأموات المعلوم حالهم أنهم في أعلى الجنان، فكيف غيرهم ممن لا يعلم حاله في الآخرة ، ولا يدري أين مآله ، كيف يكون دليلاً على دعوة غير الله في المهمات، ويقال: الوسيلة،ويستدل لها بهذا ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ وتحريف للكلم عن مواضعه .

معادات القبوريين لمن ينكر بدعهم :

أحاديث الأمر بتسوية القبور :

فبهذا يتبين أن الشيطان اللعين نصب لأهل الشرك قبوراً يعظمونها ويعبدونها أوثاناً من دون الله، ثم يوحي إلى أوليائه أن من نهى عن عبادتها واتخاذها أعياداً وجعلها والحالة هذه أوثاناً فقد انتقصها وغمصها حقها،فيسعى الجاهلون المشركون في قتالهم وعقوبتهم ، وما ذنبهم عند هؤلاء المشركين الا انهم أمروهم بإخلاص التوحيد،ونهوهم عن الشرك بأنواعه وقالوا بتبطيله، فعند ذلك غضب المشركون واشمأزت قلوبهم فهم لا يؤمنون . وقالوا قــد انتقصوا أهل المقامات والرتب ، فاستحقوا الويل والتعب ، وفي زعمهم أنهم لا حرمة لهم لدنيا ولا قدر ، حتى سرى ذلك في نفوس الجهال والطغام ، وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين ، حباً للأولياء أتباع المرسلين،وبسبب ذلك عادونا ورمونا بالعظائم والجرائم ، ونسبوا كل قبيح الينا،ونفروا الناس عنا وعما ندعو اليه،ووالوا أهل الشرك وظاهروهم علينا ، وزعموا أنهم أولياء الله وأنصار دينه ورسوله وكتابه ، ويأبى الله ذلك فما كانوا أولياءه، إن أولياؤه الا المتقون له ، الموافقون له العارفون به، وبما جاء به ،والعاملون به والداعون اليه ، لا المتشبعون بما لم يعطوا اللابسون ثياب الزور الذين يصدون الناس عن دين نبيهم وهديه وسنته ويبغونها عوجاً وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً باتباعه واحترامه والعمل به ، وتعظيم الأنبياء والاوليــاء

واحترامهم متابعتهم لهم فيما يحبونه، وتجنب ما هم يكرهونه، وهم أعصى الناس لهم، وأبعدهم منهم ومن هديهم ومتابعتهم: كالنصارى مع المسيح، وكاليهود مع موسى، والرافضة مع علي. وأهل التوحيد أين كانوا أولى بهم وبمحبتهم ونصرة طريقتهم وسنتهم وهديهم ومنهاجهم، وأولى بالحق قولاً وعملاً من أهل الباطل. فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض. والمنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات بعضهم أولياء بعض، ومن أصغى إلى كلام الله بكلية قلبه، وتدبره وتفهمه أغناه عن اتباع الشياطين وشركهم الذي يصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة، وينبت النفاق في القلب، وكذلك من أصغى اليه وإلى حديث رسول الله بكليته وحدث نفسه بهما وعمل باقتباس الهدى والعلم منهما لا من غيرهما أغنياه [1] عن البدع والشرك والآراء والتخرصات والشطحات والخيالات التي هي وساوس الشيطان والنفوس، وتخيلات الهوى والبؤس، ومن تعوّد ذلك [2] فلا بد أن يتعود ما لا ينفعه بل يكون مضرة عليه [3] كما أن من عمر قلبه بمحبة الله وخشيته والتوكل عليه [4] أغناه أيضاً عن عشق الصور، وإذا خلا عن ذلك صار عبد هواه، أي شيء استحسنه ملكه واستعبده، فالمعرض عن التوحيد عابد للشيطان مشرك شاء أم أبى، كما في صحيح مسلم عن أبي الهياج الأسدي واسمه حيان بن حصين، قال: قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ، أن لا أدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته. وفي الصحيح أيضاً عن عنامة بن شفى الهمداني قال: كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم فتوفي صاحب لنا فأمر فضالة بقبره فسوي، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها. وقد أمر به وفعله الصحابة

---

(١) في الأصل: من غيري أغناه وهو تحريف ظاهر من الناسخ ومثله فيه كثير نبهنا على بعضه.

(٢) لعل الأصل: ومن تعود ذلك.

(٣) لعل الأصل: بل ما هو مضرة، وكان الأولى أن يقال بل ما يضره.

(٤) يظهر أنه سقط من هنا شيء عطف عليه ما بعده.

والتابعون والأئمة المجتهدون، قال الشافعي في (الأم) ورأيت الأئمة بمكة يأمرون بهدم ما يبنون على القبور . ويؤيد الهدم قوله : « ولا قبراً مشرفاً إلا سويته » وحديث جابر الذي في صحيح مسلم نهى ﷺ عن البناء على القبور ، ولأنها أسست على معصية الرسول لنهيه عن البناء عليها وأمره بتسويتها ، فبنـــاء أسس على معصيته ومخالفته ﷺ بناء غير محترم وهو أولى بالهدم من بناء الغاصب قطعاً ، وأولى من هـــدم مسجد الضرار المأمور بهدمه شرعاً ، إذ إزالة المفسدة أعظم حماية للتوحيد ، والله المستعان ، وعليه التكلان ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلى الله على أفضل الخلق أجمعين ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين.

رسالة عبد العزيز الى الحفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن محمد الى الأخ في الله محمد بن أحمد الحفظي سلمه الله تعالى من الآفات واستعمله بالباقيات الصالحات ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد فإنا نحمد اليكم الله الذي لا إله إلا هو وهو للحمد أهل وهو على كل شيء قدير ، وأسأله أن يصلي على حبيبه من خلقه وخيرته من بريته محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام والتحيات..وصل الخط،أوصلك الله الى رضوانه، وما أشرت اليه من النصيحة صار عندنا معلوماً جزاك الله عنا خيراً ونسأله المعونة والتوفيق والتسديد في جميع الأحوال الظاهرة والخفية ، وما أشرت اليه في كتابك من أن بعض القادمين علينا يأخذون منا أوراقاً يريدون بها الجاه والترفع على من بينه وبينهم ضغائن جاهلية فأنت تفهم أن المملوك ليس له اطلاع على السرائر وإنما عليه الأخذ بالظواهر والله يتولى السرائر ومن خدعنا بالله انخدعنا له، فإذا جاءنا من يقول أنا أريد أن أبايعكم على دين الله ورسوله وافقناه وبايعناه، وبينا له الدين الذي بعث الله به رسوله ﷺ ونأمره بذلك ونحضه على القيام به في بلده، ودعوة الناس اليه وجهاد من خالفه ، فإذا خالف ذلك وغدر فالله حسيبه . وأما الطائفة الثانية وهم الجنود المنتشرة للجهاد فكثير منهم لا نشعر بهم ولا نعرفهم ، بل إذا دخل أهل بلد في الاسلام وعاهدوا ساروا الى من حولهم من غير تحقيق ومعرفة بما يقاتل الكفار عليه،وأما الجيوش والأجناد

الذين نجهزهم من الوادي وأتباعهم فنأمرهم بقتال كل من بلغته الدعوة وأبى عن الدخول في الاسلام والانقياد لتوحيد الله وأوامره وفرائضه واستمسك بما هو عليه من الشرك بالله وترك الفرائض والأحكام الجاهلية المخالفة لحكم الله ورسوله، ومثل هؤلاء لا يحتاجون الى الدعوة اذا كانت الدعوة قد بلغتهم قبل ذلك بسنين وأبوا وأعرضوا عن دين الإسلام وإخلاص العبادة لله، وقد أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارون وأنعامهم ترعى فسبى رسول الله ﷺ النساء والذرية والنعم والشاء مع أن الدعوة قبل القتال مستحبة، ولو كانت الدعوة قد بلغتهم لأن رسول الله ﷺ قال لعلي بن أبي طالب حين بعثه لقتال أهل خيبر: « فادعهم الى الاسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم ».

وأجاب بعضهم: شرع الله الجهاد وأمر بالقتال وبيّن لنا الحكمة في ذلك وموجبه وما يحصل به الكف، قال سبحانه: ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾. قال المفسرون: الفتنة الشرك، والدين اسم عام لكل ما بعث الله به محمداً ﷺ. وقال ﷺ: « بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله لا يشرك به شيء ». وقال: « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها». وقد عمل بهذا أبو بكر ووافقه الصحابة رضي الله عنهم في قتال مانعي الزكاة، فدل الحديث وعمل الصحابة على أن من ترك شيئاً من شرائع الدين الظاهرة وكانوا طائفة مجتمعة على ذلك انهم يقاتلون، قال شيخ الاسلام رحمه الله: كل طائفة ممتنعة عن شريعة من شرائع الاسلام الظاهرة المعلومة فإنه يجب قتالها، فلو قالوا نشهد ولا نصلي قوتلوا حتى يصلوا ولو قالوا نصلي ولا نزكي قوتلوا حتى يزكوا، ولو قالوا نزكي ولا نصوم ولا نحج البيت، قوتلوا حتى يصوموا ويحجوا البيت، فلو قالوا نفعل هذا كله لكن لا ندع الربا ولا شرب الخمر ولا الفواحش ولا نجاهد في سبيل الله ولا نضرب الجزية على اليهود والنصارى ونحو ذلك قوتلوا حتى يفعلوا ذلك كما قال تعالى: ﴿ وقاتلوهم

حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ انتهى . فاعلم أن المقاتلين أنواع منهم من يقاتل على الدخول في الاسلام وهو الإقرار لله بالوحدانية والاعتراف له بذلك والعمل به والشهادة لمحمد ﷺ بالرسالة ، فهذا إذا التزم بذلك التزاماً ظاهراً كف عن قتاله على ذلك ووكلت سريرته الى الله إلا أن قام به ناقض ينقض ما التزمه وأظهر الناقض وترك شريعة من شرائعه كالصلاة والزكاة وغيرهما من الشرائع فيجب على ولي الأمر أن يقاتل هذا وأن يبعث عماله على هذا المنوال وما كان من نقص فهو نقص في الراعي والرعية ، نعم النبي ﷺ أمر معاذاً أن يدعو الى ثلاثة أركان: الشهادتين والصلاة والزكاة ، وأخذ بهذا خلفاؤه رضي الله عنهم لأن غالب عامة الناس إنما خوطبوا بذلك فالحاضرة المظهرة للاسلام في الظاهر وكذا البادية وإن صدر من آحادهم ما هو ناقض كحال آحاد المنافقين زمن النبي ﷺ فقد يصدر من الحاضرة نوع استهزاء وغير ذلك وقد يصدر من آحاد البادية نوع استهزاء ونوع تحاكم الى غير ما أنزل الله لا سيما بادية الجنوب ، وهؤلاء الآحاد اذا أقروا بصدور ما هو ناقض أمروا بالتوبة منه وخوطبوا بالشرائع الظاهرة فان امتنعوا التزام ذلك قوتلوا عليه حتى يلتزموه ويؤدوه وحسابهم على الله .

وأما البلد التي يحكم عليها بأنها بلد كفر فقال ابن مفلح : وكل دار غلب عليها أحكام المسلمين فدار إسلام وان غلب عليها أحكام الكفر فدار كفر ولا دار غيرهما . وقال الشيخ تقي الدين وسئل عن (ماردين) هل هي دار حرب أو دار إسلام؟قال: هي مركبة ، فيها المعنيان،ليست بمنزلة دار الاسلام التي تجري فيها أحكام الاسلام لكون جنودها مسلمين ولا بمنزلة دار الحرب التي أهلها كفار بل هي قسم ثالث يعامل المسلم فيها بما يستحقه ويعامل الخارج عن شريعة الاسلام بما يستحقه . والأولى هو الذي ذكره القاضي والأصحاب) .

أمراء عبد العزيز

أميره على تهامة وما يليها من اليمن	: عبدالوهاب المعروف بكنيته (أبونقطة)
» على الحجاز وما يليه من النواحي	: عثمان بن عبد الرحمن المضايفي
» على عمان	: صقر بن راشد ، رئيس رأس الخيمة
» على الأحساء ونواحيه	: سليمان بن محمد بن ماجد
» على القطيف ونواحيه	: أحمد بن غانم
» على الزبارة والبحرين	: سليمان بن خليفة
» على وادي الدواسر	: ربيع بن زيد الدوسري
» على ناحية الخرج	: إبراهيم بن سليمان بن عفيصان
» على المحمل	: ساري بن يحيى بن سويلم
» على ناحية الوشم (في بلد شقراء)	: عبد الله بن حمد بن غيهب
» على ناحية سدير	: عبد الله بن جلاجل
» على ناحية القصيم (في بريدة)	: حجيلان بن حمد
» على جبل شمر (في حايل)	: محمد بن عبد المحسن بن فايز بن علي

(عن ابن بشر)

قضاة عبد العزيز

قاضيه في الدرعية : بعد الشيخ : ابنه : حسين بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب
وابنه : عبدالله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب .
امام قصره في الدرعية: عبد الرحمن بن خميس .
قاضيه على ناحية الوشم: عبد العزيز بن عبد الله الحصين .
.. على ناحية سدير : حمد بن راشد العريني .
على منيخ وما يليه : محمد بن عثمان بن شبانة .
على ناحية القصيم : عبد العزيز بن سويلم ، من أهل الدرعية
على ناحية الخرج (في الدلم) : محمد بن سويلم ، من أهل الدرعية
على ناحية الجنوب (في حوطة بني تميم) : سعيد بن حجي
وأما غير ذلك من النواحي فلا يحضرني الآن عد قضاتها ، إلا أنه كان يبعث اليها قضاة نحو سنة ثم يبعث غيرهم .

— ابن بشر —

على حريملا : حسن بن عبد الله بن عبدان
على الدرعية : عبد الرحمن بن خميس
(تذكرة أولى النهي والعرفان) — إبراهيم بن عبيد آل عبد المحسن

وصف عبد العزيز

خوفه من الله . عـــدله . بساطته . حبه للرعية
عطفه على الضعفاء ورعايته للعلماء والطلاب
كان عبد العزيز « مهدي زمانه »

قال ابن بشر :

(كان عبد العزيز كثير الخوف من الله ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر .

لا تأخذه في الله لومة لائم، ينفذ الحق ولو في أهل بيته وعشيرته، لا يتعاظم عظيماً إذا ظلم فيقمعه عن الظلم وينفذ الحق فيه، ولا يتصاغر حقيراً ظُلِم فيأخذ له الحق ولو كان بعيد الوطن .

وكان لا يكترث في لبـــاسه ولا سلاحه ، بحيث أن بنيه وبني بنيه محلاة سيوفهم بالذهب والفضة ، ولم يكن في سيفه شيء من ذلك إلا قليل .

وكان لا يخرج من المسجد بعد صلاة الصبح حتى ترتفع الشمس ويصلي فيه صلاة الضحى .

وكان كثير الرأفة والرحمة بالرعيـــة ، وخصوصاً أهل البلدان ، بإعطائهم الأموال وبث الصدقة لفقرائهم والتفحص عن أحوالهم ، وقـد ذكر لي بعض من أثق به أنه يكثر الدعاء لهم في ورده ، قال وسمعته يقول :

« اللهم أبقِ فيهم كلمة لا إله إلا الله ، حتى يستقيموا عليهـــا ولا يحيدوا عنها . »

شيوع الأمن والطمأنينة :

وكانت الأقطار والرعية في زمنه آمنة مطمئنة في عيشة هنيئة ، وهو حقيق بأن يلقب : **مهـــدي زمانه** ، لأن الشخص الواحد يسافر بالأموال العظيمة أي وقت، شتاء وصيفاً ، يمناً وشاماً ، شرقاً وغرباً ، في نجد والحجاز واليمن وتهامة وغير ذلك ، لا يخشى أحداً إلا الله لا سارقاً ولا مكابراً ، وكانت جميع بلدان نجد من العارض والخرج والقصيم والوشم والجنوب وغـــير ذلك من النواحي في أيام الربيع يسيبون جميع مواشيهم في البراري والمفالي من الإبل والخيل والجيـــاد والبقر والأغنام وغير ذلك ، ليس لها راعٍ ولا مراعٍ بل إذا عطشت وردت على البلدان ثم تصدر إلى مفاليها حتى ينقضي الربيع أو يحتاج لها أهلها لسقي زروعهم ونخيلهم ، وربمـــا تلقح وتلد ولا يدري أهلها إلا إذا جاءت وولدها معها ، إلا الخيل الجياد فإن لهـــا من يتعاهدها في مفاليها لسقيها وحدوها بالحديد ، وكانت إبل أهل سدير ونجائبهم وخيلهم مسيبات أيام الربيع في الحمـــادة وفي اراط والعبلة ، ومعها رجل واحد يتعاهدها ويسقيها ويزور أهله ويرجع اليها وهي في مواضعها فيصلح ربطها وقيودها ثم يغيب عنهـــا . وكذلك خيل أهل الوشم ونجائبهم في الحمادة وفي روضة محرقة وغيرهما وهكذا يفعلون بها. وكذلك خيل عبد العزيز وبنيه وعشيرته في النقعة — الموضع المعروف قرب بلد ضرمى — وفي الشعيب، المعروف بقرى عبيد من وادي حنيفة ، وليس عندها إلا من يتعاهدها لمثل ما ذكرناه ، وكذلك جميع النواحي تفعل ذلك .

شدّته على الجناة :

وكان رحمه الله تعالى ، مع رأفته بالرعية ، شديداً على من جنى جنـــاية من الأعراب أو قطع سبلاً أو سرق شيئاً من مسافر ، بحيث من فعل شيئاً من ذلك أخذ ماله نكالاً أو بعض ماله أو شيئاً منه على حسب جنايته ، وأدّبه غير ذلك أدباً بليغاً . وحُكي أنه أتى حاج من العجم ونزل قرب بوادي سبيع فسرق من الحاج غرارة فيها من الحوائج ما يساوي عشرة قروش، فكتب صاحب الغرارة

إلى عبد العزيز يخبره بذلك ، فأرسل إلى رؤساء تلك القبيلة فلما حضروا عنده قال لهم : إن لم تخبروني بالغرارة ، جعلت في أرجلكم الحديد وأدخلتكم السجن وأخذت نكالاً من أموالكم . فقالوا : نغرمها بأضعاف ثمنها ، فقال : كلا ، حتى أعرف السارق . فقالوا : ذرنا نصل إلى أهلنا ونسأل عنه ونخبرك . ولم يكن بد من إخباره . فلما أخبروه به أرسل إلى ماله ، وكان سبعين ناقة ، فباعها وأدخل ثمنها بيت المال ، وجيء بالغرارة لم تتغير .. وكان صاحبها قد وصل إلى وطنه ، فأرسلها عبد العزيز إلى أمير الزبير وأمره أن يرسلها إلى صاحبها في ناحية العجم .

وذكر لي شيخنا القاضي عثمان بن منصور أن رجالاً من سرّاق الأعراب وجدوا عنزاً ضالة في رمال نفود السر، المعروف في نجد، وهم جياع ، وأخبرني أنهم أقاموا يومين أو ثلاثة مقوين ، فقال بعضهم لبعض : لينزل أحدكم على هذه العنز فيذبحها لنأكلها . فكل منهم قال لصاحبه : إنزل اليها ، فلم يستطع أحد منهم النزول خوفاً من العاقبة على الفاعل ، فألحّوا على رجل منهم، فقال : والله لا أنزل اليها، ودعوها فإن عبدالعزيز يرعاها. فتركوها وهم في أشد الحاجة اليها.

الأمن في البوادي والطرق :

وكانت الحجاج والقوافل وجباة الغنائم والزكاة والأخماس وجميع أهل الأسفار يأتون من البصرة وعمان وبلاد العجم والعراق وغير ذلك الى الدرعية ويحجون منها ويرجعون الى أوطانهم ، لا يخشون أحداً من جميع البوادي مما احتوت عليه هذه المملكة لا بحرب ولا سرق ، وليس يؤخذ منهم شيء من الإخاوات والقوانين التي تؤخذ على الحجاج ، وبطل جميع الاخاوات والجوائز على الدروب التي للأعراب التي أحيوا بها سنن الجاهلية .

يخرج الراكب وحده من اليمن وتهامة والحجاز والبصرة والبحرين وعمان ونقرة الشام لا يحمل سلاحاً بل سلاحه عصاه ، لا يخشى كيد عدو ولا أحد يريده بسوء .

وأخبرني أنه ظهر مع عمال من حلب الشام قاصدين الدرعية ، وهم أهل ست

نجائب محملات ريال زكوات بوادي أهل الشام ، فإذا جنّهم الليل وأرادوا النوم نبذوا أرحلهم ودراهمهم يميناً وشمالاً ،إلا ما يجعلونه وسائد تحت رؤوسهم.

وكان بعض العمال إذا جاؤوا بالأخماس والزكاة من أقاصي البـــلاد يجعلون مزاود الدراهم أطناباً لخيمهم وربطاً لخيلهم بالليل لا يخشون من سارق ولا غيره.

العناية بالابل الضالة :

وكان في الدرعية رعية إبل كثيرة ، وهي ضوال الإبل التي توجد ضائعة في البر والمفازات جمعاً أو فرادى ، فمن وجدها من باد أو حاضر في جميع أقطار الجزيرة أتى بها الى الدرعية خوفاً أن تعرف عندهم ، ثم تجعل من تلك الإبل . وجعل عبد العزيز عليها رجلاً، يقال له « عبيد بن يعيش » يحفظها ، وجعل فيها رعـــاة ، ويتعاهدها بالسقي والقيام بما ينوبها ، فكانت تلك الإبل تتوالد وتتناسل وهي محفوظة ، فكل من ضاع له شيء من الإبل من جميـع البادية والحاضرة أتى الى تلك الإبل فإذا عرف ماله أتى بشاهدين ، أو شاهد ويمينه ، ثم يأخذه ، وربما وجد الواحدة اثنتين .

كثرة موارد الزكاة :

وكان ما يحمل إلى الدرعية في زمنه وزمن ابنه سعود من الأموال والزكاة والأخماس ، وغير ذلك من السلاح والخيل العتاق والإبل وغير ذلك مما يفرق على النواحي والبلدان وضعفائهم وضعفاء البوادي ، لا يحصيه العدد .

زكاة مطير :

وأخبرني أحمد بن محمد المدلجي ، قال : كنت كاتباً لعمال علوي من مطير مرة في زمن عبد العزيز ، فكان مـا حصل منهم من الزكاة في سنة واحدة : احد عشر ألف ريال . وكان عمال برية من مطير ، رئيسهم عبد الرحمن بن مشاري بن سعود فكان ما جبي منهم اثني عشر ألف ريال ، ومن هيثم سبعة آلاف ريال ، وكانت

زكاة مطير في تلك السنة : ثلاثين ألف ريال .

زكاة عنزة وبوادي الشام :

وكان عنزة أهل الشام وبوادي خيبر وبوادي الحويطات المعروفات ومن في نجد من عنزة ، يبعث اليهم عوامل كثيرة ويأتون منهم بأموال عظيمة .

وأخبرني من أثق به قال : أناخ في يوم واحد تحت الطلحة المعروفة عند باب بلد شقرا أربع عوامل من عمال بوادي الشام ، كل عاملة معها عشرة آلاف ريال.

زكاة شمر والظفير وغيرهما :

قلت : ويأتي غير ذلك من زكاة بوادي شمر وبوادي الظفير قريب مـا يأتي من عنزة ، ومن قحطان وبوادي حرب وعتيبة وجهينة وبوادي اليمن وعمان وآل مرة والعجمان وسبيع والسهول وغيرهم ما يعجز عنه الحصر .

الزكاة الشرعية فقط :

وتؤخذ منهم الزكاة على الأمر الشرعي ولا يؤخذ فيها كرائم الأموال ولا دونها إلا من غيب من إبله أو غنمه شيئاً عن الزكاة فيؤخذ منه الزكاة والنكال ، وكان يوصي عماله بتقوى الله وأخذ الزكاة على الوجه المشروع ، وإعطاء الضعفاء والمساكين ، ويزجرهم عن الظلم وأخذ كرائم الأموال .

صدقات عبد العزيز للعلماء والطلاب والضعفاء .. والأرامل :

وكان رحمه الله تعالى مع ذلك كثير العطـــاء والصدقات للرعية من الوفود والأمراء والقضاة وأهل العلم وطلبته ومعلمة القرآن والمؤذنين وأئمة المساجد ، حتى أئمة مساجد نخيل البلدان ومؤذنيهم ، ويرسل قهوة لأهل القيام في رمضان.

وكان الصبيان من أهل الدرعية إذا خرجوا من عند المعلم يصعدون اليه بألواحهم ويعرضون عليه خطوطهم فمن تحاسن خطه منهم أعطاه عطاء جزيلا وأعطى الباقين دونه .

وكان عطاؤه للضعفاء والمساكين من الغاية ، فكان منهم من يكتب اليه منه

ومن أمه وزوجته وابنه وابنته من كل واحد كتاباً وحده ، فيوقع لكل كتاب منهم عطاءه فكان الرجل يأتيه بهذا السبب عشرون ريالاً وأقل وأكثر .

وكان إذا مات الرجل من جميع نواحي نجد يأتي أولاده إلى عبد العزيز وابنه يستخلفونه فيعطيهم عطاء جزيلاً ، وربما كتب لهم راتباً في الدايون .

وكان كثيراً ما يفرق على أهل النواحي والبلدان كثيراً من الصدقات في كل وقت ، وكل سنة يعطي كل أهل بلد وكل أهل ناحية ألف ريال وأقل وأكثر . ويسأل عن الضعفاء والأيتام في الدرعية وغيرها ويأمر باعطائهم ، وكثيراً ما يفرق على بيوت الدرعية وضعفائها .

وكان كثيراً ما يكتب لأهل النواحي بالحضّ على تعليم القراءة وتعلم العلم وتعليمه ، ويجعل لهم راتباً في الديوان ، ومن كان منهم ضعيفاً يأمره أن يأتي إلى الدرعية ويقوم بجميع أنوابه .

وأخبرني كاتبه قال : إن عبد العزيز أخذه يوماً صداع ، فدعاني وقال : اكتب صدقة لأهل النواحي . فأملي عليّ لأهل منفوحة خمسمائة ريال وأهل العيينة مثل ذلك وأهل حريملاء سبعمائة ريال وأهل المحمل ألف ومائة ريال ، ولجميع نواحي نجد على هذا المنوال .. قال : قيمتها تسعون ألف ريال .

وأتى اليه يوماً خمسة وعشرون حملاً من الريالات ، فمرّ عليها وهي مطروحة فنخسها بسيفه ، وقال : اللهم سلطني عليها ولا تسلطها عليّ ، ثم بدأ في تفريقها.

غزواته :

وإذا أراد الغزو ، معه أو مع ابنه سعود ، بعث رسله إلى رؤساء القبائل من العربان ، وواعد جميعهم يوماً معلوماً على ماء معلوم ، فلا يتخلف أحد عن ذلك الموعد ، لا حقير ولا جليل ، لا من بوادي الحجاز ولا العراق ولا الجنوب ولا غير ذلك ، فمن ذكر متخلفاً ممن تعين عليه الأمر من رجل أو فارس أُدِّبَ أدباً بليغاً وأخذ من ماله نكالاً ، والرجل الواحد أو الإثنان إذا أرسلهم عبد العزيز وابنه سعود إلى البوادي من جميع أقطار جزيرة نجد أخذوا منها النكال من

الأموال والخيل والإبل وغير ذلك ويضربون الرجال ويعذبون الجرم بأنواع العذاب ولا يتجاسر أحد أن يقول لهم شيئاً أو يشفع فيه بل كلهم طائعون مذعنون .

وهذا الذي ذكرت من جهة الأمن وطاعة الحاضر والباد وغير ذلك اتفق في زمنه وزمن ابنه سعود وصدر من ولاية عبد الله ، قبل أن تسلط الدولة المصرية على المسلمين بسبب الذنوب .

محاسن وفضائل لا تحصر :

وبالجملة فمحاسنهم وفضائلهم أشهر من أن تذكر وأكثر من أن تحصر ، ولو بسطت القول في وقائعهم وغزواتهم وما مدحوا به من الأشعار وما قصد بابهم من الرؤساء والعظماء من أقاصي الأقطار ، وما حمل اليهم من الأموال والسلاح والخيل ، التي لا يدركها العد والتذكار ، لجمعت فيها عدة أسفار ، ولكني قصدت الإيجاز والإختصار ..) .

عبد العزيز كما يصفه الريحاني :

يقول أمين الريحاني ، في كتابه « نجد وملحقاته » :

(.. بعد محمد بن سعود وإخوانه الأنصار ، ظهر عبد العزيز بن محمد ، الذي شرع في عهد أبيه يشنُّ الغارات ، فحمل رايات التوحيد الى أقصى الأقطار العربية وبسط نفوذ السيادة السعودية في البوادي والحضر . ولكنه على تعدد غزواته واتساع مجال جولاته ، **لم يكن غير ممهد السبيل لابنه سعود ، الفاتح الأول الأكبر .)**

ويقول الريحاني في مكان آخر من كتابه :

(.. اعتزل عبد العزيز العمل في شيخوخته ، وهو الذي قضى أكثر من أربعين سنة من حياته في الغزو والحروب فلا كَلَّ ولا مَلَّ ، ولا قعد بعد هزيمة ، ولا لها بعد انتصار ، فقد كان يزحف برجاله من أقصى البلاد إلى أقصاها في يومي البؤس والنعيم ، فيهبُّ يوماً على الربع الخالي ويوماً في القصيم ويوماً في

السماوة بالعراق وآخر في وادي الدواسر ، **كأنه من العناصر كالمطر او السّموم ، وقد كان مطراً للموحدين وسَموماً لأعدائهم**، يغزو في بعض السنين ست غزوات ويعود بالغنائم الى الدرعية فيقسمها بين رجاله على السواء .) .

رأيُنـــــا :

القول بأن عبد العزيز لم يكن إلا ممهداً لابنه سعود الفـاتح الأكبر .. قول ينطوي على كثير من الظلم لعبد العزيز ، الذي يعود اليه الفضل الأكبر ، بعـــد المحمدين — محمد بن عبدالوهاب ومحمد بن سعود — في تركيز دعائم الدولة السعودية وتقويتها وتوسيع آفاقها ونشر التوحيد وتعميم التعليم وإشاعة الأمن .. وسعود لم يزد في حجم الدولة السعودية بعد أبيه إلا فتحه الحرمين وغزوه أطراف الشام وإرساله الجيوش الى بعض بلدان الخليج ، وقد كان هـذا كله ، أو بعضه ، سبباً من أسباب انهيار الملك ، والله أعلم .

نحن لا نكر فضل سعود ومزاياه الكثيرة وجهاده الموصول ، ولكن نعته بالكبير ، ومـــا رافق اسمه من دويّ ، بسبب حروبه ، لا يحجب عنا فضل عبد العزيز ، وهو عندنا أعظم من ابنه سعود .

عبد العزيز في شعر سلامة :

وقال الشاعر الكبير « بولس سلامة » في ملحمته الكبرى التي لخص فيهـا التاريخ السعودي ، يصف عبد العزيز بن محمد :

(يا سيوف الوغى دروع سعودٍ ... الوفيون منـــكم والكرام
قد نصرتم « عبد العزيز » أميراً ... فبكم عزّ رمحُه والحســـام
صائن الدين من خطوب عوادٍ ... وإمـــام الزهادة الصوّام
الوديع المهيب خَلقاً وخُلقاً ... المصلي والعـــابد القوّام
بسط الأمن في مباسط نجدٍ ... فتآخت صقوره والحمــــام
الحبـــارى في ظله آمناتٌ ... ومع **النمر** تسرح الأنعـــام

مصرعـــه :

حائط الأمن غالــه سيف وغد حينما كان في السجود الإمـــام
عبَدَ اللهَ منـــذ ما أذّن الداعي وأذكى عقل الصبي احتلام
فتلقّـى النعيمُ روحَ تقيٍّ خشيةُ الله بدؤه والختـــام
شَرُفَ اثنان من دمٍ وائليٍّ : باترٌ غـــادرٌ وموتٌ زؤام
ومضى الخـلد بالوسام دمياً إنمـــا مصرع الشهيد وسام
سيفلُّ الحصونَ سيف سعود ومن الضرب تستجير الأكام
للجبان الغدّار لعنة أجيا لٍ وحربٌ مبيدةٌ وانتقام
للموالين عزةٌ وصفاءٌ للعداة الإرمال والإيتام



حوليات المعارك والحوادث

في عهـــد عبد العزيز

السنة	المعارك والحوادث
١١٧٩	غزا عبد العزيز الرياض مرتين
١١٨٠	غزا عبد العزيز الرياض ، وغزا ثرمداء (وقعة الصحن)
١١٨١	غزا عبد العزيز الرياض مرتين : وقعة (المشيقيق) ووقعة (باب الثميري)
	غزا هذلول بن فيصل (العودة) واستولى عليها
	بايع أهل الوشم وأهل سدير
	أول القحط المشهور باسم (سوقه)
١١٨٢	غزا سعود بن عبد العزيز (الزلفي) و(حائر سبيع) و (عنيزة) وأعراباً من آل مرة
١١٨٣	غزا عبد العزيز (الجمعة) ، واستولى على (الهلالية) ، ودخلها وتلقى فيها بيعة كثير من أهل القصيم

السنة	المعارك والحوادث
١١٨٤	غزا عبد العزيز حائر سبيع ، وبايع له أهل الحائر . وغزا المحمرة (من بوادي الظفير)
١١٨٥	غزا عبد العزيز الرياض مرتين ، وقتل ولدين لدهام بن دواس . أرسل عبد العزيز والشيخ مندوباً عنهما إلى شريف مكة للمناظرة .
١١٨٦	غزا عبد العزيز الرياض مرتين
١١٨٧	غزا عبد العزيز الرياض هرب دهام بن دواس من الرياض **فتح الرياض**
١١٨٨	استولى عريعر بن دجين على (بريدة) وسار إلى الخابيــــة ، فمات فجأة .. وتقهقر جيشه وعاد إلى الأحساء غزا سعود الدلم والزلفي بيعة أهل منيخ وحريق نعام
١١٨٩	غزا عبد العزيز ضبيعة (الخرج) استدعى زيـــد بن زامل وصاحب وادي الدواسر وبعض رؤساء الجنوب رئيس نجران وساروا معه لقتــال الدرعية ، فأغاروا أولاً على (حائر سبيع) وقاتلوا أهله ثم صالحوهم وساروا إلى (ضرمى) فحاصروها ولكنهم عجزوا عنها فتفرقوا ورجعوا إلى بلدانهم .. غزا سعود (بريدة) ، واستسلمت (بريدة) لرجال عبد العزيز .
١١٩٠	نقض ابن زامل بيعته . غزا عبد العزيز الدلم واستولى عليهــا وسمى ابن عفيصان أميراً فيها .

السنة	المعارك والحوادث
	بايعت (اليمامة) ، ثم نكثت العهد .
	استرجع ابن زامل بلدة الدلم وهرب ابن عفيصان .
	غزا عبد العزيز آل مرة ..
١١٩١	استولى عبد الله بن محمد بن سعود على (حرمة)
	فتنة حرمة والمجمعة . مسير سعود إلى حرمة وحصاره لهـا واستسلامها . استعمال ابن جلاجل أميراً على سدير ومنيخ .
١١٩٢	نزل سعدون بن عريعر الخرج وصالح عبد العزيز ثم نقض الصلح .
١١٩٣	فتنة جديدة في حرمة ، واستيلاء سعود عليها وتدميرها ..
١١٩٤	غزوة سعود وعمه عبد الله للزلفي . بيعة الزلفي
١١٩٥	غزا سعود الدلم وأمر ببناء قصر (البدع) ..
	غزا عبد العزيز الدلم ونعجان وحوطة الجنوب واليمامه .
	غزا سعود الظفير .
١١٩٦	فتنة القصيم (ما عدا بريدة والرس والتنومة) وحصار سعدون بن عريعر وأنصاره من أهل القصيم لبريدة ، ثم عجزهم عنها ، ومسيرهم إلى (الروضة) – في سدير – واستيلاؤهم عليها .
	سعود يحاصر الروضة ويستولي عليها .
١١٩٧	سعود يغزو (مطير)
١١٩٨	سعود يغزو (العيون) في الأحساء ، ويغير على أهل اليمامة ، ويغزو (عنيزة) .
١١٩٩	بيعة رؤساء الدواسر .
	سعود يستولي على الدلم ويعيد سليمان بن عفيصان أميراً عليها .

السنة	المعارك والحوادث
١٢٠٠	غزا سعود بوادي قحطان .
١٢٠١	مسير (ثويني) إلى التنومة فبريدة ، ثم رجوعه إلى بلاده .. حجيلان يغزو جبل شمر ، فيبايع أهله .
١٢٠٢	سعود يستولي على (عنيزة) البيعة لسعود بولاية العهد ابن عفيصان يغزو العقير و(الجشة) في الأحساء . كما يغزو (قطر). بيعة أهل وادي الدواسر .
١٢٠٣	سعود يغزو بني خالد ، ثم المنتفق . ثم أهل المبرز وقرية الفضول (في الأحساء)
١٢٠٤	سعود يغزو بني خالد ويستعمل زيد بن عريعر أميراً عليهم
١٢٠٥	مسير شريف مكة غالب بن مساعد وجنوده إلى نجد ، وحصارهم لقصر بسام في السر ، ثم مسيرهم عنه إلى (الشعراء) وحصارهم لها وهزيمتهم عنها ورجوعهم إلى أوطانهم .. غزو سعود للبوادي التي ساعدت شريف مكة وأخذه أموالهم ..
١٢٠٦	سعود يحاصر (سيهات) و (عنك) في الأحساء ويأخذهما عنوة . سعود يغزو البوادي من مطير وحرب وغيرهم قرب جبل شمر ويأخذ منهم غنائم كبيرة . **وفاة الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب**
١٢٠٧	سعود يغزو بني خالد ويقتل منهم مقتلة عظيمة ويأخذ غنائم هائلة. **أهل الأحساء يبايعون لسعود** أهل الأحساء ينقضون البيعة .

السنة	المعارك والحوادث
١٢٠٨	سعود يسير إلى الأحساء ، فيستولي على (الشقيف) ويحاصر أهل (المطيرفي) ويصالحهم . براك يبايع باسم أهل الأحساء على السمع والطاعة ويصبح نائباً لعبد العزيز في الأحساء وتزول ولاية آل حميد عن الأحساء . بيعة جوف آل عمرو لعبد العزيز ، بعد قتال . ابن عفيصان يستولي على (الحويلة) في قطر ويغزو الكويت .
١٢٠٩	مسير سعود إلى (تربة) ومحاصرته لها .
١٢١٠	شريف مكة غالب بن مساعد يغير على هادي بن قرملة . سعود يغير على عربان من عتيبة ومطير في الحجاز معركة الجمانية بين شريف مكة ورجال عبد العزيز فتنة في الأحساء.مسير سعود إلى الأحساء وتأديبه الشديد للمتمردين.
١٢١١	حملة ثويني الكبرى على نجد .. ومقتله وهزيمة جيوشه
١٢١٢	رؤساء عتيبة والبقوم يبايعون عبد العزيز سعود يغزو (سوق الشيوخ) في العراق وبوادي من شمر هادي بن قرملة وأنصاره يتغلبون على جيوش الشريف
١٢١٣	زحف علي كيخيا نائب والي العراق إلى نجد على رأس جيش كبير ، ونزوله في الأحساء ، وحصاره لقصر المبرز وقصر الهفوف وعجزه عنهما ، وعودته إلى بلاده بعد مصالحته لسعود .. حج ركب من أهل نجد(بعد مصالحة شريف مكة للإمام عبدالعزيز، بعد وقعة الخرمة)
١٢١٤	حج سعود بن عبد العزيز ومعه كثير من أهل نجد ..

السنة	المعارك والحوادث
١٢١٥	حج سعود بالمسلمين (وكان مع والده ، ولكن والده اضطر لمرضه إلى العودة من منتصف الطريق)
١٢١٦	غزا سعود بلدة (كربلاء) في العراق عبدالعزيز يمدّ آل خليفة بجيش لتخليص البحرين من سلطان مسقط
١٢١٧	نقض الصلح مع شريف مكة ، واستيلاء المضايفي على (الطائف) مسير سعود إلى الحجاز . استيلاء سعود على مكة ، بعد هرب الشريف إلى جدة .
١٢١٨	مصرع الإمام عبد العزيز .

استدراك

حول كلمة الوهابية

استعمل المؤرخان النجديان ابن غنام وابن بشر كلمة « المسلمين » في تسمية أتباع الدولة السعودية الاولى عامة، ومقاتلتها خاصة، وربما أطلقا عليهم اسم « الموحدين » أيضاً ، وكلا التسميتين تبدو اليوم غريبة .. وكأن فيها لوناً من ألوان التحدي للآخرين والشك في صحة معتقداتهم ..

كانوا يطلقون على أنفسهم اسم « المسلمين » — أو « الموحدين » — يختصون به قومهم دون غيرهم ، حتى أزالوا معالم الشرك والشركيات ، وقضوا على الجهل والخرافات، وبذلك تحققت مقاصد الدعوة، ولم تبقَ اليوم حاجة —في اعتقادنا— إلى هذا التخصيص الذي كان يقترن بمرحلة معينة من التاريخ !

إن العالم الإسلامي، في هذا الزمن، مدعو إلى توحيد صفوفه لمواجهة الغزوات الإلحادية والتحديات المختلفة ، تصدر عن بلاد شرقية وغربية ، تريد القضاء على الديانات والقيم الروحية كلها ، لا تفرق بين دين ودين ، ومذهب ومذهب !

وها نحن نرى ورثة الدعوة السلفية الإصلاحية ، في المملكة ، أكثر الناس وعياً لهذه الحقيقة ، وهـذا **الفيصل العظيم** يحمل بأمانة وقوة لواء التضامن

الإسلامي، يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وينفق في الدفاع عن الإسلام والتأليف بين قلوب المسلمين على اختلاف أقطارهم وتباين اجتهاداتهم أكرم جهده وأثمن وقته، ولسنا الآن في تبيان خدماته الجليلة الموصولة للإسلام، فلذلك موضع آخر، ولكننا نحب أن ننبه إلى أن الذين كافحوا الشرك، من قبل، في جزيرة العرب، لو عاشوا إلى اليوم، لما فعلوا إلا ما يفعله أحفادهم، من « تعميم » كلمة المسلمين، وتوحيد كلمتهم، ليقفوا كالبنيان المرصوص أمام أعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر ليفرقوهم ثم ليسلبوهم ديانتهم وأصالتهم !

كتبنا هـــذا التمهيد، لنصل منه إلى تقرير موقفنا من « مصطلح » تاريخي استعمله ابن غنام وابن بشر — وهو تسمية أهل نجد وحلفائهم باسم «المسلمين» — هل نتابعهما عليه أم نفارقهما فيه لتغير الزمن ؟

لقد حافظنا على النصوص كما أوردها أصحابها .. ولكننا استعملنا في كتابنا تعابير اخرى، ومنها : « الوهابية »، وهي في طليعة التسميات المشهورة التي سمّى بها المؤرخون العرب والأجانب أتباع الدولة السعودية الاولى — قبل أن تعرف بهذا الاسم — ولذلك لم ننكرها واستعملناها في مواضع من كتابنا .

وقد طلب منا معالي الشيخ حسن عبدالله آل الشيخ أن نبدل كلمة «الوهابيين» بالسعوديين أو أهل نجد أو رجال الدرعية، أو نحو ذلك .. لأن أعداء الدعوة السلفية الإصلاحية، التي نهض بها الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب، أرادوا تشويه حركته وإيهام الناس أنه جاء بمذهب خامس جديد غير المذاهب السنية الأربعة المعروفة فأطلقوا عليه اسم المذهب الوهابي وسمّوا أنصاره « الوهابيين » حقداً وكيداً .

والواقع أننا أخذنا بنصيحة معاليه الرشيدة ما استطعنا، وإن كنا نرى أن كلمة «الوهابية» هزمت خصومها هزيمة كاملة، فلم تعد تحمل المعنى الذي أرادوا إلصاقه بها، وإنما أصبحت تعني الحركة الاصلاحية السلفية ليس غير، وذلك بعد أن عرف النـــاس حقيقتها واكتشفوا دسائس خصومها، وأدركوا أن الشيخ كان

سلفياً حنبلياً ، دعـا إلى الإسلام الصحيح ، وشدّد على الدعوة إلى التحرر من الشرك والجهل والسيطرة الأجنبية .. وبذلك قامت في جزيرة العرب أول دولة عربية حرة عزيزة قوية ، يظللها لواء الإسلام ، بعد أن طوّت السلطنة العثمانية مجد العرب واسمهم عن عيون العالم زمناً طويلاً .

ولعلنا نستطيع أن نحتج لاستعمال كلمة الوهابية ، فوق ذلك ، بأن بعض أعلام نجد الكبار ، استعملوا هذه الكلمة أيضاً ، فالشيخ سليمان بن سحمان جعل عنوان كتاب له :

« الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية »

وقال في مقدمة كتابه :

(أهل الاسلام الموحدين من أهل نجد ، المشهورين بالوهابية) .

ووردت الكلمة أيضاً في كتابات أعلام نجديين غير متهمين .



جدول الخطأ والصواب

وقعت في الكتاب أخطاء يسيرة أشرنا إلى بعضها في هـذا الجدول ، وربما وقعت أخطاء اخرى في « النصوص » التي اقتبسنا شيئاً منها في كتابنا . فهناك كلمات وأسماء نقلناها كما جاءت في مصادرها ، مع شكنا في صحتها ، ونرجو أن يتسع وقتنا لتحقيقها ، مثلاً .. نقلنا عن ابن غنام في الصفحة ٢٠ من كتابنا – السطر ١١ – قوله : (غزا ركب لأهل بريدة ظهرة مع النفيشي) ، فكتابة النفيشي بالثاء جائزة في اللغة، نسبة إلى «النفيش»، ولكن وجود أسرة مشهورة في المملكة باسم النفيسي أو النفيسة ترجح وقوع تصحيف « أو خطأ مطبعي » في تاريخ ابن غنام ، والله أعلم .

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٦	٩	فيها	فبها
٨٤	٢٠	ولي بعهده	ولي بعده
٨٧	٧	والفضول	الفضول
٩٢	١٢	فقاتلوهم	فقاتلهم
١٠٣	١٩	كلها	كلهم
١٠٦	٤	والقطر	والنصر

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣٠	٢٣	التقنوا	التقوا
١٣١	١	شفائي	شفائى أو شفائه .
١٣٣	١٢	الدعوة	الدعوى
١٣٤	٦	للحبج	بالحج
١٣٦	٢١	وجدد	وجدة
١٣٧	١٩	الشوكتاني	الشوكاني
١٣٨	١٠	سل	بسل
١٤٠	١٩	خاف منها من	خاف منها على
١٤٣	١٢	سار اليم	سار اليهم
١٤٣	١٩	بهم (العدوة)	بهم في (العدوة)
١٤٤	٥	الملقت	الملقب
١٥٤	٢٣	تحت إمرته كان	تحت إمرته ، وكان ..

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

طبع بمطابع دار الشبل للنشر والتوزيع والطباعة
ص ب ٢١٢٩١ الرياض- ١١٤٧٥ -تليفون + فاكس ٤٨٨٠٠٤٧

كتب المؤلف

الدستور السوري، باللغة الفرنسية
عبقرية الإسلام في أصول الحكم
الحقوق الدستورية
الحقوق الرومانية
الحقوق المدنية الفرنسية
الحقوق الجزائية الخاصة
أوراق
تاريخ البلاد العربية السعودية :
١ ـ عهد التأسيس
٢ ـ عهد الإمام عبدالعزيز بن محمد
٣ ـ عهد الإمام سعود
٤ ـ عهد الإمام عبدالله بن سعود
ـ فيصل، تاريخ مملكة في سيرة زعيم
ـ الإمام تركي بن عبدالله
ـ رجل في جلد آخر، وقصص صغيرة

كتب معدة للطبع أو قيد الإعداد
ـ أوراق الذهب
ـ معاوية
ـ الأسطول الإسلامي
ـ ابن خلدون
ـ خالد بن صفوان
ديوان شعر
الصلات الدولية في الإسلام
أيوب
الخ . .
مسرحيات :
ـ زنوبيا
ـ كليوباترة
ـ بلقيس ـ ملكة سبأ
ـ المطلقات

المؤلف

- ولد في دمشق، ونـال الشهادة الثانوية في سن مبكرة جداً، وتكاد لا تصدق.
- نال شهادة الحقوق في دمشق، وشهادة الحقوق من كلية الحقوق في باريس، ودكتوراة الدولة في الحقوق العامة والخاصة من جامعة باريس، وشهادة في فقه اللغة، وشهادة في الأخلاق وعلم الاجتماع من السوربون، وشهادة في الصحافة من معهد العلوم الاجتماعية العليا بباريس.

مناصبـه السابقـة:

- نائب دمشق مراراً.
- وزيـر الشبـاب والدعاية (الإعلام)، ووزير العدل ووزير المعارف مراراً.
- أستاذ ذو كرسي في كلية الحقوق بدمشق، ورئيس الجامعة بالوكالة مراراً.
- عضو المجمع العلمي العربي بدمشق.
- كبير المستشارين في وزارة المعارف، بالمملكة العربية السعودية، ومستشار في دارة الملك عبدالعزيز
- رئيس تحرير المجلة العربية.
- وقـد أصـدر في دمشق مجلة «الحياة الأدبية» ثم جريدة «النضال» وترأس تحرير جريدة «الجزيرة» وكتب مقـالات وبحـوثاً ادبية في مجلات وصحف كثيرة في سوريا ولبنان ومصر.



طبـع بمـطابـع: دار الشبـل للنشر والتـوزيـع والطبـاعـة
ص ب ٢١٢٩١ الرياض ـ ١١٤٧٥ ـ تليفون + فاكس ٤٨٨٠٠٤٧